تقديم

بين دفتي هذا العدد من مجلة « دراسات تاريخية » بعض من الابحاث والدراسات التي القيت في المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، الذي عقد في رحاب كلية الآداب بجامعة دمشق في الفترة ما بين ١٦ – ٢٢ جمادى الاخرة ١٤٠١هـ / ٢٠ – ٢٦ نيسان ١٩٨١ . وقد شاءت المجلة أن تبدأ بتعريف قرائها بما قدم للمؤتمر من دراسات في مختلف ميادين الحضارة العربية الاسلامية دون أن تنتظر صدور المجلد او المجلدات التي ستضم وقائع المؤتمر ، رغبة منها في أن يتصل قراؤها بما أبدعه فكر ودأب باحثين عرب ومسلمين وأجانب في هذا الجانب الهام من جوانب تاريخنا . وليس هنا مجال الحديث عن هذا المؤتمر الذي كانت أيامه السبعة سلسلة متلاحقة من جلسات العمل والنقاش الفكري الرفيع الذي اغنى ما قدم من دراسات وبحوث ، ونبه الاذهان الى ما غفلت عنه هذه الدراسات والبحوث أو جانبت فيه الصواب . ولكنا لابد ذاكرين أن الحصيلة كانت هذا التكامل المدهش بين ما قدم مكتوبا وما قيل شفاها وسجلته آلات التسجيل ، والذي ستضمه صفحات المجلد أو المجلدات التي ستصدر قريبا لتحمل للمفكر العربي وسواه من المهتمين صورة صادقة وأمينة عما قيل في قاعات مؤتمر نعتز أنه كان مساهمة متواضعة من قطرنا العربي السوري بمناسبة الاحتفال بمولد القرن الخامس عشر للهجرة .

وسيطول بنا الحديث اذا نحن حاولنا أن نرصد الجديد في كل ما كتب او قيل ، ومن هنا كان قرار مجلتنا بأن تنشر هذه الابحاث تباعا ، معتبرة انه لابد لها في سعيها لتحقيق رسالتها الاصلية في الدعوة الى كتابة تاريخ أمتنا في جميع جوانبه ومجالاته ، من أن تولي الوجه الحضاري الانساني لهذا التاريخ ما يستحق من اهتمام وعناية . ويقودنا هذا الى القول بأن البحوث والدراسات المنشورة في هذا العدد أو التي ستنشر في الاعداد التالية تظل مفتوحة للحوار العلمي الهادف البناء الذي ينشد الحقيقة العلمية في أدق صورها وأوضح معالمها .

ولعل أهم ما يجب أن يذكر في هذا المجال أن المؤتمر بعد ان تدبر امر تاريخنا الحضاري وتدارس ما كتب أو ألف فيه ، وقال القائلون ما أمدتهم به خبرتهم في هذا الموضوع وجدوا أنه لابد لمؤتمر كهذا من أن يخرج بتوصيات حول هذا الموضوع تراعيها الحكومات والمؤسسات التي تعنى بهذا الجانب من جوانب تاريخنا وتراثنا ، فكانت التوصيات التالية :

١ ـ توجيه تحية تقدير وعرفان للسيد الرئيس حافظ الاسد رئيس الجمهورية العربية السورية على الرعاية الكريمة لهذا المؤتمر ودعمه المستمر للعلم والعلماء، وتشجيعه لكل جهد يهدف الى ابراز منجزات الحضارة العربية الاسلامية ودورها الانساني الرائد في ميادين الحضارة الانسانية المختلفة .

٢ ـ حث الباحثين ، ولا سيما العرب والمسلمين منهم ، على ايلاء الجوانب الحضارية في تاريخنا عناية خاصة واعتماد فكرة كتابة هذا التاريخ من منظور الفهم الحضاري للتاريخ وابراز الجانب الانساني من تاريخ العرب واحلال الامة العربية المكانة الحضارية اللائقة بها بين الامم وبما يتناسب مع عطائها الحضاري الثر .

٣ ـ ايلاء مختلف مظاهر الحضارة العربية الاسلامية العناية التي تستحقها ، وابراز اثر كل مظهر من تلك المظاهر في حضارات الامم الاخرى .

٤ ـ دعم المعاهد التي تعنى بدراسة ونشر التراث العربي الاسلامي ، والايصاء بانشاء المزيد منها ، أو اقامة فروع لها في الاقطار العربية والاسلامية ، وتمتين اواصر التعاون والتنسيق في الدراسات والبحوث بينها .

٥ ـ الاستمرار في اقامة الندوات والمؤتمرات الدولية حول الحضارة العربية الاسلامية في مختلف حواضر الوطن العربي والعالم الاسلامي لاغناء الدراسات في الميادين الحضارية بعامة وبعض الميادين المحددة بخاصة .

٦ ـ اقامة ندوة تهدف الى وضع الصيغة الملائمة لكتابة تاريخ الحضارة العربية الاسلامية على اساس موسوعي شامل .

٧ ـ توصية الجامعات العربية والاسلامية تضمين مناهجها الدراسية مادة الحضارة العربية الاسلامية في المرحلة الجامعية الاولى ، وتشجيع الباحثين في مرحلتي الماجستير والدكتوراه لانتقاء موضوعات رسائلهم عن موضوعات هذه الحضارة .

٨ ـ الاطلاع على ما ينشر في العالم اليوم حول الحضارة العربية الاسلامية وتصحيح ما يجانب الموضوعية منه .

٩ ـ وضع أطلس تاريخي لتوزع مظاهر الحضارة العربية الاسلامية في أنحاء العالم وبيان مدى انتشارها .

١٠ ـ انشاء مجلة حولية أو فصلية متخصصة في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية في دمشق أو أحد المراكز العربية الاسلامية التي تحتوي مركزا او معهدا للتراث .

١١ ـ شجب الاعتداءات الاسرائيلية على المقدسات الاسلامية في فلسطين ، وانتهاك حرمة الآثار العربية الاسلامية في الاراضي المحتلة .

١٢ ـ نشر البحوث التي القيت في المؤتمر واصدارها في مجلد خاص بالسرعة الممكنة .

المسجد

وأثره في تطوير التعليم

د . حسين أمين

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب ـ بغداد

قام المسجد ولا يزال وسيبقى أبد الدهر ، عنصرا أساسيا في حياة المسلمين بخاصة والانسانية بعامة ، لما له من الاثار المهمة في توجيه الانسان وتهذيبه واعداده مواطنا صالحا يعمل لخدمة المجتمع بكل صدق وصفاء وبكل اخلاص ووفاء .

وسيبقى المسجد الاسلامي الاشعاع المنير لكل المؤمنين من أجل التحرر والخلاص من مزالق الدنيا وهفوات الزمن ، والركن الاصيل لكل الدراسات الانسانية الصافية ، والمورد العذب لكل الثقافات الاسلامية السامية .

وكما كان المسجد مركزا اساسيا للجهاد من أجل الحق والحرية ومنه انطلق المجاهدون والمؤمنون لنشر الرسالة الاسلامية الخالدة ، فهو المعهد الاول لتعليم المسلمين القراءة والكتابة وتفقيههم بامور دينهم ، ومنه تخرج الرواد الاوائل من الصحابة الكرام ، بناة حضارتنا الزاهرة .

وما من شك ، فان التعليم لازم الدعوة الاسلامية منذ فجر انبثاقها وكانت اولى الايات القرآنية الكريمة التي انزلت على سيدنا محمد (ص) تشير الى العلم وبعض ادواته ، قال تعالى : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم) وتوالت الايات القرآنية الكريمة تنزل على الرسول الكريم وكثير منها تحث المسلمين على طلب العلم وتشجعهم على التعليم،كما كانت تلك الآيات الكريمة ترفع قدر العلم وتعلي شأن العلماء وتمجد العقل والمعرفة وتخفض من الجهل وأهله ، قال تعالى : (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون ، انما يتذكر اولوا الالباب) وقال تعالى : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات) ، واعتبر القرآن الكريم التعليم من مهمات الرسول (ص) قال عز وجل : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم اياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك انت العزيز الحكيم) .

وبديهي فان التعليم من اسس مستلزمات تطور وازدهار المجتمع الانساني ، وهو في أبسط مظاهره ليس سوى تكيف الفرد مع ضرورات الحياة ولوازمها في بيئته ، واذا كان الاسلام هو النظام الموجه للحياة عند المسلمين بكل مظاهره ، فقد كان فهمه ودراسته أمراً لابد منه لافراد الجماعة الاسلامية ، فالتعليم اذن كان من مستلزمات الدعوة الجديدة لتحقيق التربية الصحيحة التي تهدف اليها الدعوة الاسلامية ، ومن الواضح أن الرسول (ص) كان يستهدف بناء أمة جديدة وانشاء حكومة تضاهي الحكومات القائمة في عصره ، فلابدمن وجود طبقة متعلمة متنورة ، تتحمل عبءالدعوة وعندها قوة الحجة والمقدرة على الاقناع بالطرق العلمية ، ويذكر القلقشندي في كتابه صبح الاعشى : أن عدد الكاتبين من بين العرب عند بعث الرسول (ص) لم يكن يزيد على بضعة عشر نفراً ، ولهذا كان من أهداف الرسول (ص) الواضحة ان يعمل على نشر التعليم بين المسلمين وتشجيعهم على ارتياده ، ذلك ان الرسول(ص) ادرك ماللتعليم من أهمية في بعث الامة من جهلها وتخلفها ، لذا صار يعمل جاهداً على نشر التعليم بين المسلمين كما أخذ يحثهم على ارتشاف مناهل العلم والسعي الى اقتباسه وطلبه، لتنفتح الاذهان ويطلع العرب المسلمون على حقائق العلم ودقائقه ، قال عليه الصلاة والسلام (غدوة في طلب العلم احب الى الله من مائة غزوة) وقال (ص) : (افضل الناس المؤمن العالم) وقال (ص) : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) .

وأخذ المسلمون يتسابقون الى طلب العلم ، وطبيعي فان المسجد هو المكان الملائم لاجتماع المسلمين ، وكان مسجد الرسول (ص) أول مكان اتخذ لنشر العلم وتعليم المسلمين اصول الكتابة والقراءة ، روى عن مكحول(١) : قال حدثني عشرة من أصحاب رسول الله (ص) قالوا : كنا ندرس في مسجد قباء اذ خرج علينا رسول الله (ص) فقال : (تعلموا ماشئتم ان تعلموا فليس يأجركم الله حتى تعلموا) .

ومما لاشك فيه ان التوجيه العام للتعليم في مرحلة النبوة ؛ كان يقوم على اساس تعلم القرآن الكريم وحفظ آياته وفهم معانيه ، وهذا سيؤدي الى حقيقة تاريخية عظيمة الاهمية ، جليلة القدر ، تلك هي اعداد طبقة من المسلمين الاولين المتعلمين من حفظة القرآن الكريم ومعانيه السامية ، وتكوين طبقة ذات مكانة سامية في المجتمع الاسلامي ، هي طبقة الحفاظ ، والحافظ يعتبر اسمى درجة من العالم بالحديث او المشتغل باللغة ، وقدمت هذه الطبقة أجل خدمة للدين وانبل عمل للاسلام واصدق وحي للانسانية. وذلك هو تدوينها القرآن الكريم بكل أمانة ونزاهة وحقيقة واخلاص.

وتشير الاخبار التاريخية ، ان الرسول (ص) دخل مدينة يثرب سنة ٦٢٢ م وهو عام الهجرة ، وأول عمل حضاري باشره (ص) بناؤه المسجد الشريف والذي

عرف بالمسجد النبوي وأصبح مكانا للصلاة والعبادة وملتقى الرسول (ص) بالصحابة الكرام (رض) ومقرا للمجاهدين المسلمين ، ومنه ينطلقون الى سوح الجهاد دفاعا عن المباديء الشريفة والذود عن حياض المسلمين ، وفي المسجد صار المسلمون يتلقون مباديء الدعوة ويتفقهون بفقه الاسلام .

فالمسجد اذن ،المعهد الاول لنشر العلم ومكان التعليم في العالم الاسلامي ، واصبحت المساجد في عهد الرسول (ص) والخلفاء الراشدين مراكز تهذيبية وتعليمية كان لها الاثر الكبير في نشر الوعي الديني الصحيح وبث روح المعرفة في نفوس المسلمين .

وقام الصحابة الكرام (رضي الله عنهم) بعد الرسول بتعليم المسلمين وتفقيههم في شؤون الدين ، وكانوا يجيبون على اسئلة السائلين فقد كان عبد الله بن عباس يجلس بفناء الكعبة وقد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن كما أن المسلمين كانوا يقصدونه من أقصى البلاد يسألونه في المشكلات الدينية .

وسار التابعون على نهج الصحابة فكانوا يجلسون في المساجد يعظون الناس ويعلمونهم اصول الدين ومن اشهرهم الامام محمد الباقر والامام جعفر الصادق وكانا يجلسان في المسجد النبوي يشرحان للمسلمين معاني القرآن ويوجهانهم الوجهة الصحيحة ، كذلك ربيعة الرأي (٢) وكان له مجلس في المسجد النبوي وكان يأتيه مالك ابن أنس والحسن البصري وأشراف المدينة للاخذ عنه . وكان لربيعة الرأي هذا حلقة وافرة كما كان للحسن البصري حلقةكبيرة في مسجد البصرة يعظ فـ [illegible]ناس ويذكرهم وكان من أفصح أهل زمانه .

ان تلك الحلقات العلمية في المساجد الاسلامية كانت مدارس خلقت حركة علمية كبيرة عملت على ازدهار الثقافة الدينية وتطوير العقلية الى حالة التفكير المنطقي والبحث في المسائل المطروحة بروح موضوعية ، كما كانت تلك الحلقات فتحا لوضع اسس قويمة لعلم الفقه عند المسلمين .

ولم يبق المسجد مقتصرا على الوعظ والارشاد وتعليم المواضيع الدينية البحتة ، بل اخذت المواضيع العلمية التي تعرف المسلمون عليها نتيجة الفتوحات العظيمة طريقها الى المسجد وصارت تدرس الى جانب العلوم الدينية ، فالاختلاط بين العرب والعناصر التي دخلت الاسلام بعد الفتوح ادى الى ظهور مشاكل كبيرة ، منها ان اللغة العربية السليمة تعرضت للوثة العجمة ، كما ظهر بين العرب من لا يحسن العربية ، وتعرضت عقيدة البعض منهم لشيء من الشك ، وظهرت بعض الافكار

والمباديء تحمل لونا جديدا من التعليل والتسبيب ، فادى ذلك الى ظهور الدراسات اللغوية كالنحو مثلا . وتشير الاخبار التاريخية ان الامام عليا بن ابي طالب (رض) هو واضع علم النحو وان ابا الاسود الدؤلي أخذ العلم من الامام علي (رض) وما من شك أن الامام علي (رض) املى ذلك العلم على ابي الاسود الدؤلي في مسجد الكوفة ايام خلافته في تلك المدينة العربية العريقة .. وكانت مشكلة مرتكب الكبيرة هي السبب المباشر لنشوء فرقة اسلامية فكرية كبيرة هي فرقة المعتزلة وكان ظهورها في مسجد البصرة اثر الجدل الذي حصل بين الشيخ الحسن البصري وبعض من كان ملازما لحلقته امثال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وانصارهما والذين كونوا حلقة جديدة في مسجد البصرة تقول بافكار واراء يعرضها الحسن البصري وانصاره ؛ وهكذا ظهرت حركة المعتزلة وانتشرت آراؤها من مسجد البصرة الذي شهدت رحابه معارك كلامية ومجادلات عنيفة .

كذلك كان الشعراء يتخذون من المسجد مكانا لرواية الشعر ، ويؤيد هذا ماذكره الجاحظ من انه ادرك بالبصرة رواة المسجديين والمربديين ، وعن رواية الشعر تفرعت رواية اللغة وغريبها ، وظهرت طائفة من الباحثين اللغويين عرفت اذ ذاك باصحاب العربية الذين كانوا الرواد الاوائل للدراسات اللغوية ، وكان المسجد مقر العالم الخليل بن احمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٤ هـ والذي يعتبر اول من رسم علم اللغة واول من صنف فيه . ويذكر ابن خلكان ان سبب موته كما قيل انه دخل المسجد فصدمته سارية وكان يقطع بحرا من العروض . والخليل بن احمد هذا هوواضع علم العروض وفن المعاجم في العربية ، وقد عاش معظم حياته في البصرة متزهدا متعففا ومن اشهر تلاميذه سيبويه والذي كان امام البصريين في النحو .

وكان مسجد الكوفة مدرسة رائدة لاقراء القرآن الكريم ، ففي هذا المسجد العتيد كان شيوخ الاقراء يجلسون فيلقنون طلاب العلم القراءات التي رووها باسانيدهم وكان عبد الله بن حبيب بن ربيعة السلمي الضرير مقريء الكوفة اول من جلس لاقراء القرآن الكريم في مسجد الكوفة . وان يفخر مسجد الكوفة بقاريء نال شهرة واسعة وكان ثقة ثبتا ، انما يفخر بان رحابه ضمت احد قراء القرآن الكريم السبعة: حمزة بن حبيب ... عمارة الكوفي ، واليه صارت الامامة في القراءة بعد عاصم والاعمش، وتوفي حمزة سنة ١٥٦هـ .

وكان مسجد الكوفة مركزا كبيرا وخصبا من مراكز الفقه ، ففي هذا المسجد الشريف ظهرت بوادر مباديء الفقه المبنى على التجرد واستنباط مفهومه من الكتاب والسنة ، في هذا المسجد جلس الامام علي بن ابي طالب (رض) يلقن الناس اصول

الدين وفي هذا المسجد جلس عبد الله بن مسعود وعروة بن ابي الجعد وشريح بن الحارث وسعيد ابن جبير ، وامتازت مدرسة الكوفة الفقهية بكثرة علمائها ووفرة آثارهم واثرهم الكبير في ازدهار هذا العلم .

كما ظهرت في مسجد الكوفة مدرسة لتفسير القران الكريم واشتهر من رجالها سعيد بن جبير الذي قتل سنة ٦٤ هـ وكان سعيد بن جبير عالما بالتفسير وذكر ان الحلقة التي تحيط به في مسجد الكوفة كانت من اكبر الحلقات واكثرها طلابا . واستمر مسجد الكوفة في مسيرته التاريخية وهو يحفل بالادباء والعلماء وطلبة العلم ، يقوم بواجبه الثقافي وتشع منه انوار المعرفة في شتى فنونها .

وفي المسجد كان المحدثون يعقدون الحلقات لرواية الحديث ، كما كان القضاة يعقدون جلساتهم في رحابه ، وهكذا اصبح المسجد مكانا للدرس والتدريس فيه يتعلم الناس القراءة والكتابة ، ويحفظون القرآن الكريم ويتفهمون معاني آياته ، ويدرسون اللغة العربية ويسمعون الشعر وروايته . هذا من ناحية التعليم ، اما مايخص التربية، أي تربية الفرد المسلم ، فانها كانت بشكل عام قائمة وخاضعة للتعاليم الاسلامية ومنبثقة من وحي القرآن الكريم وروح السنة الشريفة ، وتستمد اصولها من التقاليد والعادات العربية الاصيلة ، فالتربية اطار قوامها العام ، الخلق الحسن والآداب الحميدة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والشهامة والمروءة والعفو عند المقدرة والتعاون وعمل الخير والكرم والشجاعة وضبط النفس ومساعدة الفقراء والضعفاء، وكان الرسول (ص) وصحابته (رض) القدوة الحسنة للجيل العربي المسلم في صدر التاريخ الاسلامي .

ان المساجد الاسلامية ، مدارس خرّجت الرجال العظماء وانجبت العلماء الافذاذ أجل انها مدارس كنت تعمل بحق من اجل اعداد جيل قوي يتحمل عبء المسؤولية ، جيل يؤمن بالله عز وجل ، وبرسالة الاسلام الخالدة ، مدارس هذبت النفوس وصقلت العقول واحيت الضمائر ، فالنفس الطيبة والعقل المفكر المؤمن والضمير الانساني الحي كانت دعائم حياة المسلم وعلائم الشخصية العربية الاسلامية ، انها مدارس خرجت ابابكر الصديق مثل الصدق والوفاء وعمر بن الخطاب رمز الارادة القوية والعزيمة الثابتة وحمزة بن عبد المطلب نموذج الفداء والتفاني وعليا بن ابي طالب رمز الجهاد الخالد ونموذج العلم الكامل وصفحة الاسلام المشرقة بالحق والعدالة ، وبلال الحبشي ومصعب بن عمير وعماربن ياسر ومعاذ بن جبل وزيد ابن حارثة وطلحة بن عبيد الله وسعد بن ابي وقاص وابا ذر الغفاري وغيرهم كثيرين

رضي الله عنهم اجمعين ، كان لهم اثر كبير في وضع الاسس الرصينة من اجل بناء مجتمعنا الاسلامي المجيد .

واستمرت المساجد الاسلامية في اداء رسالتها التعليمية واخذت تعمل على تخريج عناصر علمية طيبة عملت على توسيع وتطوير العلوم وخدمة الانسانية ، فقد نبغ جعفر الصادق في مسجد المدينة وكان ملازما للعلم والتعليم حتى توفي سنة١٤٨هـ ويعتبر جعفر الصادق من رواد الفقه الاسلامي وعنه اخذ ابو حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة ١٥٠ هـ ومالك ابن انس المتوفى سنة ١٧٩ هـ ، وظهر الشافعي في مسجد الفسطاط كما تعلم احمد بن حنبل في مساجد بغداد ، ومن الجدير بالذكر ان المدارس الفقهية ظهرت وترعرعت في رحاب المساجد الاسلامية .

وفي المساجد الاسلامية تعلم ونبغ الكثير من اللغويين والمفكرين والفقهاءوالمحدثين والمؤرخين ، ومن المساجد التي اشتهرت بحلقاتها العلمية وادت رسالتها التعليمية على أحسن وجه : المسجد النبوي الشريف والحرم المكي ومسجد البصرة ومسجد الكوفة ومسجد الفسطاط ومسجد القيروان والمسجد الاموي بدمشق والمسجد الاقصى ومسجد الزيتونة وجامع المنصور ببغداد وجامع قرطبة وجامع ابن طولون والازهر الشريف بالقاهرة ، ان هذه المساجد وغيرها أدت رسالتها التعليمية والثقافية خير اداء وكانت النواة الاولى في تأسيس المدارس الجامعة في العالم الاسلامي ، ذلك أن المساجد كان يدرس فيها ــ كما قلنا ــ الكثير من العلوم ويفد اليها الطلاب من جميع انحاء العالم الاسلامي ، فالتدريس في مسجد المنصور ببغداد كان امنية كثير من العلماء والفقهاء لاهميته ومكانته في القرن الخامس الهجري ، ذكر الخطيب البغدادي ، : انه لما حج شرب من ماء زمزم وسأل الله أن يحقق له ثلاث حاجات احداها أن يحقق له املاء الحديث بجامع المنصور ببغداد .

وروي ان اعرابيا دخل مسجد البصرة فانتهى الى حلقة يتذاكرون فيها الاشعار والاخبار فجلس وهو يستطيب كلامهم ، ثم اخذوا في العروض وتباحثوا في أوزان الشعر وظن انهم يأتمرون به فخرج مسرعا وهو يقول شعرا :

قد كان اخذهم للشعر يعجبني ... حتى تعاطوا كلام الزنج والروم
لما سمعت كلاما لست افهمه ... كانه زجل الغربان والروم
وليت منفلتا والله يعصمني ... من التفحم في تلك الجراثيم

وروى السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ ان القراءات والطب والميقات بالاضافة

الى دروس التفسير واللغة درست في الجامع الطولوني ، وهذا تطور كبير للدراسات في المسجد ، فتدريس الطب في الجامع الطولوني يعني تقدم الدراسات العلمية وعلى راسها الدراسات الطبية في العصور الاسلامية واهتمام المساجد في تدريسها مما يدل على دور المسجد الاسلامي في تبني العلوم والعمل على ازدهارها والافادة منها ، وهنا لابد من القول أن تدريس الطب في الجامع الازهر او جامعة الازهر لم يكن الاول من نوعه في الاسلام كدراسة منظمة فقد سبق ذلك المدرسة المستنصرية التي انشئت في بغداد سنة ٦٣٠ هـ ويبدو ان هذا العلم ادخل الى الجامع الطولوني ايام السيوطي اي في أواخر القرن التاسع الهجري .

ومن الجدير بالذكر انه كانت تلحق بكل مسجد مكتبة ضخمة تضم عددا كبيرا من الكتب في مختلف العلوم والفنون والتي كانت توقف في العادة على المساجد حتى لاتبددها الايدي .

ان حركة التعليم تطورت في المساجد تطورا ملحوظا منذ أن شيد أول مسجد في عصر الرسول (ص) حتى القرن الرابع الهجري ، فقد كان التعليم قاصرا على تعلم القرآن وحفظه ، وتطور الى دراسة العلوم اللغوية ثم الى دراسة الحديث وروايته ، وبعد ذلك اخذ الفقه واصوله طريقهما الى المسجد ، ثم بدات المجادلات الكلامية تأخذ مكانها في رحاب المساجد ، وقد نشأ منها علم الكلام والفرق الاسلامية كالمعتزلة والاشاعرة وغيرهما من الفرق الكلامية ، وفي القرن الثاني والثالث الهجريين نضجت حركة تدوين العلوم الشرعية وحركة تدوين العلوم اللسانية ، وصار المتعلم لاغنى له عن درس التفسير والقراءات والحديث والفقه والكلام والنحو واللغة والبيان والادب ، وبرزت في هذين القرنين حركةالترجمة ونقل علوم القدامى وتراثهم من فلسفة وهندسة وطب وكيمياء ، وهذا يؤدي بنا الى حقيقة حضارية واضحة ، ذلك أن طلب العلم في أول الامر كان يتناول العلوم الدينية واللغوية ، ثم تناول بعد ذلك غيرهما من العلوم الدخيلة ،لهذا كانت الثقافة الاسلامية مزيجا من علوم العرب المسلمين ومن علوم الاقدمين ، وقد لعبت المساجد الاسلامية دورا مهما وبارزا في الحركة العلمية التي سادت القرنين الثاني والثالث الهجريين وكانت طليعة البعث الثقافي وقاعدة التعليم بوجه عام قبل ظهور حركة المدارس في العالم الاسلامي .

والمساجد الاسلامية التي أدت رسالتها التعليمية بنجاح وازدهار ، كانت خير أمكنة انتشرت منها بحوث وتآليف العلماء والفقهاء والادباء ، ومعظم المصادر العربية

والاسلامية المخطوطة والمطبوعة كان المسجد مكان كتابتها ونشرها . فالقرآن الكريم كتاب الله العزيز ، كان الرسول (ص) يملي بكل ما يوحى اليه على اصحابه الطيبين في مسجده الشريف ، وصار الناس يستنسخون القرآن الكريم عندما انتشرت نسخ منه في المساجد الاسلامية .

وفي مسجد المدينة صنف مالك بن انس كتابه (الموطأ) وفي مسجد الفسطاط الف الشافعي كتابه (الام) ، وفي مسجد البصرة كتب الخليل بن احمد الفراهيدي كتبه المعروفة ومن اشهرها كتاب (العين)،وفي المسجد الاقصى بدأ الغزالي في تصنيف كتابه المشهور (احياء علوم الدين) واتمه في جامع دمشق ، وكتب التاريخ والتراجم تزخر باخبار العلماء والفقهاء والادباء الذين اتخذوا من المساجد الاسلامية امكنة ملائمة فيها يتزودون بالعلوم والمعارف ، وفيها يقيمون ويعيشون ، وفيها يدرسون ويتدارسون ويؤلفون ويصنفون ويخلدون آثارهم العامية والادبية .

وفي أواخر القرن الرابع الهجري بدأت المدارس الاسلامية في الظهور وبخاصة في منطقة نيسابور، ثم انتشرت المدارس في العراق وسورية ومصر وسائر بلاد الاسلام.

ومن الجدير بالذكر ان قيام المدرسة في الاسلام بشكلها المنظم كان أول ذلك في العراق عند تأسيس المدرسة النظامية في بغداد سنة ٤٥٩ هـ والتي يسميها المؤرخون بأم المدارس والتي تعتبر من اشهر المدارس الاسلامية والتي قام بتاسيسها وانشائها الوزير السلجوقي نظام الملك والذي كان قد أمر بانشاء عدد من المدارس تحمل اسم النظامية في بغدادوالموصل والبصرة وهراة ونيسابور وغيرها من الامصار الاسلامية . ولعل من أشهر من درس في هذه المدرسة ، اعني المدرسة النظامية ببغداد ، الشيخ ابو اسحق الشيرازي والامام الغزالي .

وبعد انشاء المدرسة النظامية بدأت الحركة المدرسية في الاسلام واخذ الخلفاء والامراء الموسرون يتسابقون في انشاء المدارس ، ولعل من اشهر تلك المدارس واكثرها تنظيما وروعة المدرسة المستنصرية ببغداد والتي اسسها الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة ٦٣٠ هـ والتي تعتبر من أبرز الاثار العباسية في بغداد واصدق نموذج لتراثنا العربي الاسلامي .

وعلى الرغم من انتشار المدارس الاسلامية بشكل واسع وتطورها السريع ، فقد ظل المسجد الاسلامي قاعدة مهمة للتربية والتعليم ، وصار هو الذي يمد المدارس الاسلامية بطلبة العلم ، كما صار يتجاوب مع مايجد من علوم واداب تتفق وروح الدين الاسلامي . فالمسجد النبوي الشريف والحرم المكي والازهر الشريف

والنجف الاشرف والزيتونة في تونس والقرويين بفاس والقدس الشريف، معاهد اسلامية كانت وستبقى باذن الله تمثل الوجه الناصع لمثالية الاسلام وتعبر بحق عن اهدافه العلمية ، وتقدم للعالم وبسخاء نتاج الفكر العربي والاسلامي قبسا من الروح والعقيدة والايمان .

---*---

(١) مكحول ـ هو مكحول بن أبي مسلم شهراب بن شاذل ابو عبد الله ، الهذلي بالولاء فقيه الشام في عصره ، من حفاظ الحديث النبوي الشريف .

(٢) ربيعة الراي ـ فقيه ومن الحفاظ وكان صاحب الفتوى في المدينة توفي سنة ١٣٦ هـ .

أثــر صقليــة

في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى الأوربيين

د . محمد كامل عيّاد

مجمع اللغة العربية ـ دمشق

يختلف المؤرخون الاوروبيون في نظرتهم الى الحضارة العربيــة ـ الاسلامية وتقدير قيمتها ، وحاول بعضهم الحط من شأنها وانكار كل أصالة لها ، فزعم باحث مشهور مثل ـ رينان ـ ان الفلسفة العربية ليست سوى فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية ، في حين أن علماء آخرين يؤكدون مقدرة العرب المسلمين على اقتباس وتمثل ما يحتاجون اليه من عناصر غريبة ثم ابداع آثار جديدة منهــا . وهم ينوهون بما أضافه العرب المسلمون من اختراعات واكتشافات الى علوم القدماء وفنونهم ، كما يلحون على ابراز الصفات الذاتية والملامح الخاصة بالحضارة العربية ـ الاسلامية حتى أصبح من السهل جدا تمييز الآثار العربية ـ الاسلامية من غيرها في كل انحاء العالم .

على أن هؤلاء المؤرخين والعلماء الذين تتباين آراؤهم حول مكانة الحضــارة العربية ـ الاسلامية يجمعون من جهة اخرى على الاعتراف بتأثيرها في نشأة الحضارة الاوروبية الحديثة . فليس بينهم من ينكر ان الاوروبيين الذين عاشوا حقبة طويلة من الزمن في حالة مزرية من التأخر والجهل والهمجية بالقرون الوسطى لم يستيقظوا وينهضوا ويسيروا في طريق التطور والتقدم الا بعد ان اصطدموا واحتكوا بالعرب المسلمين واقتبسوا عنهم مظاهر الحضارة ونقلوا عنهم تراث القدماء وأخذوا عنهم كثيرا مما توصلوا اليه من منجزات في مختلف العلوم والفنون .

* * *

حدث الاصطدام والاحتكاك والالتقاء بين العالم العربي ـ الاسلامي والعالــم الاوروبي على ثلاثة محاور :

---

* اعـد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريـخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦ ـ ٢٢ جمادي الآخرة ١٤٠١هـ / ٢٠ ـ ٢٦ نيسان ١٩٨١م.

١ ـ في الاندلس ، حيث استمرت الحروب منذ فتحها في القرن الثامن الميلادي حتى خروج المسلمين منها في القرن الخامس عشر ، سواء في بعض مقاطعات اسبانيا أو في جنوبي فرنسا وتخلل ذلك فترات سلام واختلاط وتمازج بين السكان فازدهرت الحضارة الاسلامية بالاندلس وتأسست الجامعات العربية واخذ كثير من الاوروبيين يحجون الى طليطلة للدراسة وترجمة الكتب العربية .

٢ ـ في صقلية التي فتحها المسلمون في القرن التاسع الميلادي والتي سادت فيها اللغة العربية والحضارة الاسلامية عدة قرون .

٣ ـ في البلاد المقدسة خلال الحروب الصليبية منذ أواخر القرن الحادي عشر اذ احتل الغزاة الصليبيون أجزاء من فلسطين وسورية وعاشوا مع سكان البلاد ، على الرغم من استمرار القتال والتعصب والكراهية ، في فترات من الهدنة فعقدوا المعاهدات وتبادلوا الاسرى والبضائع التجارية واقتبسوا الكثير من مظاهر الحضارة.

* * *

ان البحث هنا سيقتصر على (صقلية) والدور الهام الذي قامت به في نقل الحضارة العربية ـ الاسلامية الى الأوروبيين .

تقع جزيرة صقلية في وسط البحر المتوسط بين الحوض الشرقي منه والحوض الغربي . وبسبب هذا الموقع المركزي كانت على اتصال بالشرق والغرب وبالشمال والجنوب وتعرضت الى تأثيرات مختلفة . وقد استقر فيها بالتناوب : القرطاجيون واليونان ثم الرومان والبيزنطيون والعرب والنورمان الذين ظلت اثارهم العمرانية وروائعهم الفنية قائمة فيها جنبا الى جنب . وبسبب موقعها الممتاز أيضا كانت هدفا لمطامع الدول المجاورة : فاحتدم التنافس والنزاع عليها بين القرطاجيين واليونانيين منذ القرن الثامن حتى الخامس قبل الميلاد ثم بين قرطاجة وروما في القرن الثالث قبل الميلاد . وبعد انهيار الامبراطورية الرومانية حاول اللومبارديون الاستيلاء عليها ولكنها ظلت تحت حكم البيزنطيين الى ان فتحها العرب في القرن التاسع الميلادي . ويذكر المؤرخون انها قد تعرضت الى غارات العرب المسلمين وغزواتهم مرات عديدة منذ انتصارهم على الاسطول البيزنطي في معركة (ذات الصواري) سنة ٣٤ هجرية / ٦٥٥ ميلادية ، فغزاها عبد الله بن قيس سنة (٤٦) في زمن معاوية بن أبي سفيان واصاب فيها غنائم ثمينة ، ثم تكررت الغزوات . الا ان المسلمين لم يخططوا جديا لفتحها الا بعد قيام دولة الاغالبة في القيروان سنة ١٨٥ هجرية / ٨٠١ م . وكان

للاغالبة أسطول قوي جعلهم يطمحون الى السيطرة على البحر الابيض المتوسط سيطرة تامة فاحتلوا جزيرة (كورسيكا) في سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م . وجزيرة (ساردينيا) في سنة ١٩٤هـ / ٨١٠م . ثم جزيرة (كريت) سنة ٢٠٨هـ \ ٨٢٣م، وبعد مدة جزيرة (مالطة) في سنة ٢٥٥هـ \ ٨٦٩م .

اما (صقلية) فقد سنحت الفرصة للاستيلاء عليها سنة ٢١٢هـ \ ٨٢٧م اذ يروي المؤرخون ان أحد الثوار الصقليين ضد الحكم البيزنطي جاء من مدينة (سرقسة) يطلب النجدة من (زيادة الله بن الاغلب) في القيروان الذي انتهز هذه المناسبة فأرسل اسطولا يحمل (٧٠٠) فارس وعشرة آلاف مقاتل تحت قيادة القاضي والوزير (أسد بن الفرات) الذي كان يبلغ السبعين من العمر . وقد مات (ابن الفرات) وكثير من جنوده بالطاعون وتوقف الفتح فترة . ولكن بعد وصول نجدة من الاندلس واخرى من القيروان استطاع المسلمون الاستيلاء على مدينة (بلرم) سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م . ، واتخذوها مركزا لادارة الجزيرة وقاعدة لمتابعة فتح سائر المدن .. ولم يكن من السهل التغلب على المدن الحصينة مثل (سينا) و (سرقة) و (طبرمين) و (جرجنت) و (قصريانه) التي استغرق فتحها أكثر من خمسين سنة .

* * *

دام الحكم العربي ـ الاسلامي في (صقلية) مدة قرنين ونصف القرن . وكانت السلطة في أيدي ولاة يرسلهم أمراء بني الاغلب من القيروان . وبعد قيام الخلافة الفاطمية في افريقية كان الولاة يرسلون من (المهدية) أولا ، ثم من مصر بعد انتقال العاصمة اليها .

وقد كثرت الثورات والاختلافات بين العناصر والطوائف العديدة فاضطربت العلاقات بين عاصمة الدولة وبين الجزيرة وأخذ الولاة يميلون الى الانفصال حتى جاء(الحسن بن علي بن الحسين الكلبي)الذي عينه الخليفة الفاطمي المنصور واليا على (صقلية) سنة ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م . ، فاستطاع أن يؤسس فيها أمارة شبه مستقلة تعاقب في الحكم عليها أولاده وأحفاده مدة خمسين عاما . وكان هؤلاء الامراء الكلبيون يعيشون في قصور فخمة ويجمعون في بلاطهم الشعراء والعلماء فازدهرت العاصمة (بلرم) بالاخص في عهد (أبي الفتوح يوسف بن عبد الله الكلبي) ٣٧٩ ـ ٣٨٩ هـ / ٩٨٩ ـ ٩٩٨ م .

اننا عندما نطالع تاريخ (صقلية) لدى المؤرخين العرب مثل (ابن الاثير)

[illegible] أمثال «ابن خلدون» و «النويري» لا نجد ذكرا الا للفتن والثورات والحروب الدامية والمتواصلة . ولابد أن نتعجب كما تعجب المؤرخ الانكليزي (سكوت) في كتابه (تاريخ الامبراطورية العربية في أوروبا) ونتساءل معه : « كيف تمكن المسلمون في صقلية . مع كل ذلك . من أن يضربوا بسهم في تطور الحضارة وان يتقدموا في الحياة العمرانية ـ المدنية ، وأن يعملوا في الزراعة أو الصناعة وان يشاركوا في العلوم والفنـون ؟

وفي الواقع لم تكن الحرب كل شيء في حياة (صقلية) . بل كان هناك وراء الاحداث التي يرويها أولئك المؤرخون مسرح آخر ترتسم فيه معالم واضحة للمسجد والمدرسة والسوق والبيت والمزرعة والمصنع . فاذا رجعنا الى الرحالة (ابن حوقل) الذي زار (صقلية) حوالي سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م ، في عهد الكلبيين . نراه يقول انه وجد في مدينة (بلرم) وحدها (٢٠٠) مسجد و(٣٠٠) معلم مدرسة، ولاحظ أن هؤلاء المعلمين يلاقون من السكان كل احترام وتقدير . ثم أضاف قائلا : « ذلك على الرغم مما اشتهر به معلمو الصبيان . من غفلة وخفة ونقصان عقل . »

لقد كانت (صقلية) العربية ـ الاسلامية تزخر بآثار العمران وكان فيها آلاف الشعراء وكثير من العلماء والاطباء الكبار الذين ذاع صيتهم في الاندلس أيضا . كذلك كانت هناك جامعة في (بلرم) .. على أن حضارة (صقلية) العربية ـ الاسلامية لم تبرز معالمها ويتجلى مستواها الرفيع الا بعد استيلاء (النورمان) على الجزيرة ..

* * *

ان المقاتلين (النورمان) الذين اجتاحوا (صقلية) في سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م بقيادة الامير (روجر بن تانكرد) ، وظلوا يحاربون مدة ٣٠ عاما قبل أن يتمكنوا من اخضاع الجزيرة لسيطرتهم ، قد خربوا كثيرا من المدن والحصون والقصور وعملوا على محو الآثار الاسلامية .

ولكن سرعان ما أضطر هؤلاء الغزاة الهمج الى الاستعانة بالعرب المسلمين في حكم الجزيرة . فقد حافظ الامير (روجر الاول) على نظام الادارة والدواوين القائمة وأبقى الموظفين المسلمين ، حتى الكبار منهم . في مناصبهم . كذلك اختـار اكثر جنوده من المسلمين واتبع أساليب التدريب السائدة من قبل . وعلى الرغم من أنه لم يكن مثقفا فقد أحاط نفسه بجمع من العلماء والمنجمين والاطباء العرب المسلمين . وأصبح بلاطه في (بلرم) لا يختلف عن أمثاله في الشرق .

ويتجلى لنا المظهر العربي ـ الإسلامي بصورة أقوى في بلاط ابنه وخلفه الملك (روجر الثاني) (١١٠١ ـ ١١٥٤) الذي امتاز بالشجاعة الطموح والدهاء والاندفاع الى العمل . وقد تغلب على خصومه والمتربصين به واستطاع ان يوسع بلاده ويرغم البابا على تتويجه ملكا على (الصقليتين) (أي جنوبي ايطاليا وجزيرة صقلية) ويلقبه الادريسي بالملك المعظم المعتز بالله ، المقتدر بقدرته . .

استخدم (روجر الثاني) أكبر عدد ممكن من العرب المسلمين في تنظيم الجيش وادارة الدواوين ، في حين استعان باليونانيين في تجهيز الاسطول والعناية به ، واقتبس الاصطلاحات العربية فكان هناك على رأس الاسطول والجيش (أمير الامراء) وكان هناك القاضي والقائد ، وكانت هناك مختلف الدواوين مثل ديوان المظالم وديوان الطراز وديوان التحقق المعمور . وكانت تستخدم في السجلات وفي المراسيم والاوامر الملكية اللغات الثلاث:العربية واليونانية واللاتينية.ان أقدم وثيقة على الورق موجودة في اوروبا هي أمر صادر عن والدة (روجر الثانى) الوصية عليه في سنة ١١٠٩ وقد كتبت باللغتين العربية واليونانية .

كان (روجر الثاني) نفسه يرتدي الثياب العربية ويجاهر بحبه للاخلاق الاسلامية وقد حشد في بلاطه عددا كبيرا من العلماء والمستشارين العرب المسلمين وفي مقدمتهم العلامة (الشريف الادريسي) الذي عهد اليه الملك بتأليف في الجغرافيا وجمع حوله مساعدين قاموا بتحديد مواقع المدن في صقلية وقياس المسافات بينها . وقد رسم الادريسي خارطة شاملة للعالم المعمور الذي قسمه الى سبعة اقاليم وجعل لكل اقليم عشر خرائط . ومجموعة الخرائط السبعين كان نشرها الباحث الالماني (كونراد ميللر) في شتوتغاردت سنة ١٩٢٦ ـ ١٩٣١ ، ثم اعيد نشرها منقحة من قبل المجمع العلمي العراقي في بغداد سنة ١٩٥١ .

ومع الخارطة قدم (الادريسي) الى (روجر الثاني) كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الافاق) المشهور أيضا باسم (كتاب روجر) . وقد نشر مختصر للكتاب مع ترجمة لاتينية في روما سنة ١٥١٢ ، فظل الاوروبيون يستقون منه معلوماتهم الجغرافية مدة طويلة ثم ظهرت ترجمة كاملة بالفرنسية (سنة ١٨٣٦ ـ ١٨٤٠) . ومنذ سنة ١٩٧٠ بدات لجنة من علماء ايطاليا مع خبراء عالميين باصدار طبعة منقحة ، اقتصادية للكتاب . ولا عجب من هذا الاهتمام فان كتاب (الادريسي) يعد فتحا عظيما في تطور العلوم وفي الربط بين الجغرافيا الوصفية والجغرافيا الفلكية وكان له تأثير بالغ في تقدم المعرفة الجغرافية على الرغم مما يلاحظ عليه من نقص في النواحي الفيزيائية والرياضية بسبب عدم استفادته من بحوث (البيروني) في هذا المجال . .

وقد أفاض (الادريسي) بمقدمة كتابه في مدح (روجر الثاني) ووصف مزاياه والاشادة بكرم اخلاقه وبيان رجاحة عقله وسداد رأيه وبقدرته على تصريف الامور ومعرفته بالعلوم .. يقول العلامة (سارتن) ان (روجر الثاني) كان أكثر حكام عصره تنورا وقد استطاع ان يجعل من (صقلية) في مدة قصيرة ارقى واغنى دولة في اوروبا ، تمتاز بحضارتها وحسن نظامها على جميع البلاد الاوروبية في ذلك العصر . والى (روجر الثاني) يعود الفضل في العناية بالزراعة والصناعة والتجارة التي كانت تقدمت في عهد العرب المسلمين فاقتبس اساليبهم واعتنى خاصة بالمزروعات التي ادخلها العرب الى الجزيرة مثل قصب السكر والكتان والزيتون وشجع تربية دود القز وصناعة الحرير ، كما ارغم الامراء الاقطاعيين على الاقامة في بلاطه لتسهيل مراقبتهم ومنع تعدياتهم على الفلاحين ..

ان (روجر الثاني) الذي عاش في بيئة تسودها الحضارة العربية الاسلامية كان متسامحا في الامور الدينية والثقافية ويطلق الحرية لمختلف الاجناس والطوائف في مملكته . ولا بد هنا من الاشارة الى أن (روجر الثاني) الذي ارسل اسطوله لقصف القسطنطينية لم يشترك في الحرب الصليبية الثانية سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٧ م . وكيف كان يمكنه الاقدام على ذلك واكثرية رعاياه وجنوده من المسلمين ؟ وعدا ذلك فقد كان مخاصما لامراء الفرنج في مملكة القدس اللاتينية وكان يرفض تموين الصليبيين في البلاد المقدسة منذ الفضيحة التي نجمت عن زواج والدته ثم طلاقها من ملك القدس بغدوين الاول .

ظل الطابع العربي ــ الاسلامي سائدا في (صقلية) بعد عهد (روجر الثاني) ايضا . فكان ابنه (ويليام الاول) (يرد أسمه في الكتب العربية غليالم) ، الذي خلفه من سنة ١١٥٤ ــ ١١٦٦ يتكلم العربية ، وقد ألف له العلامة (الادريسي) ، الذي بقي مستشارا في البلاط ، عدة مصنفات جغرافية وكتابا في (الادوية المفردة) يسرد فيه اسماء الادوية باثنتي عشرة لغة . وكان (ويليام) الاول يشجع الترجمة الى اللاتينية سواء من اللغة العربية أو الاصول اليونانية . وفي عهده (أي في سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) تم نقل كتاب (المجسطي) الى اللاتينية من اللغة اليونانية مباشرة، واشترك في الترجمة عالم صقلي اسمه (اوجين البلرمي) المشهور باسم (الامير) الذي كان يتكلم اليونانية ويعرف العربية واللاتينية . وقد ترجم الى اللاتينية عن العربية كتاب (البصريات ــ اوبتيكا) المنسوب الى بطليموس والذي ضاع اصله اليوناني ، كما انه ساعد في ترجمة كتاب (كليلة ودمنة) من العربية الى اليونانية .

أما خلفه (ويليام) الثاني (١١٦٦ ــ ١١٨٩) م فيذكر عنه الرحالة (ابن جبير) ،

الذي زار صقلية في عهده (سنة ١١٨٤) . انه يقرأ ويكتب بالعربية ويحيط نفسه بحرس من المسلمين ثم يضيف قائلا : « شان ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان . وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم في احواله وفي المهم من اشغاله حتى أن الناظر في مطبخه رجل من المسلمين » . كذلك هو « كثير الاعتناء بالاطباء والمنجمين . شديد الحرص عليهم حتى انه متى ذكر له أن طبيبا أو منجما اجتاز ببلده أمر بامساكه وأدر له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه » . ويروي (ابن جبير) انه شاهد في (بلرم) النساء المسيحيات يرتدين ثياب المسلمات . مما يدل على رسوخ التقاليد والعادات الاسلامية في الجزيرة . كذلك يتحدث (ابن جبير) عن استقلال المسلمين في ادارة شؤونهم وعن وجود موظفين مختصين بأحوالهم من مشايخ وحكام وقضاة وعمال وقادة ..

مات (وليام) الثاني دون ذرية فانتخب الامراء احد أحفاد (روجر الثاني) غير الشرعيين ، اسمه (تانكرد) ملكا في سنة ١١٨٩ . ولم يستطع التغلب على الفوضى التي سادت البلاد ومهدت السبيل لاستيلاء الامبراطور الالماني (هنري السادس) على صقلية في سنة ١١٩٤ .

* * *

بذلك انتهى حكم (النورمان) في صقيلة . ولكن التراث العربي ـ الاسلامي ، الذي ظل حيا ومؤثرا في حياة السكان طول عهدهم مدة مائة وثلاث سنوات ، لم يتوقف عن الاشعاع والتفاعل بعد انتقال السيطرة الى أسرة (هوهنشتاوفن) الجرمانية . واذا كان الغزو الالماني قد أحدث كثيرا من الخراب واذا كان الحكم الاقطاعي الذي فرضه هؤلاء الالمان وسياسة الاضطهاد والاستعباد التي اتبعوها مما اضطر العرب المسلمين الى الهجرة خارج صقلية او الى الالتجاء في الجبال الوعرة ، فانه على الرغم من كل ذلك بقيت اثار الحضارة العربية ـ الاسلامية ظاهرة في الجزيرة وظل المسلمون يؤلفون جزءا كبيرا من سكانها الذين استمر معظمهم يتكلم بالعربية الى جانب اليونانية واللاتينية .

من هذه البيئة . التي كانت تلتقي فيها وتختلط مختلف الحضارات واللغات والاجناس والطوائف ، برز الامبراطور (فريدريك الثاني) الذي تأثر الى ابعد حد بالحضارة العربية ـ الاسلامية والذي كان له أعظم الاثر في نقل الفلسفة والعلوم العربية ـ الاسلامية الى الاوروبيين .

ان (فريدريك الثاني) ابن الامبراطور (هنري السادس) من زوجته الاميرة (كونستانسا) بنت (روجر الثاني) ملك صقلية النورماني ووريثة عرشه الشرعية ولد في سنة ١١٩٤ م . وقدمات والده وهو في الثالثة من العمر ثم ماتت والدته سنة ١١٩٨ وهو في الرابعة من عمره فورث عنها عرش (صقلية) ونشأ يتيما تحت وصاية البابا (اينوسنت الثالث) الذي أهمل تربيته وتعليمه وحاول أن يحول دون وصوله الى عرش ابيه في الامبراطورية . ولكن الحظ ساعده فانتخب امبراطورا وتم تتويجه سنة ١٢١٥ بعد ان اقسم للبابا بأن يقود حملة صليبية لاستعادة القدس . الا انه اخذ يماطل ويؤجل موعد الحملة من سنة الى اخرى بأعذار صحيحة أحيانا وكاذبة في الغالب ، واستمر على ذلك في عهد البابا (اينوسنت الثالث) كله ثم في عهد خلفه (هونوريوس الثالث) الذي مات سنة ١٢٢٧ ، فتولى مكانه البابا (غريغوريوس التاسع) المعروف بصرامته والذي نفذ صبره فأعلن حرمان (فريدريك الثاني) من الغفران .

على الرغم من هذا الحرمان ومن مقاطعة رجال الدين ، سافر (فريدريك الثاني) الى فلسطين في خريف سنة ١٢٢٨ وتوج نفسه في كنيسة القيامة ملكا على القدس بعد ان دخلها سلما بالاتفاق مع الملك الكامل الايوبي . وقد تبين من مجرى الحوادث ان (فريدريك الثاني) كان على اتصال مع الملك الكامل منذ مدة سواء بالمراسلات او بتبادل الوفود والهدايا . وكان يقوم بالمفاوضات وزير الملك الامير (فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ) . ويبدو ان الملك الكامل خاف من انتماء أخيه الملك المعظم الى السلطان جلال الدين خوارزمشاه فاراد ان يستعين بالامبراطور فاستدعاه الى عكا ثم رضي بان يسلمه القدس وبيت لحم والناصرة على شرط ان تبقى اسوار القدس خرابا وان لايتعرض الفرنج الى قبة الصخرة ولا الى المسجد الاقصى وان يكون الحكم في الرساتيق لوالي المسلمين .

كانت النقمة شديدة وعامة في البلاد الاسلامية على الملك الكامل لتساهله تجاه الصليبيين . الا ان معاهدة الصلح بين الطرفين ، التي تعتبر انجازا تاريخيا عظيما ومفخرة للامبراطور وشاهدا على مهارته السياسية قد اثارت من جهة اخرى استياء العالم المسيحي وسخط البابا الذي كان يريد محاربة المسلمين لا مفاوضتهم .

لم يبق الامبراطور سوى ثلاثة أيام في القدس . ثم أسرع الى عكا للابحار منها الى ايطاليا مودعا بشتائم الصليبيين الذين قذفوه بالأوساخ وهو في الطريق الى الميناء .

* * *

ان وصول الامبراطور (فريدريك الثاني) الى فلسطين ودخوله القدس سلما وزيارته لقبة الصخرة والمسجد الاقصى ، كل ذلك قد اثار اهتماما كبيرا لدى المؤرخين المسلمين المعاصرين . فقد شاع عن (فريدريك الثاني) انه كان مصافيا للمسلمين وخصما للبابا ، فكان طبيعيا ان يسرع المؤرخون البحاثة الى استقصاء اخباره وجمع اكثر ما يمكن من المعلومات عنه . وهكذا اخذ بعضهم يسأل القوام على ابواب الصخرة عن هيئته ومظهره ، واتصل اخرون بالقاضي شمس الدين عبد الكريم ، قاضي نابلس الذي نزل الامبراطور في داره والذي عهد اليه بمرافقته مدة اقامته في القدس ، للاستفسار منه عن حركاته واقواله . ومن طريف ما نقله (سبط بن الجوزي) في كتابه (مرآة الزمان) عن احد القوام وصفه له بقوله : « كان الامبراطور اشقر ، امعط ، في عينيه ضعف ، لو كان عبدا ما يساوي مائتي درهم » . ثم روى (ابن الجوزي) ان الامبراطور سأل القوام : « هذه الشباك التي على ابواب الصخرة من اجل ايش ؟ » قالوا : « لئلا يدخل العصافير . » فقال : « قد اتى الله اليكم بالخنازير » .

وذكروا انه لما دخل وقت الظهر واذن المؤذنون قام جميع من كان مع الامبراطور من الفراشين والغلمان ومعلمه (وهو من صقلية كان قرأ عليه المنطق) فصلوا ، اذ كانوا من المسلمين .

وقال بعض الذين اتصلوا بالامبراطور : « الظاهر من كلامه انه كان دهريا وانما يتلاعب بالنصرانية » .

ويشير المؤرخون العرب الى ان (فريدريك الثاني) كان عالما متبحرا في الهندسة والحساب والحكمة .

وفي الحقيقة قضى (فريدريك الثاني) طفولته في (بلرم) دون ان يتلقى تعليما منتظما ، انما كان مسموحا له بالتجوال في شوارع العاصمة واسواقها وبان ينتقي رفاقه كما يشاء وان يختلط بالناس ويعاشر من يروق له . وقد ساعده فكره الجوال المتعطش الى المعرفة ومواهبه الفطرية على ان يستفيد من كل ما شاهد او سمع وان يكتسب خبرة شخصية واسعة وان يتعرف الى مختلف الشعوب والطوائف ويطلع على عقائدها وتقاليدها وعاداتها وان يتعود على التسامح كما تعلم عدة لغات كانت منتشرة في صقلية مثل اللغة العربية واليونانية واللاتينيه والعبرية . فكان يكاتب صهره امبراطور بيزانس باليونانية وينشيء رسائله الى البابا او ملوك اوروبا باللاتينية، وينظم قصائده بالطليانية ويراسل الملك الكامل وحاشيته بالعربية ، وقد نقل (التاريخ

المنصوري) نص رسالتين بلغة عربية مزخرفة بعث بها بعد عودته من القدس الى الوزير ابن شيخ الشيوخ يتحدث فيهما عن حربه ضد البابا (غريغوريوس التاسع) .

يبدو أن (فريدرك الثاني) قد قرأ كثيرا من الكتب ، وبالاخص كتب التاريخ : وكان يطالع بعض الكتب العربية في مختلف العلوم والفلسفة وكان مغرما بالرياضيات والطبيعيات والميكانيك ويهتم بالتنجيم والسحر ويؤمن ببعض الخرافات الشائعة في زمانه. وبسبب غزارة معلوماته وتنوع مهاراته أطلق عليه معاصروه لقب (اعجوبة العالم وصانع المعجزات) . وليس ادل على مدى معرفته بالعلوم الاسلامية والفلسفية من المسائل المشكلة التي ارسلها الى الملك الكامل فعرضت على الشيخ علم الدين قيصر الحنفي (المعروف بتعاسيف) للاجابة عليها .

ولعل هذه الاسئلة لاتختلف عن تلك التي ارسلها أيضا الى ملك الموحدين (عبد الواحد الرشيد) فعرضها هذا على الفيلسوف الاندلسي المتصوف (ابن السبعين) الذي كتب رسالته المعروفة باسم (الاجوبة عن الاسئلة الصقلية) . ويظهر من كلام (ابن سبعين) ان أسئلة الامبراطور كانت تدور حول تعاليم (ارسطو) و (ابن رشد) في أزلية المادة وطبيعة النفس وخلود الروح وما شابه ذلك من قضايا فلسفية ودينية بالاضافة الى مسائل علمية مثل تصنيف النباتات وكيفية نمو اجناسها المختلفةوطرائق تلقيحها وتربيتها . .

* * *

كان الامبراطور مولعا بالصيد . ولذلك اعتنى بتدريب الصقور ثم اندفع الى دراسة طبائع هذه الطيور وغيرها من الحيوانات التي حشد أنواعا كثيرة منها في حدائق بلاطه . وقد جمع كثيرا من المؤلفات العلمية عن الحيوانات واضاف اليها كتابا من صناعته انتقل الينا وحده بين آثاره ، اعتمد في كتابته على كتاب في (البيزرة) باللغة العربية قام بترجمته الى اللاتينية (المعلم تئودور الانطاكي) وعني الامبراطور نفسه بمراجعته وتصحيح بعض اجزائه . وكان الملك الكامل قد أرسل الى الامبراطور، بطلب منه ، هذا العالم المنجم الذي لخص أيضا كتابا في (حفظ الصحة) ينسب الى (ارسطو) ،كماكان يقوم بتقطير الادوية والاشربة ويتولى المراسلات والبعثات الى الشرق .

وقبل ذلك كان (فريدريك الثاني) قد استدعى الى بلاطه عددا كبيرا من العلماء والمترجمين الذين يقومون بالبحوث والتجارب وفي مقدمتهم (ميخائيل سكوت)

الذي كان نقل الى اللاتينية كتاب الفلك للبطروجي وعهد اليه الامبراطور بترجمة شروح ابن رشد على مؤلفات ارسطو كلها . ويمكن القول ان (فريدريك الثاني) كان له فضل كبير في نشر فلسفة (ابن رشد) في البلاد الاوروبية لانه اعجب بنزعتها العقلانية ولانه كان في حاجة الى البراهين المنطقية والادلة العلمية في سبيل مكافحة تعاليم الكنيسة والرد عليها .

ولهذه الغاية ايضا انشأ في سنة ١٢٢٤ جامعة (نابولي) التي تعد من أهم مآثره اذ انها أسست بمرسوم امبراطوري دون ان تخضع للسلطة الكنائسية . كذلك قام الامبراطور بتوسيع مدرستي الطب في (سالرنو) و (بادوا) وجعلهما جامعتين كاملتين وجاء اليهما باساتذة من عرب صقلية .

وقد زود (فريدريك الثاني) مكتبة جامعة (نابولي) بمجموعة كبيرة من المخطوطات العربية واوعز بان تعتمد الدراسة على مؤلفات ارسطو وابن رشد التي كان امر بترجمتها كما طلب ارسال نسخ من الكتب المترجمة الى جامعتي (بولونيا) و(باريس) .

واليه يرجع الفضل في نشر الارقام العربية وتقرير تدريس الجبر على الطلاب المسيحيين في اوروبا ...

الى جانب العلماء والفلاسفة في بلاط (فريدريك الثاني) كان هناك ايضا جمع من الشعراء يقصدونه من مختلف الاقطار وبالاخص من مقاطعة (البروفانس) جنوبي فرنسا حيث كان المغنون المنشدون (التروبادور) قد تأثروا بالشعر العربي في الاندلس مثلما تاثر به الشعراء الصقليون .

وكان الامبراطور يعرف بالتأكيد بعض الاشعار الشعبية في صقلية ، كما كان هو نفسه وابنه (مانفرد) ينظمان الشعر باللهجة الطليانية ، وهذا شاعر ايطاليا الاكبر (دانتي) قد اثنى على شعرهما واعتبرهما من رواد الشعر الطلياني .

ان هناك فرضيات عديدة ونظريات متناقضه حول تأثير الادب العربي الاندلسي والصقلي في نشأة الاداب الاوروبية في عهد الاحياء وحول نصيب (فريدريك الثاني) وحاشيته في صقلية من هذا التاثير .والامر المؤكد الوحيد هو وجود علاقة بين التراث العربي ــ الاسلامي في الاندلس وصقلية على عهد النورمان ثم عهد (فريدريك الثاني) وبين النهضة الاوربية الحديثة .

كان اهتمام (فريدريك الثاني) متجها في الدرجة الاولى الى الامور العلمية ــ

الفنية والمسائل التطبيقية قبل التصورات الخيالية والتأملات الفلسفية والابحاث العلمية ــ النظرية البحتة .

وقد تمركزت عناية الامبراطور حول العلوم الطبيعية من حيوان ونبات ومن بيطرة وطب وفلك وتنجيم ثم كيمياء وميكانيك . وهو لايختلف في ذلك عن معاصريه الذين كانت تستهويهم هذه العلوم والفنون فاندفع الى اقتباسها من العرب المسلمين الذين كانوا قد نقلوها عن اليونان القدماء واستطاعوا تطويرها واغناءها بما قاموا به من بحوث وتجارب وما توصلوا اليه من اكتشافات واختراعات .

كذلك قام (فريدريك الثاني) بتنظيم الحياة الاقتصادية في بلاده متبعا الاساليب التي كان النورمان اقتبسوها في صقلية عن العرب المسلمين سواء فيما يتعلق بمصانع الطراز او اصول المحاسبات المالية أو نظام النقد . وقد انتقلت هذه المالية الى التجار اللومبارديين ومنهم الى جميع المدن التجارية الاوروبية والدوائر الحكومية في بلاد الغــرب .

ومن المفيد ان نذكر هنا اقدام (فريدريك الثاني) على اصلاح نظام النقد . فقد لاحظ خلال اقامته في البلاد المقدسة فائدة وجود عملة ذهبية ثابتة القيمة . وكانت النقود الذهبية لم يبق لها أثر في البلاد الاوروبية بعد غارات البرابرة اذ اصبحت كل العملات الاوروبية ــ الغربية منذ القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر اما من الفضة أو معادن دونها قيمة . لذلك كانت النقود الذهبية البزنطية التي تسمى في الغرب (بيزانتس) تتمتع بمكانة عالية في العالم المسيحي .

وقد قام (فريدريك الثاني) بعد عودته من القدس بسك نقود ذهبية اطلق عليها اسم (اوغوستاليس) لتنافس نقود الامبراطور الروماني (اوغسطس)المشهورة. وعلى الرغم من طابع التقليد البادي عليها فانها كانت متقنة السبك ، جميلة المنظر ، خالية من كل شعار ديني خلافا للمعتاد اذ ذاك ، مقتصرة على النسر الروماني يحيط باسم (فريدريكوس) على أحد الوجهين وكلمات : روما وقيصر واوغوست والامبراطور على الوجه الاخر . كان (فريدريك الثاني) يقصد بذلك اضفاء مظاهر الروعة والهيبة والقدسية على شخصه اسوة بالاباطرة الرومان والاستغناء عن وصاية الكنيسة وبركتها.

ويظهر حرصه على الاقتداء بالاباطرة القدماء في أطلاقه اسم (الكتاب الاوغوسطي) على مجموعة القوانين التي اصدرها في سنة ١٢٣١ . وتعتبر هذه المجموعة من أكمل الانظمة الحقوقية وقد بنيت على أساس علمي لاول مرة منذ قوانين (جوستينيان) ،

كما جعلت البلاد خاضعة لتشريع موحد وسلطة واحدة مطلقة . كانت هذه القوانين رجعية من بعض الوجوه لانها اقرت الفروق الطبقية الاقطاعية وحافظت على جميع حقوق السادة على الاقنان ، الا انها كانت تقدمية من وجوه كثيرة اذ جردت النبلاء من السلطات التشريعية والقضائية ومن حق سك النقود وادخلت اصلاحات عديدة على اصول المحاكمات ، فمنعت اساليب التعذيب كما شملت تنظيم مهنة الطب والعمليات الجراحية وبيع الادوية . وكان (فريدريك الثاني) يشجع على تشريح الجثث ، رغم معارضة الراي العام .

***

يتبين من القوانين والمراسيم التي اصدرها (فريدريك الثاني) ومن الانظمة الادارية التي اتبعها انه كان حريصا كل الحرص على فرض سلطته الامبراطورية ، متمسكا بالحكم الفردي الاستبدادي المطلق ، القائم على مبدأ المركزية التامة . فلم يكن يسمح بالاعتداء على مصلحة الدولة او بالتحدي لاوامره ولا يتأخر عن معاقبة الخارجين على النظام بكل شدة .

وقد ابدى بعض الباحثين دهشتهم تجاه التدابير القاسية جدا التي لجأ اليها الامبراطور لمكافحة الهرطقة وهو الذي اشتهر بالتفكير الحر والتسامح الديني . ولكن الامر هنا يتعلق بسلامة المجتمع ومصلحة الدولة فلم يكن هناك مجال للتساهل ..

كذلك تعرض (فريدريك الثاني) الى انتقادات لاذعة بسبب قسوته تجاه بقايا المسلمين في صقلية الذين قاموا بالثورة دفاعا عن حقوقهم واراضيهم في سنتي ١٢٢٢ — ١٢٢٣ ثم السنوات ١٢٤٣ — ١٢٤٦ . وذلك لما عرف عنه من ميله الى المسلمين وعلاقاته الطيبة بملوك المسلمين . ويروي مؤلف (التاريخ المنصوري) ان احد المسلمين الذين هربوا من صقلية وصل الى (حران) وقابل الملك الكامل وطلب منه الكتابة الى الامبراطور في هذا الشأن .

ان (فريدريك الثاني) لم يكن ليستطيع التساهل مع العصاة ومثيري الفتنة ولكنه اضطر الى تهجير هؤلاء المسلمين الثائرين من (صقلية) الى جنوبي ايطاليا واسكنهم في مدينة (لوجيرا) واعتنى بامرهم والف منهم حرسه الخاص الذي حارب به (البابا) .

يذكر المؤرخون ان وفدا اسلاميا زار (فريدريك الثاني) في سنة ١٢٣٢ في اثناء اجتماع (المجلس التمثيلي) للامراء والاساقفة الالمان فاسرع الامبراطور الى الترحيب

والاحتفاء بهؤلاء العرب المسلمين الذين كانوا يحتفلون بأحد اعيادهم ، ثم انضم اليهم وشاركهم في الاحتفال على مرأى من الجميع .

ويروي (ابو الفداء) نقلا عن قاضي حماة (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل) انه سافر في سنة ١٢٦٠ الى «الارض الطويلة» اي ايطاليا كما كان يسميها الجغرافيون العرب اذ ذاك ، موفدا من قبل الملك (الظاهر بيبرس) الى الامبراطور (مانفرد) ابن (فريدريك الثاني)و ان (مانفرد) كان من بين ملوك الفرنج مصافيا للمسلمين ويحب العلوم . ثم يقول (ابن واصل) : « فلما وصلت الى الامبراطور اكرمني واقمت عنده في مدينة من مدن (انبولية)واجتمعت به مرارا ووجدته متميزا ومحبا للعلوم العقلية . وقد صنفت له (الرسالة الانبرورية) في المنطق .. وبالقرب من البلد الذي كنت فيه مدينة تسمى (لوجيرا)اهلهاكلهم مسلمون من اهل جزيرة صقلية ، يقام فيها الجمعة ويعلن بشعائر الاسلام .. » ويضيف (ابن واصل) قائلا : ان الامبراطور (مانفرد) قد حارب البابا برومية الذي كان حرمه من الغفران كما كان حرم والده (فريدريك) واخاه (كونراد) وذلك لميلهم الى المسلمين .

***

يقول المؤرخ السويسري (يعقوب بوركهاردت) في كتابه المشهور (حضارة عهد الاحياء في ايطاليا) : « ان (فريدريك الثاني) ، تلميذ العرب ، كان اول انسان اوروبي حديث ».

وقد عارض بعضهم هذا الراي وذهب الى ان فيه شيئا من المبالغة ، مدعيا ان (فريدريك الثاني) كان قبل كل شيء ابن القرون الوسطى وظل متمسكا بنظام الاقطاع وعبودية الاقنان وفكرة الامبراطورية الرومانية المقدسة .

ولكن لاشك ايضا في انه كان يمتاز على معاصريه وقد سبقهم بكثر من الافكار والمبادىء الجديدة التي لم تبرز الا بعد قرنين من عهد الاحياء . والسبب في اختلاف النظرة اليه يرجع الى شخصيته المعقدة ذات الجوانب المتعددة والمظاهر المتقلبة . وانه من الصعب حصر هذه الشخصية في قالب محدد او حشرها ضمن نوع معين من النماذج البشرية. ولفهم هذه الشخصية الفذة ، الغريبة، ومعرفة صفاتها الخاصة لابد من التذكير بان (فريدريك الثاني) عاش يتيما في طفولته ، محروما من حنان الوالدين ، مهملا، ، مشردا ، مضطربا ، تعلم في سن مبكرة جدا أن لايثق بأحد وأن لايعتمد الا على نفسه وأن يقابل الناس بالريبة والحذر وأن يلجأ الى المراوغة والمكر

والخداع ، فاعتاد على قساوة القلب وصار « واقعيا » لا يهتم الا بتحقيق اهدافه بكل الوسائل .

لقد كان مثقفا ، متنورا من الوجهة الفكرية ولكنه كان في الوقت نفسه رجعيا ، متخلفا من الوجهة السياسية .. كان أحيانا متعصبا عندما تتطلب مصلحته ذلك ولكنه كان في اكثر الاحيان متسامحا ، متحررا من الخرافات ، كان يظهر عليه في بعض الاوقات الخشونة والصلابة والعنف ، الا انه يبدو في اوقات أخرى مرحا ، لطيفا ، شهما ، انه كثيرا ماكان يتحمس ويندفع ويتهور ، ولكنه سرعان مايستعيد رباطة جائشه وأتزانه ويسيطر على الموقف .. لقد كان يعرف معرفة دقيقة طبائع البشر وعواطفهم وأهواءهم ، فاكتسب بذلك مرونة ومهارة في التعامل مع الناس .

لا غرابة في أن يجمع(فريدريك الثاني) المتناقضات في شخصه وهو الذي ورث طبائع اجداده الجرمان والنورمان وتلقن تعاليم القرون الوسطى وتقاليد الرومان والبزنطيين وتأثر بالحضارة العربية ــ الاسلامية وبالحكمة اليونانية القديمة . وقد انعكس هذا التراث الضخم في بلاطه الذي امتاز بالنشاط الفكري والبحث العلمي .

اننا بعد تحليل شخصية (فريدريك الثاني) والكشف عن العناصر المختلفة التي تمازجت فيها لابد لنا من الاعتراف بأنه حقا نسيج وحده وانه يستحق وصف (اول اوروبي حديث) لانه كان مجددا ، مبتكرا ، رائدا . فقد تحرر من الافكار السابقة ، المتوارثة ومن تقاليد القرون المظلمة واصطدم بالبابوات فحاربهم ، ونشر فضائحهم ومهد بذلك السبيل لتحرير الدولة من سيطرة الكنيسة وتعاليمها . وأهم صفة امتاز بها هي اتجاهه العقلاني ونزغته العلمية . فقد كان يحب الاطلاع ودراسة كل العلوم والفنون وكان اهتمامه منصرفا في الدرجة الاولى الى العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية .واليه يرجع الفضل في تشجيع طرائق البحث الاستقرائية والتجريبية .

وهكذا نستطيع القول ان الحضارة العربية ــ الاسلامية التي ازدهرت في صقلية في عهد الامراء الكلبيين قد استمر تأثيرها في ملوك النورمان وفي عهد الامبراطور (فريدريك الثاني) الذي اقتبس عنها الكثير من المظاهر المادية ــ الخارجية والانظمة الادارية والاقتصادية ثم اعتنى قبل كل شيء بتراث العرب العلمي والفلسفي فنقل الى الاوروبيين مؤلفات (ابن رشد) وبذلك نشر التفكير الحر ومهد السبل الى عهد الاحياء.. وقد قيل بحق انه لولا (فريديك الثاني) لتأخرت النهضة الاوروبية الحديثة مدة قرن أو قرنين ..

بعض مراجع البحث :

١ ـ د. احسان عباس . العرب في صقلية . مصر ١٩٥٩

٢ ـ التاريخ المنصوري . تاليف ابي الفضائل محمد بن علي الحموي .
(نشرت اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي نسخة مصورة عنه سنة ١٩٦٣ .
ويقوم مجمع اللغة العربية بدمشق بطبعه في الوقت الحاضر) .

٣ ـ ميشيل اماري . المكتبة الصقلية . لايبزيغ ١٨٨٧

٤ ـ حسين مؤنس . تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الاندلس . القاهرة ١٩٦٧

٥ ـ ابن حوقل : المسالك والممالك .

٦ ـ ابن جبير : الرحلة .

٧ ـ الشريف الادريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الافاق .

٨ ـ سبط بن الجوزي . مراة الزمان : طبعة الهند المجلد (٨)

٩ ـ Jacob Burkhardt, Die Kultur der Renaissance in Italien

١٠ ـ E. Kantoroviez, Kaiser Friedrich der Jocite, Berlin 1981

(كتاب كانتوروفيج هذا ما زال احسن مصدر عن حياة فريدريك الثاني رغم مرور خمسين عاما على تاليفه . . ترجم الى الانكليزية) .

نظام ملكية الأرض

في المغرب الإسلامي

القرن ١ ـ ٦ هـ ، ٧ / ١٢ م

د . الحبيب الجنحاني

كلية الاداب والعلوم الانسانية ـ الجامعة التونسية

بالرغم من تزايد العناية خلال السنوات الاخيرة بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي(١) فان كثيرا من القضايا الكبرى ماتزال مطروحة ولا نعرف عنها الا النزر مثل البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي المغربي خلال العصر الوسيط . فاذا كانت معلوماتنا عن المدن متوفرة وتكاد تكتمل لدينا الصورة عن حياة الناس في المدينة ، فان مانعلمه عن الحياة الزراعية في الريف مايزال قليلا مشتتا لا يسمح بالتعمق في تحليل الهياكل انطلاقا من نصوص دقيقة واضحة ، ولا سيما خلال القرون الخمسة الاولى أي قبل بروز ظاهرة كتب الفتاوى والرحلات .

ان المشكلة الاولى التي تعترض سبيلنا في محاولة التعرف الى الهياكل الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الزراعي المغربي هي نظام ملكية الارض . فاذاكانت كتب الجغرافيين العرب(٢) تمدنا ببعض المعلومات عن المناخ وعن الموارد المائية ، وعن زراعة البستنة في الواحات وفي ضواحي بعض المدن(٣) وعن انواع الزراعات ،وعن تربية الماشية ، فانها لا تفيدنا شيئا ذا شأن عن نوع ملكية الارض ، وأوجه انتقالها ، وأساليب استغلالها .

وأود في هذا الصدد الاشارة الى الملاحظات الاساسية التالية :

اولا : تهدف هذه المحاولة الى معرفة الواقع التاريخي لهذا الجانب الخطير من جوانب الحياة الاقتصادية في المغرب الاسلامي الوسيطي ، وهو واقع قد تجاوز نظرية الاسلام في ملكية الاراضي ، فانه من المعروف أن الدول الاسلامية التي قامت في المشرق والمغرب معا لم تحترم ـ في اغلب الاحايين ـ المبادىء التي طبقت على الاراضي المفتوحة في العصر الراشدي ، وهي التي حاول العودة اليها الخليفة

---

* اعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦ ـ ٢٢ جمادي الاخرة ١٤٠١هـ / ٢٠ ـ ٢٦ نيسان ١٩٨١م.

الاموي عمر بن عبد العزيز فيما ادخله من تغيير على الملكية الزراعية وعلى النظام الجبائي الاموي(٤) . وقد مس التجاوز المذكور نظام ملكية الارض وخاصة ارض الصوافي من جهة ، والضرائب الموظفة على انتاج الارض من جهة اخرى . ونبادر الى القول هنا بان المعلومات النظرية معروفة ومصادرها متوفرة (٥) ، ولكنها لاتعكس الواقع التاريخي وتطوره واختلافه من منطقة الى اخرى .

ثانيا : وتتبدل الصورة في بلاد المغرب ابتداء من القرن السادس الهجري حيث تمدنا كتب الفتاوى بمعلومات دقيقة عن اساليب ملكية الارض في كثير من المناطق المغربية . واذا كان المتتبع يقف على اشارات في هذا المجال هنا وهناك في كتب التاريخ والطبقات تتصل بفترة بروز دول مغربية مستقلة عن مركز الخلافة ابتداء من نهاية القرن الثاني للهجرة فانها اندر من الكبريت الاحمر خلال عصر الولاة (اعني خلال القرنين الاول والثاني) .

ونلمس في هذا الصدد فرقا واضحا في هذا المجال بين المشرق والمغرب ، فهنالك معلومات دقيقة عن ملكية الارض في العراق ولا سيما في اراضي السواد وفي بلاد الشام(٦) ، و مصر أيضا . فابن عبد الحكم يسهب الحديث عن خراج مصر ، وعن اساليب جبايته في صدر الاسلام . ويحدثنا عن القطائع وعن أصحابها(٧) .

ثالثا : انني اميل الى الاعتقاد بأن للخصائص الجغرافية لبلاد المغرب(٨) ومميزاتها الديمغرافية تأثيرا عميقا في اكتساب نظام ملكية الارض في المغرب سمات تميزه عن كثير من المناطق الاخرى للمجتمع العربي الاسلامي .

رابعا : ان معرفة اساليب ملكية الارض وخصائص البنية الاقتصادية الاجتماعية للريف ، والعلاقة بينه وبين المدينة أمر اساسي وضروري لمعرفة اساليب العيش وانماط الانتاج ، والنمط السائد بينها .

ان الجهد التنظيري في تحليل البنى الاقتصادية والاجتماعية والحديث عن (النمط الآسيوي للانتاج)(٩) ، وعن نوعيه (الاقطاع) المغربي، وعن (نمط الانتاج الرعوي) وغيرها من المفاهيم التي ماتزال في حاجة ملحة الى التوضيح والتدقيق بالنسبة للتاريخ الاسلامي عامة ، يبقى محدودا طاغيا عليه الطابع النظري التخميني ، ما لم تدعمه ابحاث تاريخية وجغرافية اجتماعية تنطلق اساسا من النصوص ومن قراءة جديدة لها ، ولنتائج الحفريات ، ومن دراسة علمية للعملة ، ومن كشف دقيق عن الموارد المائية .

لقد اكدت كثيرا على دور التجارة الكبرى فيما عرفه المغرب الاسلامي الوسيطي من تطور عمراني كبير(١٠) . ولكنني بالرغم من ذلك لا أتفق مع الاستاذ سمير أمين في كتابه (الامة العربية) (١١) فيما ذهب اليه من تقليص دور الفلاحة وحصر أسباب الازدهار العمراني في التجارة الكبرى .

ان المجتمع المغربي الوسيطي يبقى مجتمعا زراعيا اولا وبالذات رغم ماعرفه من شبكة مسالك نشطة ، ومن مدن مزدهرة تجاريا ، كان لها اثر فعال في الدورة التجارية العالمية عصرئذ . وذلك بفضل ربطها بين واجهتين تجاريتين حساستين . الواجهة البحرية والواجهة الصحراوية . ومد حركة التبادل التجاري الدولي ببضاعتين ثمينتين من بضائع العصر : الذهب والرقيق .

ونعتقد ان تطور التجارة البعيدة المدى قد ساهم في تطور الفلاحة حيث اصبح كثير من المنتوجات الزراعية تحتل مكانا بارزا في قائمة البضائع المتبادلة . وقد أدى ارتفاع ثمن بعض هذه المنتوجات الى العناية بها . وتطوير الاساليب الزراعية لانتاجها مثل زراعة القمح في واحة سجلماسة . فهو بضاعة ثمينة في تبادلها التجاري مع بلاد السودان . فاعتنى السجلماسيون بالزراعة السقوية في البساتين المقامة على الوادي . ويشبه ابن حوقل زراعتهم السقوية بزراعة المصريين على ضفتي النيل قائلا : « فيزرع بمائه حسب زروع مصر في الفلاحة وربما زرعوا سنة عن بذر وحصدوا ماراع من زرعه . وتواترت السنون بالمياه . فكلما اغدقت تكد الارض سنة في عقب اخرى حصدوه الى سبع سنين سنبل لاشبه سنبل الحنطة ولاالشعير بحب صلب المكسر . لذيذ المطعم . وخلقه ما بين القمح والشعير »(١٢) . ويسمى البكري هذا القمح بالصيني . ويسع مد النبي (ص) منه خمسة وسبعين الف حبة .

ان هذه الاشارات تدل على عناية خاصة بتطوير هذه الزراعة . وهي عناية تتجاوز في رأينا تلبية الحاجات الاستهلاكية لسكان الواحة ؛ بل تكمن وراءها أهمية هذا الانتاج الفلاحي في العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان . ونجد مثالا آخر يوضح مدى ارتباط الازدهار التجاري وبروز فئات اجتماعية ثرية متخصصة في التجارة الكبرى بمحاولة تطوير الزراعة وتسديد حاجات استهلاكية جديدة رغم صعوبة المناخ الجغرافي في مدينة تجارية صحراوية مثل مدينة اودغست (١٣) . فقد استفاد مزارعوها من تجربة واحة تافيلالت واعتنوا بزراعة القمح السقوي لما يدره من ارباح نظرا لندرة البضاعة في مدينة تسكنها فئات التجار الاثرياء . يقول البكري « وهي مدينة كبيرة آهلة رملية تطل عليها جبل كبير موات لاينبت شيئا ... وحولها

بساتين النخل ، ويزرع فيها القمح بالفؤوس ويسقى بالدلاء يأكله ملوكهم وأهل اليسار منهم . وسائر أهلها يأكلون الذرة » (١٤) .

ويتحدث أبو العباس الناصري السلاوي عن النمط المعيشي لقبائل الملثمين ، وكان موطنهم أرض الصحراء والرمال الجنوبية فيما بين بلاد المغرب وبلاد السودان ، فيقول : « وفيهم قوم لا يعرفون حرثا ولا زرعا ولا فاكهة وانما أموالهم الانعام وعيشهم اللحم واللبن ، يقيم أحدهم عمره لا يأكل خبزا الا ان يمر ببلادهم التجار فيتحفونهم بالخبز والدقيق »(١٥) .

وقد عرفت الزراعات المتخصصة تطورا كبيرا نتيجة ازدهار الحركة التجارية ، مثل زراعة قصب السكر في منطقة قرية تارودانت ببلاد السوس الاقصى ، « وهي أكثر بلاد الله قصب سكر وفيها معاصر السكر كثيرة ... ومنها يجلب السكر الى جميع بلاد المغرب والاندلس وافريقية »(١٦) .

انه بالرغم من تأثير التجارة الكبرى في ميادين فلاحية معينة فقد بقي هذا التأثير محدودا ولم يساهم رأس المال التجاري مساهمة ذات أثر في تقدم الزراعة وتطور المجتمع الريفي المغربي ، ولا تقدم لنا النصوص المعروفة معلومات عن استثمار أرباح التجارة الكبرى في شراء الاراضي واستصلاحها في المغرب كما كان الشأن بالنسبة للعراق مثلا(١٧) .

خامسا : ولابد من الاشارة هنا الى ان مشكلة المفاهيم المتصلة بالملكية الزراعية في البلاد المفتوحة مثل الفيء والغنيمة والجزية والخراج والضياع والاقطاع والحماية . ونظم الجباية الموظفة على انتاج الارض ، ما تزال مطروحة رغم ما كتب عنها قديما وحديثا(١٨) ، فهي مفاهيم قد تطورت حسب واقع اقتصادي واجتماعي معين ، واختلفت من منطقة جغرافية الى اخرى لاسباب متنوعة ، فما نعرفه من تنظيم لشؤون الجزية والخراج في صدر الاسلام في مناطق مثل العراق ومصر يبقى غامضا في بلاد المغرب ، وانواع الاقطاع الذي عرفته الخلافة العباسية ابتداء من القرن الرابع الهجري(١٩) ، لانجد له أثرا واضحا في المغرب . ومن هنا جاء تلميحنا الى دور الخصائص الجغرافية لبلاد المغرب وميزاتها الديمغرافية في تفرد نظام ملكية الارض في المغرب الاسلامي بسمات خاصة .

***

وبعد هذه الملاحظات العامة التمهيدية أعود الى مشكلية ملكية الارض في المغرب، وما عرفته من تحول خلال الفترة التي ندرسها هنا ، أي من القرن الاول الى سقوط الدولة المرابطة (٥٤٠هـ/١١٤٦ـ٤٧م) لطرح السؤال التالي :

كيف كانت سياسة الدولة الاسلامية في المغرب بعد الفتح ، وبعد اتخاذ قرار الاستقرار ، وتأسيس القيروان لتكون مصرا جديدا للعرب الفاتحين على غرار امصار المشرق مثل الكوفة ، والبصرة والفسطاط . ان العرب المسلمين قد انتهجوا دون ريب في الفترة الاولى نفس السياسة التي انتهجوها في العراق وفي بلاد الشام ، وخاصة في مصر حيث كان المغرب تابعا لولاية مصر(٢٠)، وقد شارك في فتحه كثير من العرب المسلمين المقيمين في الفسطاط « وكان الناس قبل ابي المهاجر يغزون افريقية ثم يقفلون الى الفسطاط »(٢١) .

والقضية الاولى التي تعترض سبيلنا في المستوى النظري هي : هل فتحت افريقية عنوة او صلحا ؟ وهي القضية الكلاسيكية التي واجهت الفقهاء والمؤرخين في فتح العراق وبلاد الشام ، ومصر(٢٢) . نقل عبد الله بن ابي زيد في كتابه (النوادر والزيادات على المدونة) عن سحنون، قال: كشفت عن أرض افريقية فلم أقف منها على حقيقة ، هل هي عنوة او صلح ، وسألت عن ذلك علي بن زياد فقال :« لم يصح عندي فيها شيء » . وعن بلاد المصامدة وارض مراكش قال ابن عبد الحليم (؟) : اتفق اشياخ بلادنا من أهل العلم انها اسلم عليها اربابها ، وليس فيها صلح ولا عنوة ، وقال عن ابي الاصبغ القرشي ادركنا أهل الفقه والورع في بلاد الاندلس يشترون الارض فيها ويبيعون ونحن متبعون لهم وانتم متبعون اسلافكم في مغربكم(٢٣) . وهناك رواية اخرى تشير الى ان البلاد المغربية لم تجر في الافتتاح على قانون، بل منها ما افتتح عنوة ومنها ما افتتح صلحا . ونقف في تتبعنا للنصوص القديمة حول هذه النقطة على مفهوم جديد « اسلم عليها اهلها » وهي ماتعنيه عبارة «المعيار» للونشريسي : « وأما بلاد افريقية ــ وهي معظم المغرب ــ ففيها بلاد ليست بصلحية ولا عنوية » (٢٤) . ويخبرنا صاحب الاستقصاء ان احد عمال المنصور بن ابي عامر صاحب الاندلس حين تغلب على ارض فاس قال لهم : « اخبروني عن ارضكم اصلح هي أم عنوة ؟ فقالوا له لاجواب لنا حتى يأتي الفقيه ، يعنون أبا جيدة ، فجاء الشيخ المذكور فسأله العامل فقال : ليست بصلح ولا عنوة انما اسلم عليها اهلها فقال: خلصكم الرجل»(٢٥)

* * *

وقبل الحديث عن وضع الملكية في بلاد المغرب خلال القرن الاول اود التذكير بالسياسة التي اتبعها المسلمون في مصر في هذا الميدان ، ايمانا منا بأن جوانب كثيرة من هذه السياسة قد طبقت في المغرب نظرا لارتباطه بمصر في هذه الفترة ارتباطا وثيقا ، فقد سعى العرب الفاتحون ان تم فتح مصر صلحا لتكون لهم فيئا وغنيمة . فلما عرض المقوقس على عمرو بن العاص التفاوض في صيغة الصلح « فاستشار عمر اصحابه في ذلك فقالوا لانجيبهم الى شيء من الصلح والجزية حتى يفتح الله علينا وتصير الارض كلها لنا فيئا وغنيمة كما صار لنا القصر وما فيه » (٢٦) . وبالرغم من فتحها صلحا على ارجح الروايات فقد الح كبار الصحابة على عمرو بن العاص بقسمة الارض ، فقد روي عن ابن ابي بردة يقول « سمعت سفيان بن وهب الخولاني يقول انا لما فتحنا مصر بغير عهد قام الزبير بن العوام فقال اقسمها ياعمرو بن العاص فقال عمرو والله لا اقسمها قال الزبير والله لتقسمنها كما قسم رسول الله (ص) خيبر قال عمرو والله لا أقسمها حتى اكتب الى امير المؤمنين فكتب اليه عمر اقرها حتى يغزو منها حبل الحبلة » (٢٧) ولكن الخليفة عمر بن الخطاب اتبع نفس السياسة التي اتبعها في أرض السواد ، وفي بلاد الشام حتى في المناطق المصرية التي فتحت عنوة ، مثل الاسكندرية ، والقرى الثلاث التي ظاهر اهلها الروم على المسلمين « فلما ظهر عليهم المسلمون استحلوهم . وقالوا هؤلاء لنا فيء مع الاسكندرية فكتب عمرو بن العاص بذلك الى عمر بن الخطاب فكتب اليه عمر بن الخطاب ان تجعل الاسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة للمسلمين ، ويضربون عليهم الخراج ، ويكون خراجهم ، وما صالح عليه القبط قوة للمسلمين على عدوهم ، ولا يجعلون فيئا ولا عبيدا ففعلوا ذلك » (٢٨) .

وبعد تأسيس الفسطاط وزعت الخطط على القبائل المشاركة في الفتح لبناء الدور « واختط حول عمرو والمسجد قريش والانصار ، واسلم وغفار وجهينة ، ومن كان في الراية ممن لم يكن لعشيرته في الفتح عدد مع عمرو » (٢٩) ، وتواصلت بعد ذلك حركة الخطط ، واستحبت همدان ومن والاها الجيزة دون الفسطاط فبنى لهم عمرو الحصن الذي بالجيزة سنة ٢١ هـ .

ولم تقتصر القطائع على اراضي الفسطاط وضواحيها لبناء المنازل والدور بل تجاوزتها لتشمل اراضي فلاحية ، وقد تكون هذه الاراضي من الموات ، او من اراضي النبلاء البيزنطيين الذين فروا بعد الفتح تاركين وراءهم اراضي شاسعة . ومن المعروف أن اغلب الاراضي المصرية قد بقيت بايدي السكان الاصليين ، القبط ، وقد وظف عليها الخراج . ولكن نص خطبة عمرو بن العاص يخاطب المسلمين الفاتحين

من سكان الفسطاط يحثهم على الخروج الى الريف المصري قائلا : « فحي لكم على بركة الله الى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده واربعوا خيلكم واسمنوها وصونوها واكرموها فانها جنتكم من عدوكم ، وبها مغانمكم وأثقالكم ، واستوحوا بمن جاورتموه من القبط خيرا .. »(٣٠) . يثير التساؤل التالي : ارض من هذه التي يحث على الخروج اليها التمتع بخيرات ربيعها ؟ هل هي الارض التي تركت بايدي القبط لاستغلالها ووظف عليها الخراج باعتبارها نظريا ملكا لعامة المسلمين ، أم هي أراضي البيزنطيين الذين غادروا البلاد وتركت بأيدي الفلاحين لزراعتها ، ولكنها ملك لبيت المال ، وهي التي يقطع منها ! اننا نميل الى الاحتمال الثاني بالرغم من صمت النصوص .

ونلمس تحولا في سياسة مركز الخلافة تجاه الجزية ونظام القطائع في مصر ، ابتداءمن عهد معاوية بن ابي سفيان . فقداقطع عمرو بن العاص وردان مولاه ارضا ، واقطع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابن سندر منية الاصبغ فخارلنفسه منها الف فدان ، وذلك في حالة معينة وحفظا لوصية الرسول (ص)(٣١) .

أما معاوية فقداراد تجاوز شروط أداء القبط للجزية . وقد كانت دينارين على كل رجل لا يزاد على احد منهم في جزية رأسه اكثر من دينارين فكتب الى وردان عامل الخراج على مصر : « ان زد على كل رجل منهم قيراطا فكتب وردان الى معاوية : كيف تزيد عليهم ، وفي عهدهم ان لايزاد عليهم شيء ، فعزل معاوية وردان »(٣٢) ، وأقطع قرية كاملة الى ابنه يزيد . ويخبرنا ابن عبد الحكم عن ردود فعل المسلمين تجاه هذه السياسة الجديدة قائلا : « واقطع معاوية ايضا يزيد قرية من قرى الفيوم فأعظم الناس ذلك وتكلموا فيه ، فلما بلغ ذلك معاوية كره قالة الناس فرد تلك القرية الى الخراج كما كانت للمسلمين »(٣٣) .

أما الوضع في المغرب فقد كان شبيها في مرحلة الفتح بما طبق في مصر ، ولكننا نرى ضرورة التأكيد على أمرين :

اولا : ان المسلمين قد اكتفوا في الغزوات الاولى التي سبقت تأسيس القيروان بفرض مبلغ معين من المال يؤديه سكان المغرب جزية ، فقد صالح عمرو بن العاص سكان برقة على ثلاثة عشر الف دينار يؤدونها اليه جزية على أن يبيعوا من احبوا من ابنائهم في جزيتهم « ولم يكن يدخل برقة يومئذ جابي خراج ، انما كانوا يبعثون بالجزية اذا جاء وقتها »(٣٤) . وقد طلب رؤساء أهل افريقية ، بعد انتصار المسلمين وهزيمة جرجير فيغزوة العبادلة سنة ٢٧ هـ ، الى عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم

مالا « على أن يخرج من بلادهم فقبل ذلك ورجع الى مصر ولم يول عليها أحدا ولم يتخذ بها قيروانا »(٣٥) وبالرغم من أن معاوية بن حديج الكندي قد اتخذ قيروانا عند القرن فان ظاهرة القطائع لم تبرز لانه سرعان مارجع الى مصر مكتفيا بالغنائم . ووزعت الاراضي لبناء الدور بعد غزوة عقبة الاولى وتأسيسه القيروان ، « وأمر الناس بالتنقية والخطط ، ونقل الناس من الموضع الذي كان معاوية بن حديج نزله الى مكان القيروان اليوم »(٣٦) .

ويلوح لنا ان الاحداث السياسية والعسكرية بصفة خاصة قد حالت دون الاهتمام بقضية الارض في هذه المرحلة المبكرة ، وهذا ما يفسر لنا ندرة المعلومات عن ملكية الاراضي وتنظيم شؤون الخراج ، وذلك بالقياس الى مصر مثلا .

ثانيا : ان اراضي الفئة الحاكمة وفئة النبلاء البيزنطيين قد اصبحت ملكا عاما يتصرف فيه الامير باسم الخليفة ، ويقطع منه ، ووظف الخراج على فئة اجتماعية معينة تسميها المصادر « الافارق » ، (ولعلهم عجم افريقية كما ورد في مصادر اخرى) وعلى من بقي من الروم بالبلاد ومن أقام معهم على النصرانية . واغلب هذه الاراضي في افريقية وفي السهول الخصبة من شمال بلاد المغرب . اما الاراضي الكبرى التي تسيطر عليها القبائل وخاصة في جنوب افريقية وفي المغربين الاوسط والاقصى فهي التي اطلق عليها المفهوم الجديد : « اسلم عليها اهلها » .

* * *

بعد انتصار حسان بن النعمان الغساني على قوة المعارضة العسكرية لقبائل المغرب الاوسط ولاسيما قبائل الاوراس بزعامة الكاهنة سنة ــ ٨٢ ــ هـ ، بدأ التفكير جديا في تنظيم شؤون افريقية ، وفي مقدمتها شؤون الخراج وملكية الارض . « ودانت له افريقية فدون الدواوين وصالح من الفى بيده على الخراج ، وكتب الخراج على عجم افريقية ، وعلى من اقام معهم على النصرانية من البربر والروم »(٣٧) . اما اذا اسلم سكان المناطق المفتوحة فان ارضهم تبقى بأيديهم ولايدفعون عنها الا العشر .

ويحدثنا صاحب (الاخبار المجموعة) عن فتح موسى بن نصير لطنجة سنة ٨٩هـ فيقول : « فأسلم اهلها واختطها قيروانا للمسلمين وأوطنها اياهم »(٣٨) . وحتى اراضي مناطق القبائل البربرية التي حاربها موسى بن نصير في زغوان ، وفي بلاد هوارة ، وزناتة ، وكتامة ، وصنهاجة ، وغيرها من المناطق ، فانها بقيت بايدي اصحابها . وسرعان ما اعتنقت هذه القبائل الاسلام فأصبحت اراضيها ممن « اسلم عليها اهلها » .

فلم يبق ـ اذن ـ ملكا عاما للمسلمين يقطع منه والي افريقية على رؤساء الجند وزعماء القبائل الا الارض الموات ، أو الاراضي المهجورة التي تركها البيزنطيون . ولم تقطع هذه الاراضي لرؤساء الجند ولرؤساء العشائر العربية النازية الى المغرب ، بل استغلها الامراء انفسهم ، فاختط موسى بن نصير بالقرب من القيروان وقد روى بعض اهل افريقية « ان موسى ركب يوما حتى خرج من القيروان فوقف قريبا من افريقية على رأس اميال فأخذ بيده ترابا فشمه من ثم ، ثم امر بحفر بئر وابتنى دارا ومنية ، واتخذ فيها خيلا ، فسميت منية الخيل ، فليس يعلم بالمغرب بئر اعذب منها »(٣٩) .

وكان الولاة يعطون اراضيهم الخاصة للوكلاء لزرعها . يقول ابن عذاري في حديثه عن ولاية يزيد بن حاتم (١٥٥ ـ ١٧١ هـ) ، « ان بعض وكلائه زرع فولا كثيرا في بعض رياضاته ، فقال له يا ابن اللخناء اتريد ان اعير بالبصرة فيقال يزيد بن حاتم باقلاني ، ثم أمر بأن يباح للناس »(٤٠) .

ولكن يبدو أن الاقطاع قد تطور بسرعة ، وسمحت الرتب الادارية والعسكرية بامتلاك قرى كاملة حيث نقرأ في ترجمة ابي عبد محمد بن مسروق من أهل القيروان ان اباه مسروقا كان خليفة موسى بن نصير بالمغرب ، فلما مات ابوه بات ينظر في كتبه وفي أمواله ومنازله ،وقد ترك له ابوه قرى كاملة ملكا له « فكان بعد ذلك (بعد تزهده) يمر بالقرية من قرى ابيه فيخرج اليه اهلها ، ومن فيها فيقولون : نحن عبيدك وكل مالنا في هذه القرية فهو لك ، فيقول: ان كنتم صادقين فانتم احرارومالكم لكم » (٤١) .

ان هذه الملكية الشاسعة لايمكن ان يكون مصدرها غير الاقطاع ، ونحن في مطلع القرن الثاني الهجري ، والسؤال الذي يتبادر الى الذهن : من كان يملك هذه القرى قبل الفتح ؟ اننا نميل الى انها كانت بيد افراد الاسرة الحاكمة او فئة النبلاء البيزنطيين

* * *

وهكذا فاننا نستطيع ان نتحدث عن استقرار ملكية الارض بعد انتهاء مرحلة الفتح ، واستقرار الوضع السياسي والعسكري في بلاد المغرب ، ويمكن ان نتحدث عن انواع ثلاثة للملكية ـ بالاضافة الى اراضي الوقف ـ : ملكية الفئة الحاكمة ، وملكية فردية بايدي الفلاحين في القرى ، او بايدي فئات مقيمة في المدن ، وتستغل الارض عن طريق العبيد او الاجراء ، والملكية الجماعية ، وهي أهم انواع ملكية الاراضي في المغرب الاسلامي ؛ ولا سيما ملكية القبائل الرحل التي تسيطر على ملكية مناطق سباسبية او

صحراوية شاسعة . يتحدث ابن ابي زرع الفاسي عن قبائل المرابطين فيقول : « وهذه القبائل كلها صحراوية ، حوز بلادهم في القبلة مسيرة سبعة أشهر طولا ومسيرة اربعة أشهر عرضا ، من نول لمطه الى قبلة القيروان من بلاد افريقية ، وهي مابين بلاد البربر وبلاد السودان »(٤٢) .

وقد عرفت الملكية الفردية مساحات شاسعة انجرت غالبا عن طريق الاقطاع . فقد كان عبد الرحيم الزاهد (توفي سنة ٢٤٧ هـ) من أصحاب سحنون يملك ضيعة كبرى تحتوي على سبعة عشر الف شجرة زيتون(٤٣) ، وكان الامراء من كبارالملاكين . ويشترون في بعض الحالات الاراضي التي يرغبون فيها ، ولايستطيع السكان الرفض خوفا من المصادرة والاضطهاد ، فقد اباح ابراهيم بن احمد الاغلبي عبيد السودان على نساء أهل (ابيانة) حين امتنعوا من بيعها منه »(٤٤) .

وقد كانت سياسة التغريم التي انتهجها الفاطميون بصفة خاصة عاملا اساسيا من عوامل انتقال الاراضي من أصحابها الى الدولة(٤٥) . وقد اقطع الخلفاء الفاطميون ضياعا الى انصارهم ومواليهم . فقد اقطع المهدي ضيعة بكورة الجزيرة للاستاذ جوذر(٤٦) . وكان له وكيل يدير شؤونها .

ولم يعرف نظام الملكية في العهد الزيري ، قبل الهجرة الهلالية ، تحولا يذكر بالنسبة لماكان عليه في العصر الفاطمي . فقد اقطع بنو زيري وبنو حماد ضياعا لانصارهم وعمالهم ، كما تحدثنا بعض الفتاوى عن نظام المغارسة والمناصفة في افريقية خلال الفترة الزيرية .

أما بعد سقوط القيروان . واستيلاء قبائل بني هلال وبني سليم على افريقية والمغرب الاوسط ، فقد تدهور نظام ملكية الارض واضطرب .

ويحصل هذا التحول في نظام ملكية الارض في المغربين الادنى والاوسط في نفس الوقت الذي تظهر فيه في المغرب الاقصى دولة جديدة غلب عليها الطابع العسكري . وقامت على أساس التحام العصبية القبلية بالدعوة الدينية ، واعتبر مؤسسها عبد الله بن ياسين الجزولي المناطق التي فتحها غنيمة فقسم الخمس على اللمتونيين .

ان المصادر التي بين ايدينا لاتحدثنا عما سنه المرابطون من جديد في نظام ملكية الارض في بلاد المغرب . ولاسيما في الاراضي الخصبة التي فتحوها بالسيف مثل

اراضي قبيلة برغواطة في منطقة تامسنا على سواحل المحيط ، ولكن نصا ثمينا يقدمه لنا ابو بكر الطرطوشي يدل على أنهم ادخلوا تغييرا جذريا بسنهم لنظام (الاقطاع) العسكري ، وذلك بالنسبة للاراضي التي هي ملك الدولة ، وقد طبق هذا النظام في الاندلس ولايستبعد ان يكون قد طبق في بلاد المغرب ايضا(٢٧) . فهل تأثرت الدولة المرابطية بنظام (الاقطاع) العسكري الذي عرفه البويهيون والسلجوقيون في المشرق ؟

١ ـ انظر كتابنا : (المغرب الاسلامي : الحياةالاقتصادية والاجتماعية) ، تونس ١٩٧٨ . (دراسات مغربية) ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٠ .

٢ ـ راجع مثلا : اليعقوبي ، البلدان ، ليدن ، ١٩٨١ . ابن حوقل ، صورة الارض ، بيروت ، دت الاصطخري ، المسالك والممالك ، القاهرة ١٩٦٧ . ابو عبيد البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقيـة والمغرب ، الجزائر ١٨٥٧ . الادريسي ، نزهة المشتاق ، ليـدن ، ١٨٦٤ . ابن محشرة (؟) ، كتـاب الاستبصار في عجائب الامصار ، الاسكندرية ١٩٥٨. ياقوت الحموي ، معجـم البلدان بيروت ١٩٥٧ . الحميري ، الروض المعطار في خبر الاقطار ، بيروت١٩٥٧ .

٣ ـ راجع عن زراعة البستنة بضواحي مدينة تاهرت : المغرب الاسلامي ، سبق ذكره ص ١٠٠ ، ١٣٢ وفي واحة تافيلالت نفس المصدر ص ١٧٢ ومايليها .

٤ ـ راجع في هذا الصدد :

فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٢٧٦ وما بعدها . عبـد العزيز بن محمد الرحبي ، فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج ، بغداد ١٩٧٣ ، ج١ ، ص ٢٩٨ ومابعـدها .

Claude Cahen, l'islam des origines au début de l'Empire attoman, Paris 1970, PP. 39 — 42

٥ ـ راجع في هذا الصدد : الماوردي ، الاحكامالسلطانية ، القاهرة ١٩٠٩ . ابو علي الحنبلي ، الاحكام السلطانية ، القاهره ١٩٦٦ . ابو عبيد ،كتاب الامـوال ، القاهـرة ، ١٣٥٣ . ابو يوسف كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٥٢ . الرحبي ، فقـهالملوك ومفتاح الرتاج ، سبق ذكره . يحي بن ادم ، كتاب الخراج ، ليدن ١٨٩٦ . الطرطوشي ، سراج الملوك ، القاهره ، ١٣١٩ هـ .

ومن المراجع الحديثة انظر في هذا الصدد :

محمد عبد الجواد محمد ، ملكية الاراضي فيالاسلام ، القاهرة ١٩٧١ . ابراهيم فؤاد احمدعلى ، الموارد المالية في الاسلام ، القاهرة ، ١٩٦٨ . محمدضياء الدين الريس ، الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٩ . صبحي الصالح ، النظم الاسلامية ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٦ ـ كان موضوع رسالة الماجستير التي قدمها محمد علي نصر الله الى قسم التاريخ بجـامعة بغداد عن ـ تطور ملكية الاراضي في منطقة السواد حتى نهاية العصر الاموي ـ لم تنشر بعد ، انظر عـن بلاد الشام : فالح حسين ، الحياة الزراعية في بلادالشام في العصر الاموي ، عمـان ، ١٩٧٨ ، ص ٤٢ وما بعدهـا .

٧ ـ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر واخبارها ، ليدن ١٩٢٠ ، راجع المعلومات الدقيقه عن طريقـة

جمع الخراج ، وعن احصاء السكان لتوظيفه ص ١٥٢ ، ومايليها ، ص ١٥٦ ، وراجع عن القطائع ص ١٣٢ وما بعدها .

٨ – انظر : سمير امين ، اقتصاد المغرب (بالفرنسية) ، باريس ١٩٦٦ ، ص ٩٩ ومابعدها .

٩ – انظر في هذا الصدد : احمد صادق سعد، ست دراسات في النمط الاسيوي للانتاج ، بيروت ، ١٩٧٩ .

Mexim Rodinson, Islam et capitalism, Paris, 1966, PP. 73; sur le féodalisme, paris, 1971; sur le « mode de production asiatique », Paris, 1969

١٠ – انظر التجارة في المغرب الاسلامي خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ، ضمن كتابنا : المغرب الاسلامي ... ، سبق ذكره ص ١٣ – ٤٥ .

١١ – بالفرنسية ، باريس ، ١٩٧٦ ، ص ٢٧

١٢ – صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ٩٠ .

١٣ – راجع ((اودغست : التطور العمراني – الحياة الاقتصادية والاجتماعية)) ، ضمن كتابنا : المغرب الاسلامي .. ، سبق ذكره، ص ١٩١ – ٢١٧.

١٤ – المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٦٨ .

١٥ – الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٤ ، ج٢ص٣ .

١٦ – كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ، سبق ذكره ص ٢١١ ومايليها .

١٧ – انظر في هذا الصدد : عبد العزيز الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ٤٦ .

Robert Mantran, l'expansion musulmane, Paris, 1969, P. 168, 273.

١٨ – الاضافة الى المصادر المذكورة في تعليق رقم ٥ – راجع عن – الاقطاع – عبد العزيز الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، بيروت ١٩٦١ ص ٨٦ وما يليها . الدوري ، نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية ، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد العشرون ، ١٩٧٠. ابراهيم علي طه خان ، النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٨ . دائرة المعارف الاسلامية (مع قائمة مصادر ومراجع مفصلة) ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، ليدن ١٩٧١ ، ج٣ ، ص ١١١٥ – ١١١٨ . راجع عن الخراج : دائرة المعارف الاسلامية (مع قائمة مصادر ومراجع مهمة) سبق ذكرها ج ٤ ، ص ١٠٦٢ – ١٠٨٧ .

راجع عن الجزية نفس المصدر، ج٢ ، ص ٥٧٣ – ٥٨١ .

راجع عن الضيعة نفس المصدر ، ج٢ ، ص ١٩٣ – ١٩٤ .

راجع عن الحماية نفس المصدر ، ج٣ ص ٤٠٦ وما يليها .

١٩ ـ انظر الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، سبق ذكره ، ص ٣٩ ومابعدها .

٢٠ ـ انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، سبق ذكره ، ص ١٩٧ . اخبار مجموعة لمؤلف مجهول مجريط ١٨٦٧ ، ص ٣٥ .

٢١ ـ ابن عبد الحكم ، سبق ذكره ، ص ١٩٧ .

٢٢ ـ انظر مثلا عن مصر نفس المصدر ، ص ٨٤ ومابعدها .

٣ ـ راجع الفصل المنشور من كتاب الاموال الداودي ضمن التاليف ـ دراسات في الاستشراق ـ (بالفرنسية) المهدي لذكرى ليفي بروفنسال ، باريس ١٩٦٢ ، ج٢ ص ٤٠٨ .

٢٤ ـ ن. م.

٢٥ ـ شكري فيصل ، المجتمعات الاسلامية في القرن الاول ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ١٦٦ ومايليها.

٢٦ ـ ابن عبد الحكم ، نفس المصدر ، ص ٧٠ .

٢٧ ـ ن. م. ، ص ٨٨ .

٢٨ ـ ن. م. ، ص ٨٣ .

٢٩ ـ ن. م. ، ص ٩٨ .

٣٠ ـ ن. م. ، ص ١٤٠ . ونلاحظ في هذا الصدد ان الجند قد نهي عن الزرع ، يقول ابن عبد الحكم (ص ١٦٢) ان عمر بن الخطاب « امر مناديه ان يخرج الى امراء الاجناد يتقدمون الى الرعية ان عطاءهم قائم ، وان رزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولايزارعون » .

٣١ ـ ن. م. ، ص ١٣ وما يليها .

٣٢ ـ ن. م. ، ص ٨٦ .

٣٣ ـ ن. م. ، ص ١٠١ .

٣٤ ـ ن. م. ، ص ١٧٠ وما يليها .

٣٥ ـ ن. م. ، ص ١٨٣ .

٣٦ ـ ن. م. ص ١٩٦ .

٣٧ ـ تاريخ افريقية والمغرب المنسوب للرقيق القيرواني ، تونس ١٩٦٨ ، ص ٦٤ . انظر ايضا ابن عبد الحكم ، سبق ذكره ، ص ٢٠١ . ونشير هنا الى ان حسان بن النعمان قد قسم الارض على البربر الذين اعتنقوا الاسلام ، واصبحوا يقاتلون مع الجيش العربي ، « واخرجهم مع العرب يفتحون افريقية فكان يقسم الفيء بينهم والارض ، وحسنت طاعتهم فدانت له افريقية ، ودون الدواوين » ، المالكي ، رياض النفوس ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ج١ ، ص ٣٦ .

الواجهة العسكرية

للحضارة العربية الإسلامية

فتح إفريقية : جذوره السياسية وأبعاده الاستراتيجية

د . عمر السعيدي

كلية الاداب والعلوم الانسانية ـ الجامعة التونسية

ان فتح العرب المسلمين لافريقية خاصة وللمغرب عامة كان دائما موضوع جدال واسع بين المؤرخين يتناول على الخصوص طول مدة الفتح (أكثر من نصف قرن) وصعوبة عمليات هذا الفتح وعدم استقرار السيطرة العربية الاسلامية ، الى غير ذلك من النقاط الحيوية الدقيقة التي مازالت تحتاج الى دراسة متانية تحاول استغلال المصادر القليلة التي لدينا لوضع قضية فتح افريقية في اطار اشمل ، وهو الاطار الدولي انذاك .

وهذا الجدال طغت عليه اعتبارات معاصرة صاحبت فترة الاستعمار ، نكتفي بالاشارة الى أهم مميزاتها ، وهي الحرص على التمييز في بلدان المغرب بين العرب والبربر ، لاثارة العنصرين وحثهما على التناحر والوقوف وجها لوجه .

وبما أن الانتماء العربي الاسلامي كان يعتبر الاخطر على استمرار ، فقد وقع التأكيد على البطولات البربرية ، واطلق على الكاهنة اسم (جان دارك المغرب) ، واعتبر كسيلي بطلا قوميا بربريا ، وراح بعضهم الى حد تمجيد البربر للدور الذي قاموا به ، بفضل مقاومتهم ، في حماية الغرب من الزحف الاسلامي (المتعصب) و (المتوحش) .

وقد أثرت هذه الاراء(١) تأثيرا كبيرا في دراسات تاريخ المغرب العربي الاسلامي ولم تتخلص منها الاذهان حتى بين العرب والمسلمين . وربما مما رسخ هذا الاتجاه العون غير المقصود الذي اسداه له بعض المؤرخين العرب المسلمين ، الذين اتخذوا موقفا متطرفا نقيضا لما اصبح يعرف بموقف مدرسة الجزائر التاريخية (زمن الاستعمار) ولكنه مثبت له في آن واحد ، وذلك انه هو الاخر يلخص القضية في الصراع

اعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، المنعقد بدمشق ١٦ ـ ٢٢ جمادى الاخرة ١٤٠١ هـ / ٢٠ ـ ٢٦ نيسان ١٩٨١ م .

بين العرب والبربر ، ويترك انطباعا عنصريا عن هذه الفترة من تاريخ إفريقية والمغرب.

وتاريخ هذه الفترة يجب أن يدرس في نطاق مشروع حضاري ينظر فيه الـــى الماضي حسب متطلبات الحاضر وتطلعات المستقبل ، اذ ليس هناك تاريخ موضوعي بالمعنى الالي ، وليس هناك تاريخ محايد ، والسؤال السليم يبقى دائما : لماذا التاريخ؟ ولاي هـــدف ؟

ان نقاط الجدال التي اشرنا اليها آنفا تستدعي نقاشا طويلا ليس هنا مجاله بل نكتفي بالاشارة الى أن مدة الفتح الطويلة وصعوبته النسبية تعزى الى عدة عوامــل تهم الطرفين ، وابرزها ان فترة فتوحات افريقية صادفت ازمات متكررة في مركـز القياده العربيه الاسلامية من جهة ، وجابهت مجتمعا يمتاز بتشتيت مراكز النفوذ ووجوب القضاء عليها واحدا واحدا . لم تكن افريقية والمغرب على ما كانت عليـه الامبراطوريتان الساسانيه والبيزنطية حيث كان انهزام الجيوش الامبراطورية يعني نهاية العمليات العسكرية . وهذه النقطة هامة جدا ، وبدأت تتضح بفضل دراسات جديده طريفة عن حالة افريقية والمغرب في اواخر العهد البيزنطي ، بما في ذلك البنية الاجتماعية للقبائل البربرية وعلاقات رؤسائها مع السلطة البيزنطية ، وانواع التعاون والاستقلالية في هذه العلاقات . وتثبت هذه الدراسات توزع مراكز النفوذ وتجزؤها مما يجعل من الصعب ان تتم اي سيطره خارجيه بسهولة .

اولا : مصادر تاريخ فتح افريقيه

الى جانب هذه الدراسات التي تحدثت في تونس والمغرب عامة ان تطورها المفضل على مظهر الثغرات في مسيرة تاريخنا . لاحظ ان المصادر عن فتح افريقية جلها من عصور متاخرة عن فترة الفتح وكثير منها تخلط بين الاحداث التاريخيه بالاساطير فلذلك اذا استطعنا رسم مراحل الفتح الرئيسية فانه اكثر من صعب علينا فالجزئيات تبقى غامضة مرتبكة لان المعطيات التي وصلتنا غير دقيقة . فالفتح من خلال مصادرنا المتاخرة [illegible] مسيرة بطولية اكثر منه حروب متواصلة فيها الانتصارات [illegible] والتقدم والركود الى غير ذلك .

ذلك لان النصوص رغم انها عديدة كتبت متاخرة [illegible] النصوص ويختلف من نص الى النص الذي سبقه [illegible] الروايات [illegible] الاحداث [illegible] الجزئيات [illegible]

[illegible] هذه النصوص [illegible] المصادر :

ــ مصدر يمكن تسميته بالشرقي وهو قديم نسبيا ويمثله ابو القاسم عبدالرحمان ابن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة (٢٥٧/٨٧١) وهو محدث اكثر منه مؤرخا .

ــ مصدر افريقي(٢) نسبة الى افريقية ربما تأثر بالمصدر الشرقي واصلهمحمد ابن يوسف الوراق(٣) المتوفى سنة (٣٦٣/٩٧٣) بقرطبة حيث سافر من القيروان .

ــ مصدر اندلسي ــ مغربي يظهر انه استعمل من طرف المتاخرين من المشارقة امثال ابن الاثير والنويري .

وخير ممثل لهذا المصدر هو على اغلب الظن ابن عذاري المراكشي في البيان المغرب الذي استعمله ابن الخطيب وابن خلدون دون ذكره . واصل هذا المصدر هو احمد الرازي(٤) .

وميزة ابن عذاري انه يذكر مصادره ومنها البكري وابن ابي الفياض الاندلسي وابن القطان وابن عبد البر وابن حماد والبرنسي .. والى جانب هؤلاء الكتاب المؤرخين نجد ان لابن عذاري مصادر غير مكتوبة تتمثل في استقصائه لمعلومات شفوية اهمها بالنسبة الفتح ترجع الى ابي علي صالح بن ابي صالح عبد الحليم الذي كان يقطن بلدة نفيس بالاطلس الاكبر في اوائل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي) (٥) ولهذا المصدر الشفوي الممثل لذاكرة اهل الجهة اهمية بالغة بالنسبة لعمليات عقبة بالمغرب الاقصى .

ثانيا ــ مراحل فتح افريقية :

فاذا قارنا هذه النصوص وتمعنا فيها وفي اختلافاتها استطعنا الى حد ما رسم ملامح الفتح العربي الاسلامي لافريقية والمغرب .

ولكن سوف لا نتناول جزئيات الاحداث خاصة وان هذا الجانب الاكاديميمعروف لدى الجميع اذ تناوله كثير من الدارسين نذكر منهم سعد زغلول عبد الحميد وشارل اندري جوليان ــ وايفرستليفي برفنسال وغيرهم . فالذي يهمنا بالدرجة الاولى هو سياسة الفتح التي ستسلك في خلافة عثمان (٢٣ــ٣٥ هـ/٦٤٤ ــ ٦٥٦ م) وفيما بعدها .

امتازت فترة خلافةعثمان بالقضاء بصورة تكاد تكوننهائية على التمييز بين مسلمي ما قبل الردة ومسلمي الردة . وامتازت كذلك بتقلص نفوذ تأثير النخبة المدنية التي برزت على يد عمر بالاستناد الى الاسبقية في الاسلام ، فنتج عن هذا ظهور نفوذ

الارستقراطية القبلية التقليدية الى جانب ظاهرة اخرى مهمة في خلافة عثمان تتمثل في تضخم هجرات القبائل الى امصار البلاد المفتوحة التي نشات على اثرها توترات بين قدامى عرب الامصار واللاحقين منهم . فهذه المعطيات الجديدة التي تنطبق على مصر كانت اساسا لسياسة الفتوحات في خلافة عثمان الذي كانت تدفعه ديناميةانتشار العرب في البلاد المفتوحة وتلاحقهم اليها . فهكذا كان فتح افريقية جزءا من الاستراتيجية الجديدة الثلاثية : الانطلاق من البصرة لاكتساح ماتبقى من الامبراطورية الساسانية ، والانطلاق من الكوفة للتمكن من الاقاليم الشمالية الشرقية حول بحر الكاسبيان والانطلاق من مصر نحو الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط .

وتهمنا الجبهة الغربية ـ المصرية على الخصوص فالانتقال من مصر نحو الغرب ليس في الحقيقة الا استمرارا لمبادرة تجاوز حدود فلسطين الى مصر . قصد تحقيق امن بلاد الشام بحريا خاصة .

كانت عملية فتح مصر تكاد تكون ـ (الى جانب ضغط رؤساء القبائل الراغبين في الحصول على نصيب من عائدات الفتوحات) ـ عملية اضطرارية لحماية بلاد الشام . وهنا يجدر بنا ان ننبه الى تجربة معاوية كوال للشام حيث لا شك وانه فكر ـ وكذلك الشاميون الذين اصبحوا معنيين بالتوسع العربي الاسلامي ـ في حماية الشام من الخطر البيزنطي المتمثل في جبهتين : الجبهة البرية التي كان يمكن التصدي اليها بذلك التنظيم المحكم الذي ارساه معاوية الذي حرص على تنظيم هجرة القبائل وعلى اقرار قدر ادنى من انسجامها . اما الجبهة البحرية وقواعدها المعادية فهي تتمثل في مصر وخاصة الاسكندرية من جهة وفي جزر الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط وخاصة منها قبرص التي كانت عبارة عن مدفع تقابل فوهته بلاد الشام .

هذه الاعتبارات عمقت في راينا لتصبح رؤية استراتيجية واسعة وتطورت لتفضي الى سياسة بحرية من جهة والى اعتبار مصر منطلق جبهة جديدة ستكون هامة جدا في مجابهة بيزنطة ومحاولة اضعافها ، في فترة اصبح من الواضح لدى العرب المسلمين بان بيزنطة هي العدو الرئيسي واصبح من الواضح كذلك ان الصراع معها لايمكن ان يكون حدوديا بل يجب ان يصبح استراتيجية جغرافية سياسية . وهذا ينم على وعي كبير من طرف القادة العرب المسلمين ، لا سيما وان الجبهة الشرقية البرية للصراع مع بيزنطة كانت جبهة صعبة جدا اذ تمتاز فيها بيزنطة بالتمتع بحاجز دفاعي طبيعي في جبال الطوروس ومضايقها الخطرة .

فاختيار الجبهة المصرية الغربية ـ خاصة وان مصر فتحت بسرعة مذهلة في مدة ثلاث سنوات ، اختيار مصيب ومنطقي وحيوي في آن واحد(٦) ، اذا تذكرنا ان البيزنطيين نجحوا في استرداد الاسكندرية بعد سنوات قليلة من استيلاء العرب

المسلمين عليها ، واضطر هؤلاء الى عملية جديدة اقتضتهم باسترسال المجابهة ، خاصة من الزاوية البحرية .

ومن هذا المنطلق نفهم كيف استغل العرب المسلمون قدراتهم الذاتية لتذليل صعوبات الصحراء الغربية والتمركز بمنطقة برقة في وقت مبكر منذ اواخر عهد عمر واتخاذها قاعدة للقيام بغارات استطلاعية غربا نحو طرابلس (التي احتلت سنة ٦٤٣/٢٤) ونحو ما يسميه المؤرخون القدامى باطراف افريقية وللقيام باستطلاعات اخرى نحو الجنوب الى صحراء ليبيا وواحاتها والى الفزان كذلك فكانت برقة رأس خط هجومي سوف يكتمل بالاستيلاء على جزيرتي رودس واقريطش. فخلافة عثمان دعمت بوادر هذه السياسة ووسعت آفاقها ومكنتها من الوسائل الكفيلة بانجاحها .

أ . **عبد الله بن سعد بن ابي سرح** : ومن الجدير بالتنويه ان المصادر تكاد تجمع على أن عثمان اخذ راي الصحابة قبل أن ينظم اول حملة ضد افريقية مما يعني انه كان يعتبر نفسه مقدماعلى اختيار سياسي هام جدا . وكان عثمان قد عزل عمرو ابن العاص عن مصر سنة ٦٤٦/٢٥ وعوضه باخيه للرضاعة عبد الله بن سعد بن ابي سرح الذي كان اليه الصعيد منذ عهد عمرو فكان هذا الاجراء مشيرا بالهجوم على افريقية كجزء من محاولة تجاوز الجنب البحري الايمن لبيزنطة .

وعبد الله هذا من بني عامر بن لؤي فهو قرشي عامري وامه اشعرية ارضعت عثمانا والمعروف عنه انه اسلم قبل فتح مكة وهاجر الى المدينة . لكنه كما تقول المصادر (افتتن وارتد) فكاد يقتل بعد فتح مكة ولعل ما حماه من القتل مكانة عشيرته .

وشارك عبد الله في فتح الشام وصاحب عمرو بن العاص الى مصر قائدا على ميمنته وكان عمرو يرسله الى اطراف افريقية غازيا (٧) .

فلم يكن اذن غريبا عن ابعاد المهمة الجديدة الموكلة اليه والتي سيصحبه فيها عدد هام من الصحابة فعرفت غزوته هذه بغزوة العبادلة السبعة (٨).

وكانت القوات المشاركة فيها تتألف من عشرين الف مقاتل وانطلقت سنة ٢٦ للهجرة ، فلما وصلت الى برقة تلقاها عقبة بن نافع الذي كان حاميه هناك وتضافرت القوات للهجوم على طرابلس ثم دخلت افريقية وكان انتصار سبيطلة على جرجير الذي ارسل عبد الله على اثره قوات الى قفصة والجم . ودامت الغزوة حسب ما تقول المصادر سنة وربع السنة. وبعد هذه الغزوة(٩) شارك عبد الله بن سعد سنة ٦٤٩/٢٨ في عملية منسقة بين الشام ومصر ضد قبرص لجعلها الطرف المقابل والمكمل للاسكندرية كخطوة لمخطط ارساء خط بحري ضد البيزنطيين . وفي سنة ٣١ للهجرة ، فلما وصلت الى برقة تلقاها عقبة بن نافع الذي كان حامية هناك وتضافرت نافع الذي ارسله عمرو بن العاص هناك .

فعبد الله بن سعد اذن قائد كامل الكفاءات ملم بالمستلزمات الاستراتيجية ويحق ان يعتبر عديل معاوية في ارساء السياسة الاسلامية البحرية الجديدة فنحن نجده بذات الصواري سنة ٦٥٥/٣٤ وتقول بعض المصادر ان عبد الله بن سعد كر ثانية على افريقية سنة ٦٥٤/٣٣ .

ب ـ معاويــة بن حديج : ومن اهم قادة الفتح الاسلامي لافريقية بعد عبد الله ابن سعد شخصية لاتقل اهمية عن هذا الاخير نعني بهذه الشخصية معاوية بن حديج السكوني الكندي ومعاوية هذا شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص وهو الذي حمل الى عمر بن الخطاب نبأ الاستيلاء على الاسكندرية ـ وشارك معاوية كذلك في عمليات النوبة تحت لواء عبد الله بن سعد بن ابي سرح حيث ذهبت عينه في احدى الوقائع وشارك كذلك في العمليات العسكرية ضد افريقية .

فهذا الرجل الذي يمتاز بتجربة فائقة على الجبهة الغربية هو الذي وقع عليه اختيار معاوية بن ابي سفيان لقيادة الغزوة المهمة الثانية ضد افريقية سنة ٦٦٥/٧٤ فغزاها على راس جيش يعد عشرة آلاف مقاتل ويضم جماعة من الصحابة والتابعين من بينهم عبد الملك بن مروان . فانتصر على البيزنطيين(١٠) ، واستولى على قلعة جلولاء التي كانت على ما يظهر من قلاع الخط البيزنطي الدفاعي الثاني واستولى على الجم وبعث عبد الله بن الزبير الى سوسة فاستولى عليها وبعث بحرا رويفع بن ثابت الانصاري الى جربة فاحتلها . واستقر هو بجبل القرن قرب الموقع المقبل للقيروان وجعل منه مركز القيادة مدة ثلاث سنوات ، (١١) وقام فيه ببعض التجهيزات .

ومما يلاحظ ان معاوية بن حديج هذا أول من قام بعمليات بحرية ضد صقلية وذلك سنة ٦٥٦/٣٦ راس عليها عبد الله بن فنيس ، ومعاوية بن حديج هو كذلك الذي اغزى عقبة بن نافع بحرا باهل مصر ضد الروم(١٢) .

ولا ننسى اخيرا ان معاوية بن حديج كان رئيس الشق الاموي بمصر زمن الفتنة فولاه معاوية مصر سنة ٦٦٥/٤٧ خلفا لعبد الله بن عمرو بن العاص .

ج ـ عقبة بن نافع : ثالث شخصيات الفتح العربي الاسلامي لافريقية ـ وهو اشهرهم ـ هو عقبة بن نافع الفهري القرشي . ولدينا روايتان في شان والده نافع فالاولى تقول بانه مات مشركا وذلك قبل فتح مكة(١٣)، والثانية مفادها انه اسلم وكان مع عمرو بن العاص في فتح مصر وبعثه عمرو الى غزو برقة .

وهناك روايات مختلفة حول علاقات عقبة النسبية بعمرو بن العاص ، فابن حزم

يجعل منه اخا لعمرو لامه(١٤) ، ورواية اخرى تجعل منه ابن خالة لعمرو (١٥) ورواية ثالثة تجعل من‌عمروخالالعقبة (١٦) وراوية رابعة تجعل من عقبة ابـن اخ للعاص ابن‌وائل السهمي (١٧) فعقبة حسب كل هذه الروايات من اقارب عمرو . وقد شهد فتح مصر معه سنة ١٩ و ٢٠ للهجرة ، وقاد جيشا استولى على زويلة بالصحراء الغربية سنة ٢٠ و ٢٢ للهجرة . وهـو ينتمي الى عشيرة فهـر التـي اشتهرت بكفاءاتها العسكرية .

وفي سنة ٢٢ للهجرة بعثه عمرو غازيا الى النوبة ثم اقره بعد ذلك حامية لبرقة وقد اشرنا الى مشاركته من مركزه ببرقة في غزوة عبد الله بن سعد بن ابي سـرح لافريقية .

وفي سنة ٤١ للهجرة قام عقبة بامر من عمرو بن العاص بغزوات هامة جـدا في صحراء ليبيا وواحاتها فاخضع قبائل لواته وهورة البربرية واستولى على غدامس سنة ٤٢ للهجرة ، وافتتح كورا مـن السودان سنة ٤٣ للهجرة وافتتح ودان سنة ٤٦ للهجرة ثم جرمة ثم الفزان مكسبا التمهيد لفتح افريقية عمقا استراتيجيا في غاية الاهمية ستظهر فعالياته عند حملة عقبة في منتصف القرن الاول .

ولا ننسى ان نشير اخيرا الى أن المصادر تشير الى ان عقبة غزا الروم بحريا مرتين على الاقل وذلك في سنتي ٣٩ و ٤٩ للهجرة .

ثالثا ــ اهمية الجبهة الغربية في الفتوحات الاسلامية

لم نستعرض فترات فتح العرب المسلمين لافريقية لذاتها ولم نذكر قادة هذا الفتح لذاتهم ولكن حاولنا ان نبرز من خلال هذا الاستعراض السريع ــ بعـد رسم الملامح العامة للفتح كحدث ضخمـان عمليات الفتح لم تكن عرضية وانما كانت‌جزءا من استراتيجية محكمة نستطيع تلمسها منذ اخر عهد عمر حيث قطعت خطوة فتح مصر ثم برزت واضحة في عهد عثمان(١٨) ثم تعمقت وتاكدت في عهد معاوية وكسبت الارادة السياسية المدعمة لها .

فاذا انتبهنا الى هذا المخطط الاستراتيجي اصبحت التعثرات واختيار الظروف الملائمة وابدال القواد بالعزل والتعويض باشياء ثانوية . ويتضح لنا هذا المخطط اذا اعتبرنا المدى المتوسط فحسب والذي يتمثل في بعض التواريخ التي ترسم لنا عناصر المخطط فلنتذكر ان الاسكندرية استعادهاالبيزنطيون سنة ٦٤٥ واستردها ثانية

وبسرعة العرب المسلمون ثم استولوا على قبرص فامنوا خطا بحريا اولا يحمي بلاد الشام اكثر من كونه خط هجوم الى الغرب . وفي مرحلة لاحقة وقع ارساء خط ثان يتكون من جزيرة رودس (سنة ٥٢ / ٦٧٢) التي احتلت في اعقاب تأسيس القيروان وجزيرة اقريطش ٥٤ / ٦٧٤ فصارت هاتان الجزيرتان مكملتان لموقع برقة . واخيرا نذكر المحاولات المبكرة ضد صقلية لاثبات خط ثالث (صقلية ـ افريقية) .

فهذه هي الملامح الاساسية للسياسة الجديدة ذات البعد البحري والتي كان مؤسسها الحقيقي معاوية بن ابي سفيان وشاركه في بلورتها عبد الله بن سعد بن ابي سرح . وقد بدأت هذه السياسة تعطي ثمارها منذ ذات السواري سنة ٦٤٩ التي تبعتها غارات ضد صقلية(١٩) حيث كان للبيزنطيين مركز ثقل هام جدا(٢٠) .

ونلاحظ من ناحية اخرى ان قادة ومحركي فتح افريقية كلهم من ارستقراطية مكية قرشية ومن مجموعة عمرو بن العاص وهم يمتازون بتجربة ثلاثية : تجربة مصرية وتجربة صحراوية (النوبة وواحات الصحراء الغربية والليبية) وتجربة بحرية .

وتافت نظرنا التجربة التي اسميناها بالصحراوية والتي لم يتسع المجال لتناولها بشيء من التوسع . هذا البعد لعمليات الفتح على الجبهة الغربية يتطلب دراسة خاصة على ضوء البحوث الجديدة في تاريخ افريقيا السوداء وعلاقات مصر وافريقية بها . وهذه البحوث تنبهنا من جديد ان المغرب العربي ليس مجرد طفوف على شواطىء البحر الابيض المتوسط بل له ابعاد اخرى عميقة الى الجنوب ، والى ذلك البحر الاخر اي الصحراء الكبرى .

اهمل المؤرخون البعد الصحراوي للفتوحات على الجبهة الغربية وعزوا ذلك الى الطبيعة العربية البدوية والى ركون العرب الى مناخات معهودة بالنسبة اليهم الى غير ذلك من المتاهات ناسين او متناسين ان الشخصيات المأطرة للعرب كانت لها تجارب وكفاءات ذات ابعاد متعددة وتفوق بكثير آفاق العربي البدوي العادي البسيط .

هذه الابعاد الصحراوية كانت لها مبررات استراتيجية عسكرية طبعا ولكن اهم دوافعها دوافع اقتصادية اذ نلاحظ ان العرب المسلمين الفاتحين كانت لهم عناية خاصة بالصحراء وواحاتها في الجبهة الغربية .

ولم تكن تهمهم الواحات وحدها او لذاتها وانما دور تلك الواحة كعمق استراتيجي يطوق البلاد التي يخطط لفتحها وكذلك دورها في المسالك التجارية مع افريقيا جنوب الصحراء وسيتضح هذا البعد الخطير فيما بعد عندما نلاحظ ان

السيطرة العربية الاسلامية على الساحة يختلف عن التصورات السابقة ، تصورات الرومان والبيزنطيين مثلا .

هكذا تتضح لنا اهمية الجبهة الغربية التي تكون افريقية حلقة مهمة فيها . فلا غرابة اذن ان تكون من بين اولى مبادرات عبد الملك بن مروان ، بعد فراغه من امر عبد الله بن الزبير، ان بعث بحسان بن النعمان الى افريقية على راس جيش ضخم ، بالمقارنة الى ما سبقه من القوات ، راسما له مهمة اساسية وهي تأسيس قاعدة بحرية بتونس . ولا غرابة كذلك ان تتجدد الحملات ضد القسطنطينية بعد تركيز هذه السياسية حوالي سنة ٦٧٣ بعد الميلاد .

هكذا يتضح ان فتح افريقية من طرف العرب المسلمين يندرج ضمن مخطط ضخم هدفه الاستراتيجي .

- حماية الشام ثم مصر .
- تجاوز الجنب البحري الايمن لبيزنطة .
- السيطرة على الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط لحصر المجابهة من الاطراف الشمالية للحوض الشرقي منه وحول اسيا الصغرى والقسطنطينيةبالذات .

فامام هذه الاعتبارات تظهر جليا سخافة الاساطير المتعلقة بخوف العرب من البحر ومن المسافات البعيدة والمتعلقة بتفضيلهم الطرق الصحراوية لانهم كبدو معتادون مثل هذه الطرق الى غير ذلك من المتاهات .

فما تصرف العرب المسلمين الفاتحين الا التزاما بتخطيطات دقيقة تقتضد الزمن والوسائل وتستغل القدرات الخاصة .

واذا لم نسلم بهذه الرؤية فليس لنا اختيار ثان الا ان نبقى اسرى تلك النظرة القائلة بأن العرب المسلمين اندفعوا تعصبا ورغبة في الغنيمة فقط .

كان الحافز الديني والحماس المتاتي عنه عنصرين هامين جدا في الهبة العربية الاسلامية وكانت الغنائم عنصرا مرغبا كذلك ولكن فوق كل هذه الدوافع كانت الرؤية الاستراتيجية والعزيمة السياسية اهم العوامل لا للفتح فحسب بل وكذلك في نجاحه.

(١) انظر فرنسيس رود ، الكاهنة ملكة البربر .

(٢) انظر عنه (مجلة معهد الدراسات الشرقية) (A.I.E.D) ، عدد VI (١٩٤٥–٤٧) ص ١٠٨–١٥٥ .

(٣) انظر عنه Melanges GAUDEFROY — DEMOMBYNES القاهرة 1935 — 1945 , ص 52. — 151

(٤) انظر عنه : تاريخ اسبانيا الاسلامية لليفي بروفنسال (Levy — Provençal)

(٥) انظرعنه ليفي بروفنسال Levy Provençal في مجلة اربيكا (Arabica) ، المجلدالاول (سنة 1954)

(٦) انظر دراسة هشام جعيط عن ولاية افريقية وتاكيده على اهمية علاقتها مع مصر مدة طويلة : مجلة (ستوديا اسلميكا) (Studia Islamica) مجلة عـــدد 27 .

(٧) انظر ابن الاثير والطبري والمالكي صاحب رياض النفوس ، الجزء الاول ، ص : 44

(٨) عبد الله بن عباس عبد الله بن عمر ، عبد الله بن الزبير ، عبد الله بنجعفر ... وانظر فتح البلدان للبلاذري ، 226, والطبري ، ١ ، ص : 2814 و 18, — 2817 وفتوح مصر لابن عبد الحكم ، 183

(٩) انظر ابن عبد الحكم والبلاذري وابن الاثير وابن خلدون .

(١٠) يقال بان معاوية بن أبي سفيان نظم هذه الحملة على اثر نصيحة قائد بيزنطي اسمه (جناديوس) (Gennadius) وهذا يدل على شيئين اثنين اهتمام معاوية بالموضوع وامكانية وجود نشاط مخابرات اسلامية في الاقاليم البيزنطية بما فيها البعيدة منها .

(١١) انظررياض النفوس ومعالم الايمان لابن ناجي والخلاصة النقية للباجي المسعودي .

(١٢) البيان المغرب ، دار الثقافة بيروت الجزء الاول ص : 19

(١٣) انظر الاصابة لابن حجر العسقلاني .

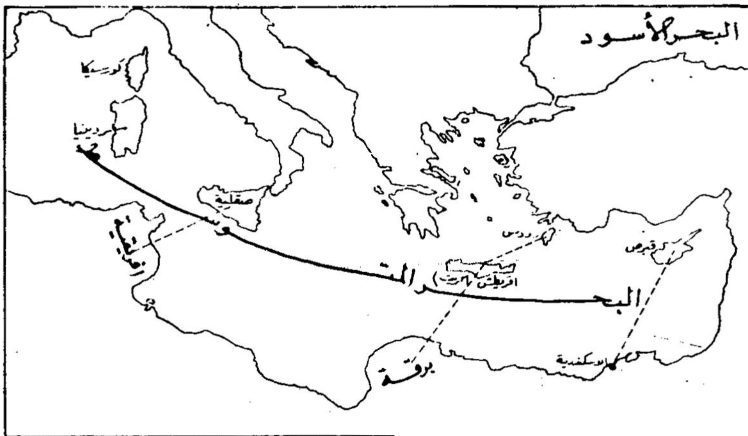
(١٤) الجمهرةص : 163

(١٥) المغرب في ... المغرب لابن سعيد واسد الغابة لابن الاثير والاستيعاب لابن عبد البر .

(١٦) الاصابة لابنحجر

(١٧) سير اعلام النبلاء للذهبي .

(١٨) منذ سنة 651 صارت العمليات البحرية أساسية في سياسة التوسع العربي الاسلامي .



شكل تقريبي لخطوط المجابهة مع بيزنطة

(١٩) اليك شكل تقريبي لخطوط المجابهة البحرية ضد بيزنطة

(وانظر خارطة للحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط وجزره وشواطئه) .

(٢٠) بعد اغتيال الامبراطور قسطنطين ، واجه خليفته قسطنطين بوجونا (Constantin Pogonat) امبراطورا منازعا بصقلية .

الوقف

ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية

في الجزائر

في أواخر العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي

د . ناصر الدين سعيدوني

معهد العلوم الاجتماعية ـ جامعة الجزائر

تعريف الوقف وتحديد احكامه :

ظلت الاوقاف ، او الاحباس كما تعرف في اقطار المغرب العربي ، باعتبارها تقليدا اسلامياعريقا ، تشكل احدى مظاهر الحضارة العربية الاسلامية التي تميز بها العهد العثماني بالجزائر ، وتأثرت بها اوضاع البلاد الجزائرية اثر تعرضها للغزو الفرنسي عام ١٨٣٠ م ، بحيث لا يمكن لاي مؤرخ او باحث التقليل من اهمية قضايا الوقف او اهمال النتائج المترتبة عليه . وهذا ما دفعني الى تناول مكانة الوقف في الجزائر كما شجعني على التعرف على اثاره في مختلف اوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية أو الثقافية وحتى السياسية منها . وحتى نأخذ فكرة واضحة عن اوضاع الوقف بالجزائر اواخر العهد العثماني واوائل الاحتلال الفرنسي يجدر بنا ان نشير في مستهل هذا البحث الى طبيعة الاحكام الشرعية للوقف وما تميزت به من احكام خاصة ومعاملات محددة . فالوقف باعتباره(*) عقدا لعمل خيري ذي صبغة دينية(١) يقوم على توفر الواقف الذي له اهلية التبرع(٢) بما يملك من ذات او منفعة ، وعلى وجود الموقوف وهو المنفعة التي تصرف على سبيل الحبس ، فضلا عن توفر الموقوف عليه وهو المستحق لصرف تلك الذات او المنفعة ، ولو كان مصلحة عامة كالمسجد والزاوية وغيرها، هذا مع اشتراط صيغة الوقف ولو كانت بكتابة على مسجد او مؤسسة خيرية .

اعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦ ـ ٢٢ جمادي الاخرة ١٤٠١هـ / ٢٠ ـ ٢٦ نيسان ١٩٨١م .

(*) الوقف من تصرفات الارادة المنفردة وليس عقدا لعدم حاجته الى قبول .

فبفضل هذه الاسس والاركان كما نعرف فقهيا يأخذ الوقف مفهومه الشرعي ويصنف حسب الغرض من صرف المنافع المترتبة عليه ، فمنه ما هو وقف عام يعود اساسا على المصلحة العامة التي حبس من اجلها ، ومنه ماهو وقف خاص لا يتحول صرف منفعته على المصلحة العامة التي حبس على اساسها الا بعد انقراض العقب او انقطاع نسل صاحب الحبس ، اي الواقف ، وهذا الصنف الاخير من الوقف يعرف بالوقف الذري او العائلي او الاهلي ، وهو الشائع في اغلب اقاليم الامبراطورية العثمانية ومن ضمنها الايالة الجزائرية ، وهو غير الوقف الخيري الذي سبقت الاشارة اليه وقد نتج عن هذا التنوع في الوقف تباين نظرة كل من المذهب الحنفي والمذهب المالكي الى الهدف والغاية من صرف الحبس ، فالمذهب المالكي الذي يتمسك به غالبية الجزائريين كان يرى ضرورة صرف الحبس على المصلحة العامة التي حبس من اجلها مباشرة بدون قيد او ارجاء او تردد ، بينما المذهب الحنفي الذي تتميز به الطائفة التركية وجماعة الكراغلة وبعض الحضر بالمدن الكبرى في الجزائر كان يسمح بجواز انتفاع الواقف وعقبه بما حبسه من وقف بحيث لا يعود الوقف الى الغاية التي حبس من اجلها الا بعد انتفاء الورثة المنصوص عليهم في وثيقة الحبس . وعلى كل فان التسهيلات التي يقرها المذهب الحنفي دفعت غالبية الجزائريين الى تحبيس املاكهم حسب احكام المذهب الحنفي حتى يتمكنوا من الانتفاع بها ، هم وعقبهم من بعدهم ، مع كونهم من اتباع المذهب المالكي . وهذا ما تؤكده اغلب الوثائق الشرعية الخاصة بالوقوف التي تعود الى العهد العثماني(٣) . والتي نجد في بعضها فتاوى شرعية تشير الى موقف كل من المذهب المالكي والحنفي من قضية الوقف قبل الاخذ براي ابي يوسف الذي يجيز الوقف الاهلي(٤) . وهذا ما دفع حمدان خوجة الى القول في كتابه «المرآة»: ان الفقهاء بالجزائر قد اجمعوا على العمل بمقتضى المذهب الحنفي الذي يجيز حبس الهبات المشروطة وذلك ليكثروا من مردود الهدايا لصالح الفقراء(٥) .

اما كيفية الانتفاع بالحبس واستغلاله لفائدة العقب اذا كان وقفا أهليا ، او لمصلحة الغرض الذي حبس من اجله في حالة ما اذا كان الوقف خيريا ، فتراعى فيه الاحكام الشرعية التي ترى في صيغة الوقف صفة اللزوم والديمومة Inaliénabilité بحيث لا يمكن التراجع فيه ، او الغاؤه او تحويله الى منفعة اخرى غير التي حبس من أجلها . فلهذا لا تجيز الاحكام الشرعية بيعه أو اعارته أو رهنه . وقد نص على ذلك أبو حنيفة(*) وصاحباه ابو يوسف ومحمد وعامة العلماء (٦) ، بأن الوقف عقد مؤبد لا يمكن تحويله من الغرض المحبس عليه ، أو هذا ما نص عليه ابن عرفة بقوله : « الحبس اعطاء منفعة شيء مدة وجوده لازما بقاؤه في ملك معطيه ولو تقديرا »(٧) . وقد استثنى العلماء عند الضرورة كراء الحبس أو استبداله . فيسمح

(*) في مذهب ابي حنيفة لا يكون الوقف لازما للواقف وله الرجوع عنه في كل وقت .

باستبدال الحبس في حالة توقع فساده او ضياعه او انقطاع مردوده او عجز مستغله عن اصلاحه وترميمه ما لم يكن مسجدا ، وقد اشار الى ذلك صاحب التنوير بأنه : (يجوزشرط الاستبدال به ارضا اخرى .. فاذا فعل صارت الثانية كالاولى في شرائطها وان لم يذكرها)(٨) كما يسمح بكرائه كراء مؤبدا لضمان مردوده والمحافظة عليه ، وفي هذه الحالة يصبح كل ما يستخدمه متولي الكراء من بناء وغرس ملكا شخصيا له شريطة ان يلتزم بخدمته وصيانته وبذلك تراعى مصالح متولي الكراء ويحافظ في نفس الوقت على وضعية الوقف وتحترم وصية صاحب الحبس والغرض الذي حبس من اجله وهذا ما يسمح لنا ان نصف الوقف بأنه ملكية انتفاع وليس امتلاك عين حيث ان المحبس له ليس له سوى حق التمتع بفوائد الحبس وتعرف عملية كراء الحبس التي قد تكون مؤبدة او محددة بعدد من السنين قد تبلغ في كثير من الاحيان التسعين سنة(٩) بالعناء لدى اهالي الجزائر وبالانزال في ايالة تونس او التحكير في اقاليم المشرق العربي . ومما يلاحظ ان عملية استبدال الحبس او كرائه لا يمكن ان تتم الا بعد تزكيتها من وكيل الوقف اذا كان الوقف خيريا او متولي الوقف اذا كان الوقف اهليا ، وبعد استشارة اهل الراي والمشورة في البلد وبعد اقرار صريح من المجلس العلمي الذي كان ينعقد في الجامع الكبير في كل الحواضر الكبرى مرة كل اسبوع . هذا ولا يسجل عقد الكراء او الاستبدال الا بعد وضع الحبس في المزاد العلني لتقدير مقدار العناء (الكراء) المتوجب عليه وذلك حتى لا تتخذ عملية الاستبدال او الكراء مطية لابطال الحبس او الغائه او تحويله عن غرضه ، لا سيما وان كثيرا من الاحباس تحولت عن اغراضها بعامل الزمن الى ملكيات خاصة وهذا ما تفطن له الفقهاء اذ اشار شارح الدر المنتقى الى ذلك بقوله : (ونحن لانفتي به وقد شاهدنا في الاستبدال من الفساد ما لا يعد ولا يحصى ، فان ظلمة القضاة جعلوه حيلة الى ابطال اكثر اوقاف المسلمين) (١٠) ومما يلاحظ ان متولي الحبس لا يلزم الا بدفع نصف الكراء اذا تعهد باصلاح الحبس وترميمه ، ونصف الكراء المتبقى عليه يسدد نفقات الاصلاح .ولهذا بعد ان يستوفي صاحب العناء ما صرفه عن الحبس يصبح بعد ذلك ملزما بدفع الكراء كاملا ، والجدير بالذكر ان هذه العملية لا تتم الا بعد ان يتحقق وكيل الحبس من ضرورة هذا الترميم ويقر فائدته ويستشير عادة شيخ البنائين في ذلك . اما اذا تهدم الحبس ولم يعد بناؤه او اهمل تماما فان الارض التي كان مقاما عليها تعتبر حبسا لاتباع ولا تشترى وانما يحدد لها عناء مؤبد محافظة على احكام الوقف واحتراما لطبيعته .

وضعية الحبس بالجزائر في اواخر العهد العثماني :

بعد هذه النبذة المقتضبة عن احكام الوقف الشرعية نتطرق الى وضعية الوقف

بالجزائر في اواخر العهد العثماني واوائل الفترة الاستعمارية هذه الوضعية التي اتصفت باوضاع خاصة واحوال مميزة نجملها في النقاط التالية :

١ ـ **يعتبر الوقف في حد ذاته ظاهرة اجتماعية اسلامية عرفتها الجزائر في الفترة الاسلامية** التي سبقت مجيء الاتراك واستحواذهم على مقاليد الامور . غير اننا لا نملك الآن الا النزر القليل من الوثائق التي تعود الى تلك الفترة ، وخاصة تلك التي تهم القطاع القسنطيني اواخر العهد الحفصي ، والجهات الغربية من الجزائر تحت حكم الزيانيين ، وهي في اغلبها تعود الى القرن الخامس عشر الميلادي ، مثل الوثيقة التي تسجل اوقاف مسجد ومدرسة سيدي ابي مدين بتلمسان والتي ترجع تاريخها الى عام ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م ، والتي توزع اوقاف ابي مدين على الوجه التالي ٩ بساتين و ٤ مزارع وقطعتا ارض وطاحونتان ٢ وحمام واحد داخل تلمسان ونصف الحمام القديم بالمنصورة بالاضافة الى نصف بستان وقطعة ارض للحراثة تقدر مساحتها بعشر زويجات (١٠٠ هكتار) وارض صالحة للزراعة تقدر مساحتها بعشرين زويجة (٢٠٠ هكتار)(١١). كما ان اقدم وثائق اوقاف الجامع الاعظم بالجزائر العاصمة لا تتجاوز عام ٩٤٦ / ١٥٤٠(١٢) .

٢ ـ **تميزت الفترة العثمانية بالجزائر بتكاثر الاوقاف وانتشارها في مختلف انحاء البلاد** ، وذلك بفعل الظروف التي عرفتها الجزائر منذ اواخر القرن ١٥ ـ وحتى مستهل القرن ١٩م ، والتي اتصفت اساسا بازدياد نفوذ الطرق والزوايا وتعمق الروح الدينية لدى السكان الذين وجدوا فيها احسن وسيلة وخير عزاء امام مظالم الحاكم وانعدام الامن وهجمات الاساطيل الاوروبية على السواحل ، وتكرر الكوارث الطبيعة فضلا عن الحكام الاتراك الذين راوا في الرابطة الدينية عاملا قويا مكنهم من بسط نفوذهم وتدعيم مكانتهم لدى الاهالي ، الامر الذي دفعهم في كثير من الاحيان الى تحبيس املاكهم اظهارا للورع والتقوى وتقربا للمرابطين واكتسابا لتاييد رجال الدين فعلى سبيل المثال نذكر ان الباي حسين بن صالح عام ١٢٢١ / ١٨٠٧ ، عندما خرج في احدى حملاته العسكرية اخذ على نفسه نذرا يتعهد فيه (ببناء دار الولي سيدي علي العريان والسيد محمد بن سيدي سعيد واصلاح مسجده وتحسين اوقاف يستعين بها على رعاية الطلبة والغرباء وابناء السبيل)(١٣) ، وذلك حتى يكسب تاييد السكان المحليين ويضمن معاضدتهم له في حملته العسكرية على الجهات الشرقية من بايليك قسنطينة . ومما يلاحظ ان الاوقاف ما لبثت أن تزايدت في اواخر العهد العثماني حتى اصبحت تشكل نسبة كبيرة من الممتلكات الزراعية والحضرية منذ أواخر القرن ١٨ ، وهذا ما تؤكده لنا سجلات الاوقاف ووثائق المحاكم

الشرعية . واحسن دليل على هذا التطور الذي عرفته الاوقاف في الجزائر العثمانية ، نستخلصه من وضعية اوقاف سيدي عبد الرحمن الثعالبي التي لم تتجاوز منذ اواخر القرن ١٥ وحتى بداية القرن ١٨ احد عشر وقفا ثم ما لبثت ان تزايدت بعد ان اكتسب صاحبها شعبية وصيتا في اوساط الاهالي منذ اواخر القرن ١٨ حتى اصبحت عشية الاحتلال الفرنسي يناهز عدد اوقافها ٨٢ وقفا(١٤) . والتطور نفسه عرفته كثير من اوقاف المؤسسات الدينية مثل اوقاف الجامع الاعظم بالجزائر العاصمة التي لم تتجاوز ١٥٩ عقداً خلال ٢١٠ سنوات (١٥٤٠ – ١٧٥٠) ثم ما لبثت ان تزايدت منذ منتصف القرن ١٨ حتى اصبحت سنة ١٨٤١ (٥٤٣) أي بزيادة (٣٨٤) عقداً خلال الفترة الممتدة من ١٧٥٢ – ١٨٤١ م (١٥) .

٣ – اصبح الوقف بالجزائر بعد انتشاره وتكاثره في اواخر العهد العثماني مؤثرا على مختلف اوجه الحياة ، بحيث اصبحت الاوقاف تشتمل على الاملاح العقارية والاراضي الزراعية وتضم العديد من الدكاكين والفنادق وافران الخبز والعيون والسواقي والحنايا والصهاريج والطواحين وافران معالجة الجير ، هذا بالاضافةالى الكثير من الضيعات والمزارع والبساتين والحدائق ، حتى ان القنصل الفرنسي فاليير الذي تعرف على الجزائر على ١٧٨١ اكد على (ان مؤسسة اوقاف الحرمين الشريفين تمتلك جل مساكن مدينة الجزائر واغلب البساتين المجاورة لها(١٦) . ولم يقتصر أمر انتشار الحبس على مدينة الجزائر وضواحيها بل شمل اغلب جهات البلاد الجزائرية بحيث اشتهرت كثيراً من المدن والفحوص بكثـرة اوقافها مثل مازونـة وتلمسان ومعسكر وقسنطينة وعنابة وبجاية والمدية ومليانة والبليدة والقليعة ففي مدينة قسنطينة وضواحيها كان عدد الاملاك المحبسة تزيد على (١٧٠) وقفا منها (٤٠) رحى واقعة على وادي الرمال ، والباقي املاك مختلفة وبساتين واراض زراعية (١٧).

٤ – لم تعرف الاوقاف بالجزائر العثمانية تنظيما محكما واشرافا فعالا الا فيفترة متاخرة نسبيا تعود الى اوائل القرن –١٨– ، وهذا ما تؤكده كثير من الاشارات الواردة ضمن وثائق الوقف . مثل الوثيقة(*) التي تسجل الاوقاف بمدينة قسنطينة وتتعرض للاوضاع المتردية التي كانت عليها والمبادرة التي قام بها صالح باي من اجل ضبطها وتسجيل مردودها في عدة دفاتر تتوزع بين الموظفين والمكلفين برعايتها ، وهم ناظر بيت المال وشيوخ البلد والقاضي الحنفي والقاضي المالكي وحسب ما يفهم من هذه الوثيقة المؤرخة في اواسط ربيع الاول عام ١١٩٠هـ افريل عام ١٧٧٦م ، ان الهدف من هذه التنظيمات التي خضعت لها الاوقاف كان الغرض منه وضع حـد للتهاون

(*) هذا التنظيم خاص بالاوقاف الخيرية دون الاهلية كما هو واضح في الوثيقة .

والتحايل على الاوقاف ، وان العملية انتهت الى وضع احصاء دقيق محكم وهـذا ماتنص عليه الوثيقة في الفقرات التالية : (الحمد لله ولما وقع التقصير من وكلاء مساجد قسنطينة ولم يكن لهم اعتناء بشان الاوقاف وفرطوا في ذلك غاية التفريط وضاع الكثير منها .. وبلغ امر ذلك لحضرة المعظم الاسعد المنصور .. سيدنا صالح باي ايده الله تعالى . فالهمه الله الى احياء ما اندرس من المساجد والاوقاف .. امر حينئذ قضاته والمفتين ان يبحثوا عن اوقاف المساجد وعن المساجد التي دثرت ويثبتوا ذلك بأربعة سجلات متماثلة فامتثلوا امره وبلغوا جهدهم في البحث عن اوقاف المساجد وعن المساجد التي دثرت)(١٨) .

هـ ـ اتخذت تنظيمات الاوقاف شكل ادارة محلية مميزة وجهاز اداري مستقل محدد الصلاحيات يتميز بمهارة المشرفين عليه وكفاءة القائمين به(١٩) فرغم ان العديد من موظفي الاوقاف كانوا يخضعون مباشرة للسلطة الحاكمة بعد ان يعينون بأمر من الباشا (الحاكم) ، وباقرار منه بعد تزكيتهم من طرف اعضاء الديوان وكبار الموظفين(٢٠) فان التصرف في شؤون الاوقاف واتخاذ الاجراءات العملية المتعلقة بها كان يعود الى المجلس العلمي الذي ينعقد للبت فيها عادة كل يوم خميس من كل اسبوع في الجامع الكبير ، بحضور المفتي المالكي والحنفي والقاضي المالكي والحنفي ، وبعض الموظفين الآخرين كوكيل بيت المال وشيخ البلد . وللمجلس العلمي صلاحيات مطلقة في التصرف في شؤون الاوقاف ومراقبة الموظفين القائمين عليها ، كالشيخ الناظر وجماعة الوكلاء والكتاب (الخواجات) والاعوان والشواش والحزابة (٢١) (الطلبة الذين يقرأون القرآن بالمسجد) .

ويعتبر الشيخ الناظر او المتولي او الوكيل العام كما تعرفه بعض المصادر ،(٢٢) الموظف الرئيسي بمصلحة الاوقاف فهو يكلف بالاشراف على اوجه الانفاق وحفظ مصادر الاوقاف ، ومراقبة دفاتر الحسابات الخاصة بالمؤسسة التي تقع تحت رعايته مباشرة . ويأتي في درجة ثانية من حيث السلم الاداري لموظفي الاوقاف وكلاء المدن الكبرى والاحياء الرئيسية بمدينة الجزائر ، فهم مكلفون بجمع المحاصيل وقبض المداخيل وصرف المرتبات وصيانة الحبس وتقديم حساب مفصل عن ذلك لناظر الاوقاف كل ستة اشهر على ماتحت ايديهم من املاك محبسة ، كما كانوا ملزمين ايضا بضبط حسابات كل سنة وتسجيلها في الدفاتر الرسمية بعد طرح مصاريف شؤون الصيانة والخدمات المختلفة (٢٣) .

وقد جرت العادة على ان يقدم هؤلاء الوكلاء عرضا عن خدماتهم بمحضر وكيل بيت المال وشيخ البلد حتى يمكن ان يطلع عليه المجلس العلمي بعد ان يتكلف الشيخ

الناظر بتقديمه له . ونظرا لطبيعة عمل موظفي الاوقاف وتزايد اهميتهم اضطر الشيخ الناظر الى توظيف كاتب خاص يعرف بالسايجي او الخوجة لضبط حسابات الاوقاف التي يشرف عليها ، كما اضطر الوكلاء الى الاستعانة بجماعة العدول الذين يعينون من طرف القضاة وذلك لاداء مهامهم المختلفة . ويلحق بهؤلاء الموظفين جماعة الشواش والقيمين المكلفين بأمور الحراسة والقيام بالخدمات الضرورية .

والجدير بالذكر ان انتشار الاوقاف وتزايد اهميتها جعل بعض الموظفين الآخرين يتولون الاشراف عليها مثل شيخ البلد والمزوار وبيت المالجي(٢٤) ، فشيخ بلد قسنطينة توسعت صلاحيته في اواخر العهد العثماني فاصبح يشرف على الاوقاف بالجامع الكبير بقسنطينة كما اصبح يتصرف باوقاف الحرمين الشريفين بالمدينة نفسها ، الامر الذي سمح له ان يحتكر عوائد ومغارم قبلتي اولاد جبارة وبني واغطين حتى يتمكن من الانفاق على الاوقاف التي وضعت تحت رعايته ، بينما خصصت منح سنوية لباقي موظفي الاوقاف ، فكل من الوكيل او الناظر كان يخصص له عطاء سنوى لايزيد على ٤٠ ريالا (٢٥) . مما اضطر كثيرا من النظار ووكلاء الوقف الى البحث عن مصادر اخرى قد تكون في اغلب الاحيان على حساب مردود اوقاف المؤسسة التي يقومون بخدمتها ، وهذا مما لاحظه موظفو الادارة الفرنسية اثر الاحتلال مباشرة(٢٦)، كما كان سببا رئيسيا في تحول كثير من الاوقاف عن الفرض الذي حبست عليه لتصبح من الاملاك الخاصة تحت حجج مختلفة واعتبارات متباينة واساليب ملتوية .

المؤسسات الدينية التي تتوزع عليها الاوقاف الجزائرية :

بعد هذه المميزات التي اتصفت بها اوضاع الاوقاف بالجزائر العثمانية نذكر ان الاوقاف الجزائرية كانت تتوزع على عدة مؤسسات خيرية ذات طابع ديني وشخصية قانونية ووضع اداري خاص ، وهي حسب كثرتها تصنف حسب الترتيب التالي :

١ ـ **اوقاف الحرمين الشريفين** ، وكانت تشكل اغلب الاوقاف الخيرية او الاهلية وذلك للمكانة السامية والمنزلة الرفيعة التي خص بها سكان الجزائر البقاع المقدسة بالحجاز وكانت هذه الاوقاف من الكثرة بحيث بلغت نسبتها في اواخر العهد العثماني ثلاثة ارباع الاوقاف الموجودة آنذاك(٢٧) ، وكان عدد اوقاف الحرمين بمدينة الجزائر وضواحيها عشية الاحتلال الفرنسي يتراوح ما بين ١٣٥٧ ـ ١٥٥٨ ملكية عقارية تبعا للمصادر المختلفة(٢٨) التي نرجح منها احصاء دوفو(٢٩) ، التي اعتمد فيه على سجلات الاوقاف والذي ذكر فيه نوع الحبس ومردوده السنوي كما يلي:

اساسا الى الدور الذي كان يلعبه الجامع الاعظم في الحياة الثقافية والدينية ولكثرة عدد المساجد المالكية في الحواضر الجزائرية الكبرى ، ففي مدينة الجزائر مثلا كان عدد المساجد المالكية يبلغ(٩٢) مسجدا(٣٢)، ، وكل مسجد خصصت له اوقاف تنفق عليه ، وكان في طليعة هذه الاوقاف الخاصة بالمساجد الحنفية اوقاف المسجد الاعظم التي بلغت من الكثرة والضخامة بحيث كانت تناهز ٥٥٠ وقفا تشتمل على المنازل والحوانيت والبساتين والمزارع والضيعات وغيرها ، ويعود التصرف فيها للمفتي المالكي الذين يوكل امر تسيير شؤونها الى الوكيل العام الذي يعاضده وكيلان احدهما متكلف بأوقاف المؤذنين واخر يهتم بأوقاف الحزابين .

٣ ـ اوقاف سبل الخيرات :

اسست حسب بعض المصادر عام ٩٩٩هـ / ١٥٨٤م ، على يد شعبان خوجه(٣٣) وهي مخصصة للانفاق على المساجد الحنفية الواقعة بمدينة الجزائر والبالغ عددها ثمانية مساجد (الجامع الجديد وجامع سفير وزاويته وجامع دار القاضي وجامع كتشاو وجامع الحاج شعبان خوجة وجامع الشبارلية ومسجد حسين داي ومسجد علي خوجه الواقعين بحصن القصبة) .

ويعود امر التصرف في اوقاف سبيل الخيرات الى المفتي الحنفي الذي يقوم بالصلاة ويتولى الافتاء بالجامع الجديد (المسجد الرئيسي لاتباع المذهب الحنفي بالجزائر) الذي اسس مكان مدرسة المولى ابي عنان سنة ١٠٧٠ هـ/ ١٦٦٠ م .

وتعود اهمية اوقاف سبل الخيرات رغم قلة عدد المساجد الحنفية وكون غالبية الجزائريين من اتباع المذهب المالكي ، الى غنى الطائفة التركية وجماعة الكراغلةوبعض العائلات الحضرية المنتسبة للمذهب الحنفي، وهذا ما جعل عدد اوقاف سبل الخيرات يناهز (٣٣١) وقفا منها (١١٩) ملكية عقارية (٢١٢) عناء توفر مدخولا سنويا يقدر ب ١٨٠،٠٠٠ ف، وذلك قبل ن تتعرض الى ضغط الادارة الاستعمارية فتتضاءل الى (١٧٥) وقفا في السنوات الاولى للغزو الفرنسي(٣٤) .

٤ ـ اوقاف الاولياء والاشراف واهل الاندلس : حظي اغلب الاولياء (المرابطين) باوقاف خصصت للانفاق على اضرحتهم . ففي مدينة الجزائر كانت تتوزع اوقاف الاولياء على(٩) اضرحة ، (٨) منها تقع داخل مدينة الجزائر ، وواحد وهو ضريح سيدي عبد الرحمن يقع خارجها بنواحي جرجرة . وتأتي في مقدمة اوقاف الاولياء اوقاف سيدي عبد الرحمن الثعالبي التي كانت تقدر في السنوات الاولى للاحتلال الفرنسي

ـ٦٩ـ وفقا مردودها السنوي ـ٦٠٠٠ـ فرنك ، تنفق على القائمين على الضريح، ويوزع قسم منها على فقراء المدينة كل يوم خميس بنسبة فرنك الى ثلاثة فرنكات لكل فرد(٣٥) .

اما الاشرف الذين كانت تنتسب الى جماعتهم ـ٢٠٠ـ الى ـ٣٠٠ـ اسرة(٣٦)، فقد كانوا يحظون بتقدير العامة ورعاية الحكام الذين خصصوا بعض الاوقات لرعايتهم ، مثل الداي محمد بقطاش الذي اسس لفائدتهم زاوية عام ١١٢١هـ/١٧٠٩م وقد عرفت هذه الزاوية بزاوية الاشراف التي خصصت لها اوقاف كثيرة قبل ان تتعرض للتصفية من قبل الادارة الفرنسية عام ١٨٣٢م. ولا تقل اوقاف اهل الاندلس عن اوقاف الاولياء والاشراف وذلك لاستقرار كثير من مهاجري الاندلس بالبلاد الجزائرية وامتلاكهم ثروات ضخمة نتيجة اعمال القرصنة والاشتغال بالزراعة .وقد خص كثير منهم جامع الاندلس والزاوية الملحقة به الذي اسس في النصف الاول من القرن السادس عشر بكثير من الهبات والاوقاف بلغت ـ٤٠ـ ملكية و ـ٦١ـ عناء وضعت تحت تصرف وكيل الاندلس(٣٧) .

٥ ـ **اوقاف الجند والثكنات والمرافق العامة** : خصصت كثير من الاوقاف للانفاق على المعوزين من الجند وصيانة بعض الثكنات والحصون والابراج ، فضلا عن العديد من المرافق العامة الاخرى كالعيون والسواقي والحنايا والصهاريج والابار . وقد خصص لكل مصلحة من هذه المرافق العامة وكيل خاص يرعى اوقافها ويتعهد شؤونها ، مثل وكيل العيون والسواقي الذي كان مدخوله السنوي من الاوقاف التي يشرف عليها يبلغ ـ ١٥٫٠٠٠ ـ ف في السنوات الاولى للاحتلال(٣٨).

ولكي نأخذ فكرة واضحة عن مختلف اوقاف المؤسسات الدينية ونتعرف على مدى اهمية نفقاتها والفوائد التي توفرها نثبت الجدولين التاليين اعتمادا على المعلومات الملخصة من الموظفين الفرنسيين الذين اوكل اليهم الاشراف على الاوقاف اثر الاحتلال ، وهما ، رغم كونهما يعودان الى السنوات الاولى من الاحتلال ، الا انهما يعكسان واقع الاوقاف في الفترة التي سبقت الاحتلال مباشرة(٣٩) .

آ ـ جدول عام لمصاريف اوقاف بعض المؤسسات الدينية حسب تقرير المدير المالي للادارة الفرنسية بالجزائر بتاريخ ٣٠ سبتمر ١٨٤٢ مقدرا بالفرنكات :

السنة	اقاوف الحرمين الشريفين	أوقاف سبل الخيرات	أوقاف أهل الانلس
1836 —	105701.15	9750,40	—
1837 —	109895,99	13341,27	3970,80
1838 —	109937,25	13903,70	3973
1839 —	143068,62	12192,70	4141,24
1840 —	166495,25	10712	3384,20
1841 —	177268,91	10615,55	2775,20
المجموع	812367,17	72515,61	18734,20

ب جدول عام لفائض مردود اوقاف بعض المؤسسات الدينية من ١٨٣٦ الى ١٨٤١ مقدرا بالفرنكات :

السنة	الحرمين الشريفين	سبل الخيرات	اهل الاندلس
1836 —	107462,96	10019,33	92,22
1837 —	111038,46	13408,04	3988,50
1838 —	127895,65	13989,25	4098,54
1839 —	131941,13	14393,78	4963,98
1840 —	167585,44	15715,66	4017,85
1841 —	178815,19	14447,19	2823,10
المجموع	824788,83	81973,25	19979,19

تاثير الوقف على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للجزائر في اواخر العهد العثماني .

كان للوقوف تاثير مباشر على النشاط الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية يمكن ان نلخصها في النقاط التالية :

١ ـ **النفقة على رجال العلم والمدرسين والطلبة** : فبفضل مردود الاوقاف والمداخيل التي يوفرها تمكن حكام الاتراك بالجزائر من ايجاد وسيلة ملائمة لتسيير بعض المصالح التعليمية والخدمات الثقافية التي لم تر الدولة ضرورة لرعايتها ، ولم تكن الخزينة العامة تهتم بالانفاق عليها ، مثل منح الطلاب واجور المدرسين وجرايات القائمين على شؤون العبادة بالمدارس والزوايا والمساجد والاضرحة ، مثل الخطيب والامام والحزاب وقيم المكتب والمؤذن وصاحب تربة والمنشد والشعال .

فباستثناء الجهات النائية والمناطق الجبلية التي كانت القبائل فيها تتكفل بالانفاق على اماكن العبادة والتعليم فيها ، فان مردود الاوقاف كان يشكل المصدر الوحيد لرعاية الخدمات الثقافية والدينية بأغلب البوادي والحواضر الجزائرية التي كانت تزخر بالمساجد والمدارس فمدينة الجزائر مثلا كانت تحوي (١٠٦) مساجد ، اهمها الجامع الاعظم الذي يقوم بخدمته ١٤ مدرسا و١٨ مؤذنا و٨ حزابين و ١٣ قيما(٤٠) . بالاضافة الى ثلاثة وكلاء يسهرون على تنظيم الاعمال به ، اما مدينة قسنطينة فكان عدد اماكن العبادة والتعليم بها ينيف عن ـ١٠٠ـ منها ـ٣٥ـ مسجدا و ـ١٦٩ـ زاوية و ـ٧ـ مدارس رئيسية فيها ـ٦٠٠ـ تلميذ منهم ـ١٥٠ـ من الارياف ، وكلهم يتقاضون منحة سنوية من وكيل الاوقاف تقدر بـ ـ٣٦ـ ف للطالب(٤١) مع اعانة نصف سنوية تتألف من كمية من الزيت والشموع والبخور والسجاجيد(٤٢) .

والجدير بالذكر ان فائض مردود الاوقاف كان كثيرا ما يستغل في انشاء اماكن جديدة للعبادة والتعليم ، مثل زاوية الجامع الاعظم بالجزائر التي بنيت بفضل مردود الاوقاف عام ١٠٣٩ هـ / ٢٩ـ١٦٣٠م ، واصبحت تضم طابقين من الغرف خصصت للمدرسين وطلبة العلم مما جعل مدينة الجزائر تحتوي على ست زوايا مخصصة لاقامة الطلبة ، ثلاثة منها لطلبة الجهات الغربية واثنتان لطلبة النواحي الشرقية وواحدة افردت لطلبة مدينة الجزائر (٤٣) . وهذا ما ساعد على انتشار العلم والمعرفة في اوساط السكان حتى ان احد الكتاب الفرنسيين ، وهو راينال الذي تعرف على الجزائر اثر الاحتلال ، كتب مايلي : (كان يوجد بمدينة الجزائر عدد كبير من المدارس التي تتميز بانتهاج طرق تعليمية تشابه كثيرا نظم التعليم بفرنسا .. و لااظن اني مبالغ حين أؤكد ان التعليم الابتدائي كان اكثر انتشارا في الجزائر منه في فرنسا)(٤٤) .

٢ ـ **الاحسان الى الفقراء والتخفيف من شقاء المعوزين :** يتكفل وكلاء الاوقاف بتقديم مبالغ مالية ومساعدات عينية للفقراء والمحتاجين على شكل اعانات وصدقات تقدم في ايام محددة ومواسم معينة ، مثل صدقة وكيل بيت المال التي توزع على ٢٠٠ فقير كل يوم خميس ،(٤٥) واعانة وكيل اوقاف سيدي عبد الرحمن الثعالبي التي يحظى بها عادة زوار الضريح من الفقراء وابناء السبيل . وتكفل وكيـل الاوقاف بقسنطينة بتقديم نصيب من الزلابية لموظفي المساجد والطلبة في منتصف شهر رمضان بعد ان يقتطع ـ ٣٠٠ ـ فـمن مدخول الاوقاف التي يشرف عليها لهذا الغرض(٤٦) .

٣ ـ **الحد من المظالم والاحكام التعسفية للحكام :** كان الوقف وسـيلة فعالة للمحافظة على الثروات والاملاك والاراضي الموقوفة لكونها لا تباع ولا تشترى ، ولا يمكن حيازتها بتصرف او استحواذ او مصادرة ، وبالتالي لم يعد في استطاعة الحكام وذوي النفوذ مد ايديهم الى الاملاك المحبسة ، فرغم الظروف الصعبة التي عرفتها الجزائر في اواخر العهد العثماني والتي دفعت كثيرا من الحكام الى اصدار قرارات العزل والصادرة والتغريم ، فان جل الاملاك الموقفة في مأمن من تعسفاتهم وتجاوزاتهم نظرا للاحكام الشرعية الصريحة في شأنها ، التي لم يجسر احد على انتهاكها او التحايل عليها .

٤ ـ **تمكين العجزة والقصر من تسيير واستغلال مصادر رزقهم :** وذلك لكون الحبس الاهلي يسمح لصاحبه بكرائه مقابل عناء محدد يقره المجلس العلمي بعد وضعه في المزاد العلني ، مما مكن فئات من المجتمع من المحافظة على مصادر دخـل وافرة ومضمونة ، كالنساء المطلقات والارامل وغير الراشدات وبعض المعوقين . ولهذا السبب بالذات نلاحظ كثرة النساء اللاتي كن يحبسن املاكهن . فعلى سبيل المثال نذكر ان هناك اثنتين وعشرين امرأة وضعن املاكهن وقفا على الجامع الاعظم بالجزائر(٤٧) . كما سمحت طريقة استغلال الحبس الاهلي استغلالا غير مباشر لبعض الجماعات من الموظفين المشتغلين بمهام واعمال لا تسمح لهم بالتفرغ لاستغلال املاكهم ، كالمنخرطين في الجيش ، والمتولين لبعض الوظائف الخاصة ، من الانتفاع من ملكياتهم . وهذا ما يؤكده توارد اسماء العديد من الموظفين والجند في وثائق الحبس الاهلي(٤٨) .

٥ ـ **العمل على تماسك الاسرة الجزائرية وحفظ حقوق الورثة :** فأحكام الوقف الاهلي تقر لصالح الحبس ان ينتفع هو وعقبه بالحبس حسب الوصية التي يسجلها في وثيقة الوقف فلا يصرف الحبس على الغاية التي وقف من اجلها الا بعد انقراض العقب وانتفاء الورثة ، وهذا ما مكن الاسرة الجزائرية من المحافظة على تماسكها وحال دون اقتسام الاملاك او بيعها اورهنها من طرف الورثة .

٦ ـ **رعاية المرافق العامة وصيانتها** : ساهمت الاوقاف فيالمحافظة على بعض المرافق العامة مثل العيون والسواقي والابار والطرق والمسالك ، التي خصت بأوقاف عديدة كما سبقت الاشارة الى ذلك . وهذا ما وفر للسكان خدمات اساسية واوجد وسائل ضرورية للحياة لم تكن الدولة تهتم بها ولم يكن الحكام يحرصون على توفيرها ففي مدينة قسنطينة كان وكيل اوقاف العيون يصرف حوالي ـ٥٠٠ـف لنقل الماء الى الاحواض السبعة المنتشرة وسط المدينة ، بنسبة حمولتين لكل حوض يوميا تكلف حمولة البغل الواحد ـ ٢٥ر٠ ـف(٤٩).

وفي مدينة الجزائر ساهمت الاوقاف في احداث كثير من العيون حتى بلغعددها مائة بالمدينة وضواحيها في منتصف القرنـ١٨ـم (٥٠) .

٧ ـ **انشاء وترميم الثكنات والتحصينات المختلفة** . كان لعائدات الاوقاف الفضل في تشييد العديد من الثكنات والحصون والابراج والاسوار والبطاريات بقصد الدفاع عن البلاد ضد الهجمات البحرية الاوروبية وغارات القبائل داخل البلاد . وكان اكثرها يتركز بمدينة الجزائر والجهات القريبة منها. ففي وسط المدينة كانت الثكنات السبع تنال نصيبا وافرا من عائدات الاوقاف تنفقه على رعاية الجند وصيانة المرافق بها وفي الجهات القريبة منها كانت الحصونالمختلفة تنتفع بما يخصص لها من اوقاف، مثل حصن تافورة (باب عزون) وحصن مولاي الحسن (الامبراطور) وبرج الزوبية (البرج الجديد) وحصن سيدي تقليلالت (حصن الانكليز) وبرج العتار (المرسي) وبرج قامة الفول (حصن الانكليز) ، الذي نقتبس من وثيقة الحبس الخاصة به نصا(٥١) ، على سبيل المثال ، نتعرف من خلاله على نوعية هذه الاوقاف الخاصة بالحصون . وقد جاء فيهذه الوثيقة ما يلي (وبعد ان كان المكرم مصطفى باشا فيالتاريخ ابن المرحوم ابراهيم احدث بقامة الفول خارج الوادي برجا معدا لمحاربة الكفار وكان ممارامه السيد مصطفى باشا من الحسنات استجلاب الماء للبرج من عين ماء جنته الكائنة بفحص زغارة المعروفة بجنة السناجي لمرور الماء ان يبتاع من الجنة الى اسفل جنته بتاريخ اوائل محرم ـ١١٩٥ـهـ .. وقد انفق لتحبيس الماء على حصنه مقدارا من المال قدر بـ ـ ١٤٨ ـ دينارا ذهبا مقسطة على أماكن مرور ماء الساقية الى الحصن) .

موقف الفرنسيين من الوقف في الجزائر :

نظرت سلطات الاحتلال الفرنسي بالجزائر الى الوقف على انه احد المشاكل العويصة والقضايا الصعبة التي تحد من سياسة الاستعمار وتتنافى مع المبادىء

الاقتصادية التي يقوم عليها ، وذلك لكون الوقف كان في حد ذاته جهازا اداريا ووسيلة اقتصادية فعالة تحول دون المساس بالمقومات الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية للجزائريين . وهذا ما دفع قادة الجيش الفرنسي للعمل على مراقبة المؤسسات الدينية وتصفيتها والاستيلاء على الاحباس التابعة لها باعتبارها احد العوائق التي كانت تحول دن تطور الاستعمار الفرنسي وتحول دون نجاحه ، وهذا ما دفع احد العوائق التي كانت تحول دون تطور الاستعمار الفرنسي وتحو لدون نجاحه . وهذا ما دفع احد الكتاب الفرنسيين الى القول (بأن الاوقاف تتعارض والسياسة الاستعمارية وتتنافى مع المبادىء الاقتصادية التي يقوم عليها الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر(٥٢) ولهذا السبب بالذات عملت الادارة الفرنسية جاهدة لاصدار قرارات ومراسيم تنص على نزع صفة المناعة والحصانة عن الاملاك المحبسة هذه الحصانة التي لم يتردد أحد الكتاب الفرنسيين من وصفها بانها تشكل احد العوائق التي لايمكن التغلب عليها والتي تحول دون الاصلاحات الكبرى التي هي وحدها القادرة على تطوير الاقليم الذي اخضعته اسلحتنا وتحويله الى مستعمرة حقيقية(٥٣) .

« l'Inaliénabilité des biens habous ou engagés est un obstacle invincible aux grands améliorations qui seules Peuvent transformer un véritable colonie, les territoires conquis par nos armes.

كان الهدف من تلك القرارات والمراسيم ادخال الاوقاف في نطاق التعامل التجاري والتبادل العقاري حتى يسهل للاوروبيين امتلاكها . بعد ان وضع الجيش الفرنسي يده بالجزائر العاصمة في السنوات الخمس الاولى للاحتلال على ـ٢٧ـ مسجدا و ـ١١ـ زاوية ومصلى (٥٤). وكان اول قرار فرنسي يتعلق بالاوقاف قد صدر في ٨ سبتمبر ١٨٣٠ وتضمن بنودا تنص على ان للسلطات العسكرية الفرنسية الحق في الاستحواذ على املاك موظفي الادارة التركية السابقة وبعض الاعيان من الكراغلة والحضر بالاضافة الى بعض الاوقاف التابعة لمؤسسة اوقاف الحرمين . وهذا ما أثار سخط واستنكار رجال الدين والعلماء واعيان مدينة الجزائر الذين رأوا في هذا القرار انتهاكا صريحا للبند الخامس من معاهدة تسليم الجزائر (٤ جويلية ١٨٣٠) وكان في طليعة المحتجين المفتى ابن العنابي مما حال دون مصادرة اوقاف الحرمين .

ثم تلا هذا القرار مرسوم في ٧ ديسمبر ١٨٣٠ يخول الاوربيين امتلاك الاوقاف عملا بتوصية كل من فوجرو وفلاندان ، الموظفين بمصلحة الاملاك العامة ، والرامية الى وضع الاوقاف تحت مراقبة المدير العام لمصلحة الاملاك العامة السيد جيراردان .

مع ابقاء المشرفين عليها من الوكلاء . وهذا ما اعتبره رجال الدين وبعض الاعيان مخالفا للاحكام الشرعية ومنافيا للاتفاقيات المنصوص عليها في معاهدة التسليم السابقة الذكر ، وكان في طليعتهم المفتي محمد بن محمود بن العنابي وابن الكبابطي وحمدان خوجه وبوضربة ، الذين اتضح لهم مدى خطورة هذا المرسوم بعد ان استولى المدير المدني بيشون على ـ٨١ـ وقفا منها ـ٥٥ـ وقفا تابعة للحرمين و ـ١١ـ وقفا تخص الجامع الاعظم ، مع بعض الاوقاف المخصصة للمرافق العامة كالطرق والعيون(٥٥) . لكن المرسوم اصطدم بصعوبات جمة حالت دون تنفيذ بنوده . فبغض النظر عن رجال الدين والاعيان فان هذا المرسوم يفتقد الى خطة محكمة ودراسة وافيه ، كما انه لم يجد التاييد المطلوب من طرف الحاكم الفرنسي الجديد برتوزان الذي خلف ليكوزال في حكم الجزائر ، والذي فكر جديا اثر الصعوبات التي اعترضت تطبيق هذا المرسوم في ارجاع الاوقاف المصادرة لمستحقيها رغم معارضة الوكيل المدني بيشون لهذا الاجراء . وهذا ما يجعلنا ننظر الى هذا المرسوم على انه بداية خطة تكتيكية وفاتحة مرحلة انتقالية لتصفية الاوقاف استمرت ـ٥ـ سنوات وانتهت بسيطرة الادارة الفرنسية على كل الاوقاف الجزائرية . وقد بدأت هذه الخطة بالفعل في ٢٥ اكتوبر ١٨٣٢ حين تقدم المدير العام لاملاك الدولة (الدومين) السيد جيراردان بمخطط عام لتنظيم الاوقاف الى المقتصد المدني L'Intendant وقد حظي هذا المخطط بتأييد جانتي دو بوسي (Genty de Bussy) الامر الذي دفع السيد بلاندال Blondel الى قبوله وتطويره ليتخذ شكل تقرير مفصل حول المؤسسات الدينية في نهاية سنة ١٨٣٤ ، وتقدم به الى اللجنة الافريقية الملكية المكلفة بالتعرف على اوضاع الجزائر في مستهل سنة ١٨٣٥ (٥٦) .

وبذلك امكن للسلطات الفرنسية بالجزائر فرض رقابتها الفعلية على الاوقاف وتشكيل لجنة لتسييرها تتألف من الوكلاء المسلمين ، برآسة المقتصد المدني الفرنسي الذي اصبح يتصرف بكل حرية في الفي وقف موزعة على مائتي مؤسسة ومصلحة خيرية، حسبما جاء في التقرير العام عن الاوقاف بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٨٣٥م(٥٧).

وبمقتضى هذا الاشراف الفعلي على الاوقاف امكن للادارة الفرنسية بالجزائر ان تصدر قرارا آخر (Ordonnance) في اول اكتوبر ١٨٤٤ ، ينص بصريح العبارة على ان الوقف لم يعد يتمتع بصفة المناعة ، وانه بفعل هذا القرار اصبح يخضع لاحكام المعاملات المتعلقة بالاملاك العقارية الامر الذي سمح للاوربيين بالاستيلاء على كثير من اراضي الوقف التي كانت تشكل نصف الاراضي الزراعية الواقعة بضواحي المدن الجزائرية الكبرى ، (٥٨) وبذلك تناقصت الاوقاف وشحت مواردها فلم تعد تتجاوز

ـ٢٩٣ـ وقفا منها ـ١٢٥ منزلا و ـ٣٩ـ دكانا و ـ٣ـ افران و ـ١٩ـ بستانا و ١٠٧ عناء عام ١٨٤٣(٥٩) . وكانت قبل الاحتلال تقدر بـ ٥٥٠ ـ وقفا .

ثم جاءت الخطوة التالية المتمثلة في مرسوم Le Décret ٣٠ اكتوبر ١٨٥٨ ، الذي وسع صلاحيات القرار السابق واخضع الاوقاف لقوانين الملكية العقارية المطبقة في فرنسا وسمح لليهود وبعض المسلمين بامتلاكها وتوارثها(٦٠) . واعقب هذا الاجراء القرار الاخير الذي عرف بقانون ١٨٧٣ والذي استهدف تصفية اوقاف المؤسسات الدينية لصالح التوسع الاستيطاني الاوروبي في الجزائر ، وبذلك فقد الجزائريون احدى الوسائل المادية والروحية والثقافية للوقوف في وجـه مطامع الاستعمار ومخططاته الرامية الى القضاء على المقومات الاقتصادية والاسس الاجتماعية للشعب الجزائري المسلم ، ومما تجدر ملاحظته في ختـام البحث ان الوقف رغـم فوائده المباشرة وانعكاساته الايجابية على الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، الا انه لا يخلو من سلبيات على النشاط الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية . فهو قد ساعد على تمايز الطوائف السكانية تبعا لمختلف المؤسسات الدينية والاوقاف التابعة لها . مما حافظ على هيكل كل جماعة على حدة ، من اشراف واندلسيين واتراك ومنتسبين الى الحرمين الشريفين . زيادة على أن الاوقاف كانت احدى العوامل التي ساهمت في تجميد الملكية الفردية والحيلولة دون انتقال الثروة العقارية تبعا للنشاط الاقتصادي واحكام الوراثة ومعاملات البيع والشراء ، ممـا تسبب في الانكماش الاقتصادي والجمود الاجتماعي قبل الاحتلال . ومع ذلك فاننا نرى ان الوقف باعتباره عاملا اجتماعيـا وحافزا ثقافيا وجهازا اداريا ووسيلة اقتصادية له فضل كبير على تماسك المجتمع الجزائري وتوفير الخدمات الضرورية لافراده ، والحيلولـة دون تنفيـذ المخططات الاستعمارية في الفترة الاولى من الاحتلال ، فلم يستطع الفرنسيون تصفيته الا بعد الاستيلاء على العديد من المساجد والزوايا والمدارس التي نثبتها في القائمة الدينية التالية (٦١) حتى نتعرف على مدى خطورة الاستعمار الفرنسي على الوقف ومؤسساته.

قائمة بالمساجد والزوايا التي استولى عليها الفرنسيون بمدينة الجزائر في العامين الاولين للاحتلال

مسجد الشواش ، مسجد الشعاين ، مسجد الجنائز ، مسجد المرسي ، مسجد سيدي حدى ، مسجد باب الجزيرة ، مسجد سوق الكتان ، مسجد العين الحمراء ، مسجد صباط الحوت، مسجدعلي باشا ، مسجد سيدي عامر التنسي ، مسجد علي خوجـه ، مسجد الكشاش القديم ، مسجد خضر باشـا ، مسجد عبدي باشـا .

مسـجد سوق اللوح ، مسـجد قاع السور ، مسـجد علي خوجة ، مسـجد كتشاوة ، مسـجد سيدي الرجي ، مسـجد سيدي سعدي ، مسـجد سيدي جامعي ، زاوية سيد الصيد ، زاوية سيدي بتكة ، زاوية كتشاوة ، زاوية الكشاش بالمرسى ، زاوية الانكشارية بالقصبة ، زاوية تشيكتون ، زاوية الانكشارية القديمة ، زاوية محمد ميزو مورتو ، زاوية الوالي سيدي الغبرني بالمرسى ، مسجد حسين بالقصبة ، مسجد القصبة ، مسجد فرن القشور ، مسجد ستي مريم ، مسجد علي بتشني ، مصلى الانكشارية القديم بالقصبة ، مصلى الانكشارية الجديد بالقصبة ، مصلى سيدي عبد الرحمن .

(١) (Mercier, E. le Habous ou Oukaf, Alger. Jourdan 1895 P. 51.

(٢) ما هو معروف اهلية التبرع بالحبس يشترط فيها البلوغ وصحة الملكية واحقية التصرف فيها.

(٣) راجع دراستنا حول وضعية الاوقاف العقارية بفحص مدينة الجزائر اواخر العهد العثماني ، التي قدمت في ندوة المؤسسات الدينية بالمغرب العربي المنعقدة بجامعة برلين الحرة في شهر مارس ١٩٨٠ ، وهي في طريق النشر باللغتين العربية والفرنسية .

(٤) الارشيف الوطني بالجزائر ، الوثائق الشرعية علبة ١٠٦ رقم ٥٣ — ٢٠٨ .

(٥) حمدان بن عثمان خوجة ، كتاب المراة ، ترجمة وتقديم محمد بن عبد الكريم ، بيروت ، ١٩٧٢ ص ٢٣٧

(٦) الشيخ عبد العزيز خياط ، اوقاف القدس عن تاريخ الدر المنتقى ، مع العلم بان ابي يوسف اشترط لصيرورة الوقف ان يسلم للمتولي وان يكون مفرزا ومؤبدا وغير مشترط .

(٧) Mercier, E. le code du Habous, Constantine, 1899, p. 10

(٨) Idem, p 34, cité par Etanwir oua Durrar.

(٩) ROBE, E. origine et formation et etat actuel de propriété immobilière en Algérie, Paris. Challamed, 1885, p. 58.

(١٠) الشيخ عبد العزيز خياط ، نفس المصدر ، اعتمادا على تاريخ الدر المنتقى .

(١١) Brossard, les Inscription Religieuses de tlemcen, in Revue Africaine, 1859, p. 413.

(١٢) التميمي ، عبد الجليل ، من اجل كتابة تاريخ الجامع الاعظم بمدينة الجزائر ، والمجلة التاريخية المغربية ، جويلية ١٩٨٠ عدد ١٢—١٩ ص ١٦٠ .

(١٣) Féraud L. un Voeu d'Hussein Bey de Constantine, 1807, in Revue Affricaine 1863, pp 91-92.

(١٤) Tobleau de la situation des Etablissements Français en Algérie, Année 1837.

(١٥) التميمي ، نفس المصدر ، ص ١٦٥ .

16 — Vallière Ch. mémoire, L'Algérie en 1781 publiés par L. Chaillon, toulon S.D, L. 31.

17 — Archives du ministère de la guerre de Vincennes à Paris (A.M.G.) H226pp 45-50.

18 — Féraud L. les anciens Etablissements réligieux musulmans de Constantine, in revue africaine 12-1868, p. 125-126.

(١٩) صالح خرفي ، الجزائر والاصالة الثورية ، اعتمادا على مقال ينسب الى الصحفي الجزائري ابن قدور نشربجريدةاللواء عدد ٢١٥٣ بتاريخ ١٧اكتوبر ١٩٠٦ .

(٢٠) مما يلاحظ ان بعض المدن الكبرى كانت تتميز بتنظيماتها الخاصة لشؤون الاوقاف مثل مدينة قسنطينة التي كان يتولى بها قائد الدارمهام ناظر الاوقافويعين مباشرةمنطرف الباي ، وليس للمفتي المالكي سلطة او مراقبةعامة ،راجع وثائق الارشيفالفرنسي السابق الذكر : ص ٢٢٦ .

(٢١) مثل فاتوردو بارادي الذي يطلق عليه لقب المتولي ، راجع

(22) Venture de Paradis, Alger au XVIII Siécle, in Revue Africaine, No 219-1895, P. 275.

(23) Feraud, les anciens, pp. 130-131.

(٢٤) نور الدين عبد القادر ، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر ، نشر كلية الاداب ، الجزائر ،ص٧٦.

(25) Féraud, les anciens, pp. 130-131

(26) Yacono, X. la régence d'Alger en 1830 d'aprés l'enquête des commissions de 1833-1834, in Revue d'accident musulman et de la méditerranée No1/1966.

(27) Busson de Jenssem, G. Contribution à l'étude des Herbons publics Algériens, Thése, Alger 1950. p 2 7.

(٢٨) يختلف عدد اوقاف الحرمين باختلاف المصادر فهي حسب تقرير مدير الاملاك العامة (جيراردان ١٤٠٠ وقف بمدينة الجزائر وضواحيها ، وفي جدول المؤسسات الفرنسية في الجزائر ١٤١٩ وفي تقرير اول سبتمبر ١٨٣٧ ـ ١٤١٤ وعندجانتي يوسبيتقدر بـ ١٤١٤ وفقا .

(29, Devoulx, notice, pp. 14-15.

(30) Yver, G. mémoire de Bouderbah, in Revue Africaine, 27-1913, p. 240.

(31) Aumerat, F. la Propriéte Urbaine, et le bureau de b.en Faisance musulman d'Alger, in Revue Africaine 41-1897 p. 323.

(٣٢) ذكر بانانتي أن مدينة الجزائر تضم ٥٠ مسجدا صغيرا و٩مساجدكبرى و ٣ مدارس فيوقت كان فيه عددسكانها يناهز١٢٠ الف نسمة، كما ذكر لوجي دوتاسي ١٧٢٥ان مدينة الجزائر بها ١٠ مساجد كبرى و ٥٠ مسجدا صغيرا بالاضافة الى ثلاث مدارس وحسب احصاء دوفوان فان عدد مساجد الجزائر١٢٢ مسجدا منها ١٠٩ مساجد صغيرة و١٣ مسجدا كبيرا . كما ذكر ابن حرة اوميرا انعددالمساجدبالجزائر عام١٨٣٠ كان يبلغ ١٠٣ منها ٨٩ مسجدا مالكيا و ١٤ حنفيا، بينما تقرير اول سبتمبر ١٨٣٧ الذي وضعته السلطات الفرنسية يحدد عددها بـ١٠٧ مساجد وزاوية . ولا يختلف من هذا التقدير كثيرا المعلومات التي ادلى بها بوضربة الذي قدرها بـ ١٠٦ مساجد منها ٩٢ مسجدا خاصة بالمذهب المالكي و١٤ تابعة المذهب الحنفي

(33) Devoulx A. les Edifices religieux de l'ancien alger, in Revue africaine 1867,p.383 et 385.

(٣٤) اعتماد على مقارنة المديد من المصادر وثائق الارشيفات ، راجع الارشيف الوطني الفرنسي لما وراء البحار ٨٠ـ ١٦٣٢ تقرير دول سبتمبر ١٨٣٧ وكذلك الارشيف الوطني الجزائري علبة ٣٥ سجل ٣٥٤ .

35) Aunerat, op. cit, p. 329.

Emerit, M. L'Etat Intellectuel et moral de l'algérie en 1830 in Revue d'histoire moderne et contemporaine 1954, p. 200.

36) Archive nationale d'outre-mer, a Aix en-provence, France (A.O.M) F 80-1632, Repport de ler Sept. 1842.

37) Tableau, op-cit, année 1837.

38) Idem. p. 287.

39) A.O.M F. 80-1932-2 Corporations, Réponse aux questions de M. Le Directeur des Finances, 30 sept, 1842.

40) Devoulx, les Edifices, pp. 377-381.

41) Emerit, op eit, p 203, d'aprés ropport Resseau en 1847.

42) A.M.G H.226 p 46.

43) Emerit op-cit, p. 203.

44) Raynand, De la domination française en Afrique, Paris 1832, p. 28.

45) Aumerat, op. cit, pp. 7-8.

46) A.M.G H 226 p. 46.

(٤٧) التميمي نفس المصدر

(٤٨) حسبما يستخلص من وثائق المحاكم الشرعيةالجزائرية التي تعود للفترة العثمانية .

49) A. M. G. H 226 pp 50-51.

(50) lespes R. Alger Esquisse de géographie Urbaine, Paris 1930 p175-176.

(٥١) الارشيف الوطني الجزائري الوثائق الشرعية علبة ١٠٦ وثيقة ٢٠٦ـ٥٣

52) Zeys, cité par Terras, Essai sur les biens habous en algérie et en Tunisie Lyon, 1899, p. 68.

53) Blanque l'algérie rapport sur la situation économique de nos possessions dans le nord de l'afrique paris 1840, 228.

(٥٤) راجع القائمة الملحقة باخر البحث والمتضمنة اسماء المساجد والزوايا التي استولى عليها الفرنسيون في مدينة الجزائر مابين ١٨٣٠ ـ ١٨٣٢ .

(55) A.O.M F. 80 1673.

(56) A.O.M F. 80 1632, 2e réposne au questions.

(57) A.O.M F. 80 1632, 2,30 Sept. 1842.

Berthaul, la propriété rurale en Afrique du nord, in Revue, l'Afrique française No 4 1936, p. 211.

(59) A.O.M F. 80-1632 Etat daté 1843.

(60) Terras op-cit, p. 7.

(61) Klein, H. les Fenillets d'el Djazair, Alger, Fentana, 1937 pp. 15-20

الرِّبَاطُ وَالمُرَابِطُونَ
في ساحل الشّام
من الفتح الإسلامي حتى الحروب الصليبية

د. عمر عبد السلام التدمري

كلية الاداب ـ الجامعة اللبنانية ـ طرابلس

مقدمـــة :

منذ فتح المسلمون سواحل الشام في عهد الخلفاء الراشدين تحولت المدن الثغرية الى رباط للصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وللمجاهدين في سبيل الله ، وللزهاد والعباد المنقطعين الى الله تعالى .

والرباط : الاقامة على جهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل واعدادها .

(قاله في : النهاية) . يقال : « فلان له رباط من الخيل » الحصن أو المكان الذي يرابط فيه الجيش .

وقال القتيبي : أصل الرباط أن يربط الفريقان في ثغر ، كل منهما معد لصاحبه ، ثم سمي المقام في الثغور رباطا .

والمرابط أو الرابط : الزاهد أو الراهب ، الحكيم الذي نزه نفسه عن الدنيا . ويقال : « رابط الجأش » : شجيع لا يخاف .

ولقد حث الله المسلمين في قرآنهم الكريم على الرباط والمرابطة ، في غير موضع ، فقـــال تعـــالى :

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا اللهلعلكم تفلحون»(١) .
(آل عمران ٢٠٠)

وقال تعالى :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكـــم » .

(الأنفال ٦٠)

اعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦ ـ ٢٢ جمادي الاخرة ١٤٠١هـ / ٢٠ ـ ٢٦ نيسان ١٩٨١م . .

كما جاء في الحديث الشريف ترغيب المسلمين على الرباط والمرابطة وبيان أجر المرابط . قال سلمان الفارسي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« رباط يوم وليلة في سبيل الله كصيام شهر وقيامه ، وان مات جرى له أجر المرابط الى أن يبعث ، وأومن من الفتان(١) ، وقطع له برزق من الجنة »(٢) .

وأجر المرابط يتضاعف في رباطه على الساحل عن رباطه في الحصون الداخلية، وهذا ما يدل عليه حديث أم الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« من رابط في شيء من سواحل المسلمين ثلاثة أيام أجزت عنه رباط سنة »(٣) .

وكان ساحل الشام كله يعتبر رباطا بعد الفتح ، اذ عنده تنتهي حدود الدولة العربية الاسلامية على الطرف الشرقي البحر الابيض المتوسط ، وفي الطرف الآخر حدود دولة الروم البيزنطية بأسطولها البحري الذي يهدد سواحل الشام في كل وقت . وكانت نقاط المواجهة مع العدو والربط تنتشر على الساحل ، ومن أهمها : جبلة ، وانطرطوس ، وطرابلس ، وجبيل ، وبيروت ، والصرفند ،وصور، وعكا ، وعسقلان . والرباط في هذه الثغور الشامية يفضل الرباط في السواحل الاسلامية الاخرى بعدة أضعاف ، لتعاظم الخطر الدائم عليها . وهذا ما تشير اليه رواية أوردها الحافظ ابن عساكر في « تاريخ دمشق » على لسان « ابراهيم اليماني » قال :

« قدمت من اليمن فأتيت سفيان الثوري ، فقلت : يا أبا عبد الله اني جعلت في نفسي أن أنزل جدة فأرابط بها كل سنة ، واعمر كل شهر عمرة ، وأحج في كل سنة حجة ، أفأقرب من أهلي أحب اليك ، أم آتي الشام ؟ فقال لي : يا أخا أهل اليمن ، عليك بسواحل الشام، عليك بسواحل الشام ، فان أهل البيت محجه في كل عام مائة ألف ، وثلاثمائة ألف ، وما شاء الله من التضعيف ، لك مثل حجهم ، وعمرتهم ، ومناسكهم »(٤) .

ونلحظ أن الحديثين السابقين اللذين استشهدنا بهما ، من رواية صحابية وصحابي رابطا في ساحل الشام ، هما : أم الدرداء ، وسلمان الفارسي . وهناك مرابط آخر هو « سعيد بن أبي سعيد الساحلي » نزل ساحل الشام وروى حديثين عن فضل الرباط ، رفعهما عن انس بن مالك ، يقول الاول منهما :

« من حرس ليلا في سبيل الله كان أفضل من صيام رجل وقيامه شهرا في اهلـــه » .

والثـــاني :

« من حرس ليلة على ساحل البحر كان أفضل من عبادة رجل في أهله ألف سنة . السنة : ثلاثمائة وستون يوما ، كل يوم ألف سنة »(٥) .

ورغم أن الحديثين ضعيفين على ما يبدو ، فانهما يعطيان مع غيرهما انطباعا عن التزام المرابط برواية أحاديث الرباط في الساحل ، ولعل المحدث يرمي من وراء ذلك اقران القول بالعمل ، ليقتدي به الآخرون .

الصحابة يرابطون في ساحل الشام :

عرف الصحابة في وقت مبكر ، فضل المرابطة في ثغور الشام ، فنزل عدد كبير منهم في المدن والحصون الساحلية ، وشاركوا في الغزوات البحرية والدفاع عن سواحل الشام . ولقد نزل « أبو الدرداء عويمر الانصاري » ثغر بيروت عقب الفتح الاسلامي مباشرة ، وكان فتح بيروت قد تم في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، على يد « يزيد بن أبي سفيان » ، وعلى مقدمة جيشه أخوه معاوية ، وذلك حول سنة ١٣ هـ . وكذلك تم فتح مدن صيدا وجبيل وعرقة حول هذا التاريخ (٦) .

والذي يجعلنا نميل الى هذا التاريخ ما رواه « محمد بن المبارك الصورمي » المتوفى سنة ٢١٥ هـ . من ان سلمان الفارسي قدم دمشق ، فلم يبق فيهـــا شريف الا عرض عليه المنزل ، فقال : اني عزمت على بشير بن سعد مرتي هذه ، فسأل عن أبي الدرداء ، فقيل : مرابط . فقال : وأين مرابطكم يا أهل دمشق ؟ قالوا : بيروت . فخرج للرباط معه هناك(٧) .

فهذه الرواية تؤكد لنا أن مرابطة أبي الدرداء وسلمان الفارسي كانت في وقت مبكر بعد فتح المسلمين لبيروت مباشرة ، اذ أن بشير بن سعد الذي نزل عنده سلمان في دمشق توفي سنة ١٣ هـ(٨) . مما يعني أن بيروت كانت مفتوحة في تلك السنة ، وأن أبا الدرداء كان مرابطا فيها ، ثم لحق به سلمان الفارســـي ، ومعه « عبد الملك بن أبي ذر الغفاري » . فقد ذكر « ابن عساكر » أن عبد الملك قدم مع سلمان الفارسي الى الشام مرابطا ، وكان مرابط سلمان ببيروت ، وقال عبد الملك : أمرني أبي بصحبة سلمان الفارسي ، فصحبته الى الشام فرابطنا فيها،

حتى اذا انتهى رباطنا اقبلنا نريد الكوفة(٩) . وكان سلمان حين نزل بيروت اجتمع عليه المسلمون في مسجدها ليسمعوا حديثه ، فقال لهم : يا أهل بيروت الا احدثكم حديثا يذهب الله به عنكم غرض الرباط ؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« رباط يوم كصيام شهر وقيامه . ومن مات مرابطا في سبيل الله أجير من فتنة القبر ، وأجري له ما كان يعمل الى يوم القيامة »(١٠) .

وهكذا كانت مدينة بيروت من أوائل ثغور المرابطين وأهمها ، وذلك لقربها من دمشق ، وكونها فرضة مدينة بعلبك . وفي ذلك يقول « ابن حوقل »: «بيروت على ساحل بحر الروم ، وهي فرضة بعلبك ، وبها يرابط أهل دمشق وسائر جندها ، واليها ينفرون عند استنفارهم »(١١) .

ونحن نعرف ان أبا ذر الغفاري ، وعبادة بن الصامت ، وزوجته ام حرام بنت ملحان ، والمقداد بن الاسود ، وشداد بن أوس ، وأبا الدرداء الانصاري ، كانوا في مقدمة الغزاة الى جزيرة قبرص ، مع معاوية بن ابي سفيان ، حين خرج بالاسطول الاسلامي من ميناء عكا في سنة ٢٨هـ . / ٦٤٩م(١٢) . ولنا أن نظن ، مع الترجيح ، أن هؤلاء الصحابة كانوا من المرابطين في سواحل الشام في تلك الفترة . فقد تأكد لدينا أن أبا الدرداء كان في بيروت ، وأن عبادة بن الصامت كان أميرا على اللاذقية مرابطا بها ، وهو فاتح : جبلة ، وأنطرطوس ، وبانياس . كما أن أبا ذر الغفاري كان يرابط في ساحل لبنان عند الصرفند ، حسب الروايات المتواترة الى الآن عند أهالي جنوب لبنان ، وقد مر معنا أن ابنه عبد الملك صحب سلمان الفارسي ورابط معه في بيروت بناء لامره . ولعل أبا ذر كان يتخذ من الصرفند رباطا له ، ثم تحولت الى حصن ورباط لأبناء « الأنصار » من ذريته ، ومن ذرية أبي الدرداء الأنصاري ، ومن ذرية النعمان بن بشير الانصاري ، وهذا نتبينه من تراجم بعضهم حيث ينسبون الى الصرفند ، الحصن القريب من صيدا ، والواقع بين صيدا وصور . اما المقداد بن الأسود ، وشداد بن أوس ، فيحتمل انهما كانا يرابطان في مكان ما من ساحل الشام ، وان كانت المصادر التاريخية لم تسعفنا بشيء عن ذلك .

بعلبك القاعدة الخلفية لامداد المرابطين في الحصون الامامية

اتخذ المسلمون من مدينة بعلبك قاعدة خلفية للجند المرابطين في الحصون الامامية ، ومركز امداد متوسط بين دمشق ، في الداخل ، وكل من بيروت وطرابلس

على الساحل . ومنها انطلق الجيش الاسلامي بقيادة عاملها الصحابي « سفيان بن مجيب الازدي » في خلافة عثمان بن عفان لفتح طرابلس حول سنة ٢٤ هـ . فرابط عندها أشهرا ، وقام ببناء أول حصن عربي في تاريخ المسلمين الحربي ، كان يخرج منه بجنده فيغيرون على المدينة في النهار ، ويبيتون ويتحصنون فيه ليلا ، حتى تم فتح المدينة حول سنة ٢٥ هـ .(١٣)

ولما كان الروم قد اخلوا طرابلس وباتت خاوية على عروشها ، وكان على جند بعلبك أن يعودوا الى قاعدتهم ، حسب الخطط العسكرية التي كان يضعها والي الشام معاوية ، فقد لجأ في اول الامر الى احضار جماعة كبيرة من يهود الاردن ، واسكنهم في حصنها الواقع عند طرف الرأس البري الداخل في البحر ، حيث تقوم الميناء الآن . (١٤) ولم يسكنها غيرهم لبضع سنين . (١٥ ولما كان عدد المرابطين من المسلمين الذين آثروا البقاء في السوحل غير كاف لرد غائلة البيزنطيين واعوانهم في البر والبحر ، فقد اتبع معاوية سياسة اقطاع الأراضي على العرب ، ليس لتكوين طبقة من المزارعين ، بل لتدعيم شأن المحاربين المرابطين في الثغور الخطرة ، فأغرى العرب بتملك الاراضي ليحل مشكلة اسكان الساحل وتأمين المدافعين عنه.(١٦) وكان الخليفة عثمان اصدر تعليماته الى معاوية يأمره فيها بتحصين السواحل وشحنها واقطاع من ينزله اياها قطائع ، ففعل .(١٧) ولكن العرب لم يتحمسوا لهذه الاغراءات على ما يبدو ، وبقيت مدن الساحل شبه خالية ، ولذلك اتجه معاوية عندما آلت اليه الخلافة الى الاستعانة بغير العرب ، فاستقدم الفرس من بعلبك وغيرها وانزلهم في سواحل الشام ، على مايقول « ابن واضح اليعقوبي » المتوفى سنة ٢٨٤ هـ :

« .. وبعلبك واهلها قوم من الفرس ، وفي اطرافها قوم من اليمن . وجبل الجليل واهلها قوم من عاملة . ولبنان صيدا وبها قوم من قريش ومن اليمن . ولجند دمشق من الكور على الساحل : كورة عرقة ولها مدينة قديمة فيها قوم من الفرس نأقلة ، وبها قوم من ربيعة من بني حنيفة . ومدينة اطرابلس واهلها قوم من الفرس كان معاوية بن أبي سفيان نقلهم اليها ، ولهم مينا عجيب يحتمل الف مركب . وجبيل ، وصيدا ، وبيروت ، واهل هذه الكور كلها قوم من الفرس نقلهم اليها معاوية بن أبي سفيان » (١٨)

ولم يوضح « اليعقوبي » تاريخ نقل الفرس الى طرابلس ، ولكن « البلاذري » يضع تاريخا لذلك عند حديثه عن انطاكية فيقول ان معاوية نقل اليها في سنة ٤٢ هـ . جماعة من الفرس وأهل بعلبك وحمص ، ومن المصرين (١٩) . ويذكر في موضع

آخر عن أحد الانطاكيين أن معاوية نقل من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية الى سواحل الأردن صور وعكا وغيرها سنة ٤٢ هـ . ونقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص الى أنطاكية في هذه السنة أو قبلها أو بعدها بسنة جماعة .(٢٠) وذكر « لبلاذري » عن محدث في مدينة صور هو « هشام بن الليث الصوري » أن مشايخه قالوا: « نزلنا صور والسواحل وبها جند من العرب وخلق من الروم . ثم نزع الينا أهل بلدان شتى فنزلوها معنا ، وكذلك جميع سواحل الشام » . (٢١) كذلك ذكر « الطبري » أسماء بعض وجوه أهل الكوفة وأشراف العراق الذين اخرجهم عثمان الى دمشق ، ثم اخرجهم معاوية الى حمص ، فقام واليها عبد الرحمن بن خالد بن الوليدفأنزلهم ساحل الشام واجرى عليهم رزقا والزمهم الدروب ، وذلك في سنة ٣٣هـ . (٢٢) ومن بعلبك نقل معاوية جماعه الى جزيرة قبرس عند فتحها في المرة الثانية سنة ٣٣ هـ . وبعث اليها باثني عشر الفا كلهم اهل ديوان ،فبنوابها المساجد ، وبنى بها مدينة . (٢٣)

ووضع معاوية نظاما دفاعيا خاصا بمدينة طرابلس لخطورة موقعها ، وكان هذا النظام يقضي ان يوجه اليها في كل عام جماعة كثيفة من الجند المسلمين يشحنها بهم ليدفعوا عنها العدو في حال اغارته عليها . وولى عليها عاملا من قبله . وكانت هده القوة تستبدل مرتين في العام الواحد لتظل معنويات الجند المرابطين مرتفعة ، فاذا انغلق البحر في الشتاء وعلت أمواجه واشتدت الريح وتعذر على المراكب الاستواء على ظهره والسير فيه ، عاد معظم الجنود من حيث اتوا الى دمشق، ولا يبقى في طرابلس سوى عاملها في جماعة يسيرة من الجند ، وعندما ينتهي فصل الشتاء وتهدأ أمواج البحر ويصبح الابحار فيه آمنا ، يقدم الجند الى طرابلس للمرابطة فيها من جديد .(٢٤) واستمر الوضع فيها على هذا المنوال في أيام « يزيد بن معاوية » (٦٠ — ٦٤ هـ . / ٦٨٠ — ٦٨٤ م .) و «معاوية بن يزيد » (حكم ٤٠ يوما) ، و « مروان بن الحكم » (٦٤—٦٥هـ . / ٦٨٤—٦٨٥ م.) حتى أيام « عبد الملك بن مروان » ، الذي قام باعادة بناء حصنها البحري .(٢٥) وجدد عمارة المدنية وحصنها وأسكنها المسلمين « فصارت آمنة عامرة مطمئنة » .(٢٦) ووضع لها نظاما مشابها لنظام معاوية ، فكان يرسل اليها جندا من دمشق فيرابطون فيها خلال الصيف ، أما في الشتاء فكان يوجه اليها جندا من بعلبك .(٢٧) كما شملت عنايته كلا من صور وعكا ، فجدد حصنهما بعد خرابهما . (٢٨) وكذلك فعل بقيسارية وعسقلان . .(٢٩) واقطع لفرس بعلبك خمس مدينة طرابلس . فنزلوها ورابطوا فيها . (٣٠)

الامام الأوزاعي ينتقل من بعلبك الى بيروت للرباط

وكما كانت بعلبك رافدا للمدن الساحلية بالجند والمرابطين ، فقد اخرجت علما من أعلام المذاهب الفقهية في الاسلام ، هو الامام « أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي » ، الذي ولد فيها سنة ٨٨ هـ . واخذ العلم في بلده الكرك التي تعتبر من أعمال بعلبك ، وتعرف بكرك نوح ، ثم استقر في بيروت مرابطا ومكتتبا في ديوان الساحل ، وهذا التعبير يقصد به ، حسب تعريفنا الحاضر : دائرة تجنيد حرس السواحل . فكان احد أفراد الحرس في بيروت ، يخرج في الغزوات والبعوث العسكرية التي كانت توجهها الدولة ، فاكتتب مرة في بعث الى اليمامة (٣١) وكان يأخذ العطاء كغيره من جند الساحل المرابطين ، الى أن أصبح عالما للجند في العصر الأموي .

ولقد كانت بيروت حتى نهاية القرن الأول الهجري لاتزال تتمثل بأخلاق الصحابة والتابعين الذين نزلوها ورابطوا فيها ، وتحيا بزهادها وحكم أقوالهم ، وبلاغة مقصدهم وغاياتهم ، وتواضعهم في الملبس والمظهر ، مثل « حيان بن وبرة المري » صاحب أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، الذي كان يجتمع عليه الناس في مسجدها ليسمعوا منه ، وهو يلبس قميص كرابيس (قطن) الى نصف ساقيه ، وعمامة وقلنسوة صغيرة ، وثياب رثة .(٣٢) وهذا ما استهوى الامام الاوزاعي حين فكر بالنزول فيها . ولقد عزم أن ييمم نحوها اثر حوار قصير دار بينه وبين امرأة سوداء في مقبرة المدينة ، حيث قال :

جئت الى بيروت ارابط فيهافاعجبني انني مررت بقبورها، فاذا امرأة سوداء في القبور ، فقلت لها :

ــ أين العمارة ياهنتاه ؟

فقالت لي :

ــ ان اردت العمارة فهي هذه ، ــ واشارت الىالقبور ــ وان كنت تريد الخراب فأمامك ــ واشارت الى البلد .

فقلت :

ــ هذه سوداء تقول هذا ! لاقيمن بها .

فأقمت ببيروت .(٣٣)

واتخذ الاوزاعي لنفسه مسجدا كان يشغله بالفتيا ودروس الفقه والحديث ،

فيغش مجلسه الجمع الوفير من الطلبة والمشتغلين بالعلم ، فمر بمجلسه « إبراهيم ابن ادهم » ذات يوم ، فرأى حوله حلقة كبيرة من طلاب الحديث ، فقال : على هذا عهدت الناس ، كأنك معلم وحولك الصبيان ، لو أن هذه الحلقة على أبي هريره لعجز عنهم فقام الأوزاعي وتركهم .(٣٤)

ويبدو أن الحياة أخذت تتبدل ملامحهـا في بيروت بعد قيام الدولة العباسية وانفتاح مينائها لاستقبال سفن التجار الافرنج من مرسية ، (٣٥) وبدأ الابتعاد عن المفاهيم الدينية . والتحلل من بعض الامور السلوكية يسود المجتمع الاسلامي في المدينة ، حتى أن قاضيها خطب في الناس بعد أن لمس استشراء الفساد ، فقال لهم في خطبته : ان لحاكم نبتت على الضلالة فاحلقوها حتى تنبت على الطاعة وحمل الناس كلهم على حلق لحاهم . ويروي شاهد عيان هو (سعيد بن عبد العزيز البيروتي) : انك كنت لاتلقى احدا في اسواق بيروت الا محلوق اللحية . (٣٦)

وخرج الأوزاعي يومامن باب مسجد بيروت ، وهناك دكان فيه رجل يبيع الناطف (نوع من الحلويات) بجوار درج المسجد . رالى جانبه صاحب دكان يبيع البصل ، وهو يقول : يابصل أحلى من العسل ، أو قال : أحلى من الناطف . فقال الأوزاعي : سبحان الله ! أيظن هذا ان شيئا من الكذب يباح ؟! فكأن هذا مايرى في الكذب بأسا . (٣٧)

ونجاه هذا الواقع الذي آلت اليه أحوال الناس في بيروت . والتي كانت تعكر صفو المرابطين من الزهاد والعباد والصالحين المتمسكين بالمثاليات ، فقد عبر الامام الأوزاعي عن رأيه في أن بيروت لم تعد خير مثال للمرابطين ، وهو بات يفضل الرباط في صور عليها ، ونتبين ذلك من رواية لحسان بن سليمان الساحلي يقول فيهـا :

(كنت رفيقا لسفيان الثوري فحبب الي الرباط ، فقلت له : اني أحببت الرباط واني لأحب أن ترتاد لي موضعا أحبس فيه نفسي بقية أيامي . فقال لي : ان الاوزاعي بالشام ، فأته ، فانه لن يدخر عنـك نصيحة . فأتيت بيروت فبت فيها فلما صليت الغداة مع الجماعة قلت لرجل الى جانبي : أيهم الاوزاعي فأشار اليه بيده ، وكان مستقبل القبلة . وكان اذا صلى لم يلتفت عن القبلة حتى تطلع الشمس فاذا طلعت أسند ظهره الى القبلة ، فمن سأله عن شيء أجابه . فقلت : ان يكن عند أحد خير من سفيان فعند هذا الرجل ، فتقدمت وسلمت عليه ، فقال لي : كيف تركت أخي سفيان ؟ فقلت له : بخير ، وهو يقرئك السلام . ثم قلت : اني

كنت رفيقا له زمانا ، وأخبرته بخبري . فقال : عليك بصور فانها مباركة مدفوع عنهـا الفتن ، يصبح فيها الشر فلا يمسي ، ويمسي فيها فلا يصبح . قبر نبي في اعلاهـا . فقلت له : تشير علي بصور ، وانت في بيروت ؟! فقال لي : سبق المقدور ولو انني استقبلت من امري مااستدبرت ماعدلت بها بلدا) . (٣٨)

وعندما تحول أمر الخلافة الي العباسيين اصبحت الاعطيات لاتقوم بالكفاية كما كان الامر أيام بني امية ، مما دفع بالأوزاعي لان يأخذ المبادرة ويكتب الى الخليفـة ابي جعفر المنصور يصف حال الجند المرابطين في الساحل ومايواجهونه من خطـر الغزو ، ووطأة البرد ، وقلة المال مع غلاء الاسعار ، وحفظ لنا « ابن ابي حاتـم الرازي » المتوفى سنة ٣٢٧هـ. نص رسالة الأوزاعي الى المنصور ، والتي نثبتها هنا لما تضمنته من معلومات عن حال المرابطين في السواحل صيفا وشتاء ، والحياة القاسية التي يواجهونهـا .

(رسالة الأوزاعي الى أمير المؤمنين شفاعة في زيادة أرزاق اهل الساحل)

قال عبد الرحمن بن ابي حاتم : حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد ، قراءة قال : أخبرني ابي عن الأوزاعي انه كتب :

(.. امـا بعد ولى الله لامير المؤمنين اموره بمـا ولى به أمـور مـن هـدى واجتبى وجعله بهـم مقتديا ، فـان امير المؤمنين اصلحه الله كتب الي الا أدع اعلامه كلما فيه صلاح عامة وخاصة . فان الله عز وجل يأجر علـ[illegible]ـن عمل بـه ويحسن عليه الثواب . وانا اسأل الله عز وجل ان يلهـم امير المؤمنيـن مـن أعمال البر مايبلغه به عفوه ورضوانه في دار الخلود . وقد كان أمين المؤمنين ـ حفظه اللهـ قصر باهل الساحل على عشرة دنانير في كل عام سلفا من عطياتهم . وامين المؤمنيـن ـ اصلحه الله ـ ان نظر في ذلك عرف أنه ليس في عشرة دنانير لامريء ذي عيـال عشرة . او ادنى من ذلك أو اكثر كفاف وان قوّت عشرة وقتر على عياله . فربما جمع الرجل عشرته في غلاء السعر في شراء طعام لعياله مايجد منه بدا . ثم يـدان بعد ذلك في ادامهم وكسوتهم وماسوى ذلك من النفقة عليهم في عشـرة لقابل . ولو اجرى عليهم امير المؤمنين ـ اصلحه الله ـ في أعطياتهم سلفا في كل عام خمسة عشر دينارا ماكان فيها عن مصلح ذي عيال فضل ولاقدر كفاف . واهل السـاحـل بمنزل عظيم غناؤه عن المسلمين . فانه لايستمر لبعوث أمير المؤمنين فصول الـى ثغوره . ولاسياحة في بلاد عدوهم حتى يكون من وراء بيضتهم واهل ذمتهم بسواحل الشام من يدفع عنهم عدوا ان هجم عليهم . وانهم اذا كان القيظ تناوبوا الحـرس على ساحـل البحر رجالا وركبانا ، واذا كان الشتاء قاسوا طول الليل وقـره

ووحشته حرسا في البروج ، والناس خلفهم في اجنادهم في البيوت والادفناء . فان راى أمين المؤمنين – حفظة الله – ان يأمر في اعطياتهم قدر الكفاف ، ويجريه عليهم في كل عام فعل . وقدتصرمت السنة التي كانت تأتيهم فيها عشراتهم ، ودخلوا في غيرها ، حتى اشتدت حاجتهم وظهر عليهم ضرها . وهم رعية امير المؤمنين والمسؤول عنهم ، فانه راع وكل راع مسؤول عن رعيته . وقد بلغنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (انه لحبيب الي ان افارق الدنيا وليس منكم احد يطلبني بمظلمة في نفسه ولاماله) . اتم الله على الامير نعمته واحسن بلاءه في رعيته .

وقد قدم علينا رسول امير المؤمنين – اصلحه الله – بالعطية من النفقة والكسوة التي امر امير المؤمنين – عافاه الله – بقسمها في اهل الساحل فقسمناها فيهم من دينار لكل رجل ودينارين . وقل المال عن اليتامى والارامل فلم يقسم فيهم منه شيء ، واليتامى والارامل وهم من المساكين في الوجوه الثلاثة في كتاب الله عز وجل من الصدقات ، ومن خمس المغانم ، وما افاء الله على رسوله والمؤمنين من اهل القرى ، فان راى امير المؤمنين – اصلحه الله – ان يبعث بما يقسم فيهم فعل . جعل الله امير المؤمنين برسوله صلى الله عليه وسلم متشبها في رافته ورحمته بالمؤمنين ،واتم عليه نعمته ومعافاته والسلام عليكم ورحمة الله) .(٣٩)

ابراهيم بن ادهم يرابط في صور

كانت مدينة صور عند فتوحات المسلمين الاولى تعتبر من اجناد الاردن ، ولذلك قال – ابن الفقيه الهمداني – ان صور منبرها الى دمشق وخراجها الى الاردن (٤٠) وهي مدينة حصينة على البحر ، بل فيه ، يدخل اليها من باب واحد على جسر واحد ، قد احاط البحر بها ، ونصفها الداخل حيطان ثلاثة بلا ارض تدخل فيه المراكب كل ليلة ، ثم تجر السلسلة كي لايعبر عليها الروم في الليل . ويدخل اليها الماء في قناة معلقة ، وهي نصفان : نصف كبس ، ونصف حيطان في الماء مثل عكا . وهي مدينة جليلة نفيسة ، بها صنائع كالبصرة ، ولاهلها خصائص . و[illegible] اكثر سكر الشام ، ولهم ماء غزير ، ومزارع القصب بها كثير وبينها وبين عكا شبه خليج ، ولذلك يقال : عكا حذاء صور الا انك تدور ، يعني : حول الماء (٤١) .

وقد صرف (هشام بن عبدالملك) (١٠٥ – ١٢٥ هـ/٧٢٤ – ٧٤٣م .)عنايته الى تدعيم السواحل ، وفي عهده انتقلت صناعة السفن من عكا الى صور . وحول

ذلك يروي (البلاذري) ان رجلا من عكا كان يملك ارحاء ومستغلات ، فأراد هشام ان يشتريها منه ، فأبى الرجل ، وعند ذلك نقل هشام الصناعة الى صور واتخذ بها فندقا ومستغلا . وظلت صناعة المراكب في ميناء صور منذ ذلك الوقت ، حتى عهد المتوكل العباسي (٤٢) ولذلك ذكر اليعقوبي في البلدان : ولجند الاردن من الكور : صور ، وهي مدينة السواحل ، وبها دار الصناعة ، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم . وهي حصينة جليلة ، واهلها اخلاط من الناس)(٤٣)

ومنذ القرن الثاني الهجري اخذت صور تنافس بيروت كحصن وثغر للمرابطين حتى أن الامام الاوزاعي كان يتمنى لو رابط فيها بدل بيروت ، ونصح حسان بن سليمان الساحلي أن يرابط فيها ، كما مر .

واشهر من نزل مدينة صور من المرابطين الزاهد المشهور ـ ابراهيم بن ادهم ـ اصله من كورة بلخ ، وكان من ابناء الملوك . دخل مكة وصحب بها سفيان الثوري ، وغيره ، ثم دخل الشام واجتاز بساحل لبنان حول منتصف القرن الثاني ، فدخل جبيل واقام فيها مدة ، وعقد مجالس للحديث والرواية ، فقصده الطلبة وسمعوه في جامعها ، وكان منهم « خلف بن تميم الدارمي » ، وقد حدث عنه فقال : « لقيت ابراهيم بن ادهم بجبيل ، فقلت له : هنيئا لك الرباط والجهاد . فقال : ما قدمت الشام مرابطا ولامجاهدا ، وانما قدمتها لاشبع من خبز الحلال ، تراني احمل هذا الحطب من الجبل فأبيعه ، فلا يراني احد الا وقال : فلاح او حمال .(٤٤)

وانتقل ابن ادهم الى بيروت فأقام فيها مدة ، وتردد على الامام الاوزاعي وسمعه الاوزاعي ايضا وحكى عنه . وكذلك سمعه ببيروت : ابو الحسن علي بن بكار البصري الزاهد الذي سكن طرطوس والمصيصة مرابطا (٤٥) ، وسهل بن هاشم الواسطي البيروتي نزيل دمشق (٤٦) ، وصحبه ببيروت وساحل الشام وبغزواته البحرية ، بقية ابن الوليد المتوفى سنة ١٩٧هـ . (٤٧)

وانتقل اخيرا الى صور ورابط بالثغر ، واطال المقام فيها حتى استشهد وهو يجاهد في سبيل الله وذودا عن سواحل الشام ضد قراصنة الدولة البيزنطية الذين كانوا يدابون على الاغارة بشكل مستمر على السواحل العربية الاسلامية . وعن نزوله مدينة صور يذكر « ابو نعيم الاصبهاني » هذه الرواية :

« قال ابو محمد القاسم بن عبد السلام : حدثنا فرج مولى ابراهيم بن ادهم بصور سنة ١٨٦ ـ وكان اسودا ـ قال : كان ابراهيم بن ادهم راى في المنام كأن الجنة فتحت له ، فاذا فيها مدينتان ، احداهما من ياقوتة بيضاء ، والاخرى

من ياقوتة حمراء ، فقيل له : اسكن هاتين المدينتين فانهما في الدنيا ، فقال : ما اسمهما ؟ قيل : اطلبهما ، فانك تراهما كماأوريتهما في الجنة ، فركب يطلبهما فراى رباطات خراسان فقال : يافرج ، ماأراهما ! ثم جاء الى قزوين ، ثم ذهب الى المصيصة والثغور ، حتى آتى الساحل في ناحية صور ، فلما صار بالنواقير ـ وهي نواقير نقرها سليمان بن داود على جبل على البحر ـ فلما صعد عليها راى صور فقال : يافرج ، هذه احدى المدينتين ، فجاء حتى نزلها ، فكان يغزو مع أحمد ابن معيوف ، فاذا رجع نزل يمنة المسجد ، فغزا غزوة فمات في الجزيرة ، فحمل الى صور ، فدفن في موضع يقال له « مدفلة ». فأهل صور يذكرونه في تشبيب اشعارهم ، ولايرثون ميتا الا بداوا اولا بابراهيم بن ادهم . قال القاسم بن عبد السلام : قد رأيت قبره بصور . والمدينة الاخرى : عسقلان » . (٤٨)

اما « ابن معيوف » الذي كان ابن ادهم يغزو معه ، فهو في « حلية الاولياء »: (أحمد) وعند « البلاذري » : (حميد ـ تصغير أحمد) وقد قام بغزو جزيرة اقريطش (كريت) وفتح بعضها في خلافة هرون الرشيد (٤٩) . والمحفوظ حسب تعبير ابن عساكر ـ ان ابن ادهم توفي سنة ١٦٢ هـ . وحول تلك الفترة كان يلي الغزو وامارة البحر في ساحل الشام على عهد الخليفة المهدي بن المنصور (١٥٨ ـ ١٦٩هـ . / ٧٧٥ ـ ٧٨٥م .) كل من :

★ الغمر بن العباس الخثعمي ، وقيل السكسكي .

★ عبد الله بن الاسود المحاربي

★ جرير بن عبد الله العبسي .

وقد ولي « الغمر بن العباس » غازية البحر بعد « عامر بن ربيعة السلمي في عهد ابي جعفر المنصور ، وقام بغزوتين في سنتي ١٦٠ و ١٦١ هـ غير ان المصادر التاريخية لم تفصح عن وجهة تينك الغزوتين . (٥٠) أما المحاربي والعبسي فلم تتحدث تلك المصادر عن جهودهما بشيء . ومن رواية « أبي نعيم » يتبين لنا ان « ابن معيوف » كان يغزو في بحر الشام في عهد المهدي بن المنصور ، ثم في عهد هرون الرشيد .

وحسب قول « اليعقوبي » و « الطبري » وابن تغري بردي فانه كان يلي سواحل بحر الشام الى مصر . وهو الذي نزل على جزيرة قبرس في سنة ١٩٠هـ . بأسطول ضحم « فهدم وحرق وسبى من اهلها ستة عشر ألفا » . (٥١)

ولقد خرج بن أدهم في عدة غزوات بحرية كما يبدو من « حلية الاولياء » لابي نعيم ، وكان معه في بعضها : بقية بن الوليد (٥٢) ، وابو رجاء الهروي ، (٥٣) وفديك ، وابو المرتد : (٥٤) وغزا غزوتين في البحر ولم يأخذ سهمه من الغنائم او يفترض ، (٥٥) وذلك زيادة في زهده .

وكان بن ادهم يعيب على سفيان الثوري تركه للرباط بعد ان رابط بثغر عسقلان اربعين يوما . (٥٦) وكان يقدم الاوزاعي على سفيان ، لان الاوزاعي ظل يرابط في بيروت حتى توفي بها سنة ١٥٧هـ . بينما ترك الثوري الرباط وهو لايزال صغيرا في السن وحين سئل ابن ادهم عن تعليل الثوري في ترك الغزو والرباط هو واصحابه اجاب : ان سفيان كان يقول : انهم يضيعون الفرائض !. (٥٧)

ولقد خرج بن ادهم في احدى الغزوات مع امير البحر « ابن معيوف » الى جزيرة من جزائر البحر الرومي ، فنزل عليها ورابط فيها حيث مات هناك وهو على نية الجهاد شهيدا . قال « ابو عبد الله الجوزجاني » رفيق ابراهيم بن ادهم :

« غزا ابراهيم في البحر مع اصحابه ، فقدم اصحابنا فاخبروني عن الليلة التي مات فيها ، فقالوا : انه اختلف خمسة أو ستة وعشرين مرة الى الخلاء ، وفي كل مرة يجدد الوضوء ، وكان به البطن ، فلما كانت عشية الموت ، قال : أوتروا لي قوسي ، فأوتروه ، فقبض عليه ، فمات وهو قابض عليه يريد الرمي به الى العدو فدفناه في بعض الجزائر ببلاد الروم » .(٥٨)ويحدد الامام البخاري مكان مدفن ابن ادهم فيقول انه ب « سوفنن » حصن بلاد الروم . (٥٩) ويؤيد كل من «ابن حبان» و «ابن عساكر» انه دفن في احدى جزر بلاد الروم غازيا سنة ١٦١هـ.(٦٠) فيما ينفرد « ابو نعيم الاصبهاني » بأن المسلمين اتوا بابن أدهم بعد غزوتهم فدفنوه في صور .

وجاء في حاشية احدى نسخ « فوات الوفيات » ان وفاة ابن ادهم كانت في الساحل قريبا من طرابلس وليس في جزيرة . (٦١)وذهب بعضهم الى انه توفي بدمشق ودفن في مرج غوطتها . (٦٢) ولكن المشهور ان ضريحه في جبلة على الساحل وهو معروف الى الان .

مرابطون آخرون

يمكن القول ان معظم المسلمين الذين كانوا يسكنون ثغور الشام الساحلية يصح وصفهم بالمرابطين . ولكن المصادر التاريخية وكتب الطبقات وتراجم الرجال وغيرها

لم تصرح الا باسماء العدد القليل من الذين وصفوا بانهم من المرابطين ، مع جماعة الزهاد وامراء البحر ، والغزاة في البر والبحر ، وولاة المدن الساحلية وقضاتها .

ونقتصر هنا على ايراد اسماء الذين نصت كتب التاريخ على انهم نزلوا ساحل الشام للرباط ، غيرالذين سبق ذكرهم في هذه الدراسة :

❋ اسماعيل بن عبيد الله بن ابي المهاجر مولى بني مخزوم

قال الأوزاعي : قدم علينا مرابطا ببيروت زمن « مروان بن محمد » آخر خلفاء بني أمية (١٢٧ – ١٣٢ هـ) . وكان اسماعيل متشددا ضد القدريين = المعتزلة ، وحين رأى الأوزاعي ظن أنه منهم ، فجبذه وقال له : اني أراكن من هؤلاء القوم ، يعني القدرية ، فلعلك منهم ! فقال الاوزاعي : لا والله ما انا منهم . وكان يؤدب أولاد عبد الملك بن مروان ، واستعمله عمر بن عبد العزيز على افريقية سنة ١٠٠ هـ . فأسلم عامة البربر في ولايته ، وكان حسن السيرة . ولد سنة ٦١هـ . وأدرك معاوية وهو صغير ، وتوفي سنة ١٣٢ هـ . (٦٣)

❋ حسان بن سليمان ، ابو علي الساحلي

نزل بيروت للرباط ، ثم انتقل الى صور فرابط فيها . سمع سفيان الثوري ، والامام الأوزاعي . روى عنه ابو حفص عمر بن الوليد الصبوري .(٦٤) وقد مر ذكره .

❋ سعيد بن أبي سعيد البيروتي الساحلي ، أبو سعيد بن كيسان المقبري

كان ثقة كثير الحديث ، لكنه كبر واختلط قبل موته بثلاث سنين . كان قدم الشام مرابطا وحدث ببيروت ، فسمعه بها : عبد الرحمن بن يزيد بن جابر .

توفي سنة ١٢٣هـ .(٦٥)

❋ سعيد بن خالد بن أبي طويل القرشي الصيداوي (ويقال البيروتي)

محدث من أهل صيدا . يروى عن انس بن مالك ، وواثلة بن الأسقع . روى عنه : محمد بن شعيب بن شابور البيروتي ، واسماعيل بن عياش الحمصي . له في « سنن ابن ماجة » حديث واحد في الرباط . (٦٦)

❋ سليم بن أيوب بن سليم ، أبو الفتح الرازي

الشيخ الفقيه الأديب المفسر الشافعي . تفقه وهو كبير لأنه كان اشتغل في

صدر عمره باللغة والنحو والتفسير والمعاني ، ثم لازم الشيخ ابا حامد الاسفرايني . وبعد وفاة شيخه جلس للتدريس مكانه في بغداد ، ثم سافر الى الشام ونزل ثغر صور مرابطا ينشر العلم ، فتخرج عليه ائمة من اهلها ونزلائها . وكان يقول : وصعنت مني صور ، ورفعت بغداد من أبي المحاسن بن المحاملي :

له تصانيف مشهورة وكثيرة في الفقه ، وهو اول من نشر هـذا العلم بصور . وقد غرق في بحر القلزم عند ساحل جدة بعد عودته من الحج في شهر صفر سـنة ٤٤٧هـ .(٦٧) .

* عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان الشامي الدمشقي

احد العباد الأولياء . كان ينزل صيدا . حكى عنه ابراهيم بن مخلد الجبيلي . ويظهر انه كان يرابط في ساحل الشام ثم انقطع عن ذلك فعاتبه الامام الأوزاعي في كتابه اليـه بقوله :

« .. فقد كنت بحال ابيك لي وخاصة سريرته ، ، فرايت ان صلتي اياه تعاهدي اباك بالنصيحة في اول مابلغني عنك من تخلفك عن الجمعة والصلوات ، فجددت ولججت ، ثم برزتك فوعظتك ، واجبتني بما ليس لك فيـه حجة ولا عذر .. وقد كنت قبل وفاة ابيك ــ رحمه الله ــ ترى ترك الجمعة والصلوات في الجماعة حراما . فأصبحت تراه حلالا ، وكنت ترى عمارة المساجد من شرف الأعمال فأصبحت لـه هاجرا ، وكنت ترى ان ترك عصابتك من الحرس في سبيل الله حرجا فأصبحـت تراه جميلا .. وقد كنت في ثلاث سنوات مررن ــ والمساجد والديار تحرق ، والدماء تسفك ، والأموال تنتهب ــ مع ابيك لاتخالفه في ترك جمعة ولاحضور صلاة مسجد ، ولا ترغب عنه حتى مضى لسبيله » .

مات بحدود سنة ٢٦٧ هـ . (٦٨)

* عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد ، ابو زرعة الرازي

الحافظ المؤرخ ، احد الائمة الجوالين والحفاظ المتقنين . رحل لطلب العلم ، فنزل بيروت في رحلته ورابط فيها ، وقال : لا أعلم انه صح لي رباط يوم قط الا ببيروت . وقد سمع : عبد الله بن محمد بن بشير بن ذكوان البعلبكي ، وعبد الحميد بن بكار ، وعمرو بن هاشم ، والعباس بن الوليد البيروتيين . وكتب بالري قبل أن يخرج الى العراق عن نحو ثلاثين شيخا ، وخرج الى الري ثانية سنة ٢٢٧ ورجـع في اول سنة ٢٣٢ ثم خرج الى مصر ، والشام ، والجزيرة ، وعاد الى بغداد

والكوفة والبصرة ، جالس الامام احمد بن حنبل وذاكره ، وكان يقول : ان في بيتي ماكتبته منذ خمسين سنة ، ولم إطالعه منذ كتبته ، واني اعلم في اي كتاب هو ، في اي ورقة هو ، في اي صفحة هو ، في اي سطر هو . وكان احمد بن حنبل يقول: صح من الحديث سبعمائة الف حديث وكسر ، وهذا الفتى يعني ابا زرعة ــ قد حفظ ستمائة الف .

ولد سنة ٢٠٠ وتوفي بالري اواخر سنة ٢٦٤هـ.(٦٩)

* علي بن احمد بن يوسف ، ابو الحسن القرشي الأموي الهكاري

محدث متصوف ، يعرف بشيخ الاسلام .نزل صيدا وصور ، وطاف بجبل لبنان ، فسمع بصيدا : الحسن بن محمد بن جميع الصيداوي المعروف بالسكن ، وابا الفرج عبد الوهاب بن الحسين بن عمر بن برهان ، وبصور : ابا القاسم سعيد بن محمد الاندلسي . وله سماع بمصر ، وبغداد ، والرملة ، والموصل ، وحلب ، والقدس ، ومكة .

قال السمعاني : تفرد مدة بطاعة الله في الجبال وابتغى له اربطة ، مواضع يأوي اليها الفقراء والصالحون . وكان كثير الخير والعبادة ، مقبولا ونورا .. توفي في أول المحرم سنة ٤٨٦هـ. (٧٠)

★ القاسم بن شهر ، ابو سفيان الدمشقي

مرابط من اهل دمشق ، انقطع الى ساحل لبنان وثغوره ، فرابط نحوا من خمس واربعين سنة . سمعه ابو بكر عثمان بن سعيد بن ابي كريمة الصيداوي في شهر شعبان سنة ١٩٧ هـ وحكى عنه انه كان بساحل دمشق مرابطا . الى ان وقعت فتنة هناك وكثر البلاء ، فتنحى عن موضعه ، وخرج الى ذروة جبل لبنان مما يقبل على الساحل ، في موضع يقال له « هرميسا » بأصل قرية يقال لها « ملخ » (؟) من كورة صيدا ، فمكث هناك زمانا طويلا . والتقى هناك بشيخ حدثه عن فتنة وقعت بين أهل صيدا . وجماعة عرفوا بـ « الصارمية » ثم ذكر له الصلح بينهما (٧١)

اقول : ان هذه المعلومة عن الفتنة بساحل الشام لم اجد لها ذكرا في اي مصدر اخر . كما لم اعرف من هم « الصارمية » الذين وقعت الفتنة بينهم وبين الصيداويين ، ولافي أي سنة كان ذلك . وهي معلومة تستحق التقصي والبحث .

لانها تكشف لنا صفحة من تاريخ ساحل الشام في النصف الثاني من القرن الثاني الهجــري .

★ الليث بن تميم الفارسي الطرابلسي

من أهل ساحل دمشق ومن غزاة البحور . نسبه الحافظ « ابن عساكر » الى طرابلس وقال انه من أهلها ، وذكره في معرض روايته لفتح طرابلس على يــد « سفيان بن مجيب الازدي » . وهو والد هشام الذي يروي عنه « البلاذري » في فتوح البلدان . ويظهر أنه فارسي الاصل ممن اتى بهم معاوية بن أبي سفيــان وأسكنهم سواحل الشام . وانتقل هو وابنه الى صور فنسب اليها . وفي ذلــك يقول « البلاذري » : « حدثني هشام بن الليث قال : حدثني أشياخنا قالوا : نزلنا صور والسواحل وبها جند من العرب وخلق من الروم . ثم نزع الينا أهل بلدان شتى فنزلوا معنا وكذلك جميع سواحل الشام » .

والليث هو أخو « أبي خراسان الفارسي » الذي كان يغزو في البحــر وكان الليث ممن غزا على اسم « عمر بن هبيرة » وعطائه ، اذ ولاه سليمان بن عبد الملك غازية البحر ، فرافق الليث اخاه أبا خراسان في غزوة الى القسطنطينة (٧٢) سنة ٩٧ هـ/٧١٦ م . (٧٣) وكان اخوه « ابو خراسان » يتولى غزو البحر الشامي في عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ ٢/٧٠٥ ـ ٧١٥ م . ثم فيعهد سليمان ابن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ . / ٧١٥ ـ٧١٨م .) (٧٤) .

المصادر والحواشـــي

(١) الفتان : بفتح الفاء ، وروي بضمها : جمع فاتن . قال القرطبي : ويكون للجنس أي كل ذي فتنة .

(٢) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ـ عبد القادر بدران ـ ج ١٧٧/٣

(٣) التاريخ الكبير ـ البخاري ـ مجلد ١ ق١ ج٣٩٤/١

(٤) تاريخ دمشق ـ ابن عساكر ـ تحقيق د.صلاح الدين المنجد ـ ج٢٧١/١

(٥) تاريـخ دمشق ـ ابن عساكر ـ نسخة خطية بالخزانة التيمورية بدار الكتـب المصريـة رقم (١٠٤١) تاريخ ـ ج١٢٤/٦ و ٤٠٨/١٥ ، خلاصة تذهيب الكمال ـ الخزرجي ١٣٧ ، كتاب المجروحين والضعفاء والمتروكين ـ ابن حبان ـ ج٣١٧/١ ، تهذيب التهذيب ـ ابن حجر ١٩/٤ ، تقريب التهذيب ـ ابن حجر ٢٩٣/١ ، الكاشف ـ الذهبي ٣٥٨/١ ، لسان الميزان ـ ابن حجر ١٣٢/٢

(٦) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ تحقيق د.صلاح الدين المنجد ـ ق١٥٠/١

(٧) تاريخ ابن زرعة ـ عبيد الله بن عبد الكريم ـ تحقيق شـكر الله الفرجاني ـ مجمـع اللغـة العربية بدمشق ـ ج٢٢٢/١ ـ طبعة ١٩٨٠ ، انسـاب الاشراف ـ البلاذري ـ تحقيـق د . محمد حميد الله ـ ج١٨٨/١ مصر ١٩٥٩ ، تاريخ بغداد ـ الخطيب البغدادي ١٦٣/١ ـ ١٧١ ، تاريخ دمشق (المخطوط) ٩٢/١٦ و ٣٧٨/٢٤ ، تهذيب تاريخ دمشق ١٩٧/٦ ، تهذيب التهذيب ١٣٧/٤ ، طبقات ابن سعد ٦٦/٢ ، المعارف ـ ابن قتيبة ٢٧٠ و ٢٧١ ، تاريخ الاسلام ـ الذهبي ـ نشره القدسي ـ ج٢/ ١٥٨ .

(٨) تهذيب التهذيب ـ ابن حجر ٤٦٤/١

(٩) تاريخ دمشق (المخطوط) ٩٢/١٦ و ٣٧٨/٢٤

(١٠) التاريخ الكبير ـ البخاري ـ ج١٣٥/٤

(١١) صورة الارض ـ ابن حوقل ـ طبعة المثنى ـ ص ١١٦

(١٢) فتوح البلدان ـ ق١٨١/١ ، تاريخ الرسل والملوك ـ الطبري ـ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ـ طبعة دار المعارف المصرية ـ ج٢٦٢/٤

(١٣) تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور ـ د . عمر عبد السلام تدمري ـ طبعـة دار البلاد للاعلام بطرابلس ـ لبنان ١٩٧٨ ـ ج٦٨/١ ـ ٧٠

(١٤) فتوح البلدان ق١٥١/١

(١٥) تاريخ دمشق ٧٧/١٦

(١٦) الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ـ فتحي عثمان ـ طبعة القاهرة ١٩٦٦ ـ ج١/٣٣٨

(١٧) فتوح البلدان ق١/١٢٧ ، العرب والارض في بلاد الشام في صدر الاسلام ـ د.عبد العزيز الدوري ـ (عن : تاريخ بلاد الشام) ـ ص ٢٨ ـ طبعة الجامعة الاردنية ١٩٦٢

(١٨) البلدان ـ اليعقوبي ـ ص ٣٢٧

(١٩) فتوح البلدان ق١/١٧٥

(٢٠) فتوح البلدان ق١/١٧٥

(٢١) فتوح البلدان ق١/١٤٠

(٢٢) أنساب الاشراف ـ البلاذري ـ طبعة القدس ـ ج ٥/٤٣ ، طبعة المعهد الالماني ببيروت ، تحقيق د.احسان عباس ١٩٧٩ ـ ج١ ق٤/٥٣٢ ، الطبري ٤/٣٢٦

(٢٣) فتوح البلدان ق١/١٨٢

(٢٤) فتوح البلدان ق١/١٥١

(٢٥) فتوح البلدان ق١/١٥١ ، الكامل في التاريخ ـ ابن الاثير ـ طبعة دار صادر ببيروت ـ ج٢/٤٣١

(٢٦) البداية والنهاية في التاريخ ـ ابن كثير ج١٣/٣١٣ ، عقد الجمان ـ بدر الدين العيني ـ نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم (١٥٨٤ تاريخ) ـ ج٢٠ق٤/٧٢١

(٢٧) تهذيب تاريخ دمشق ١٨٣/٦ ، الحدود الاسلامية ـ ج١/٣٦١

(٢٨) من تاريخ التحصينات العربية في ساحل الشام ـ د.محمد عبد الهادي شعيره ـ طبعة جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٦٣ ـ ص ٤٣١

(٢٩) فتوح البلدان ق١/١٤٠ و ١٧٠

(٣٠) تاريخ دمشق (المخطوط) ٧٨/١٦

(٣١) البداية والنهاية ١١٦/١٠

(٣٢) تاريخ دمشق (المخطوط) ١٧/٥ و ١٩ ، الجرح والتعديل ـ ابن أبي حاتم الرازي ـ طبعة حيدر اباد ١٩٥٢ ـ ج٣/٢٤٥ ، التاريخ الكبير ـ البخاري ـ ق١ج٢/٢٣٥، من حديث خيثمة ابن سليمان القرشي الاطرابلسي ـ حقيق د.عمر عبد السلام تدمري ـ طبعة دار الكتاب العربي ببيروت ١٩٨٠ ـ ص ١١

(٣٣)تاريخ دمشق ١٨٤/٢٣ ، تاريخ الاسلام ٤١٢/٦ ، البداية والنهاية ١١٨/١٠

(٣٤) تهذيب تاريخ دمشق ١٧٥/٢ ، البداية والنهاية ١٣٧/١٠

(٣٥) تاريخ دمشق (المخطوط) ١٨/٦ ، تهذيب تاريخ دمشق ٤٧/٣

(٣٦) تاريخ دمشق ٥٧٩/١٥

(٣٧) تاريخ دمشق ١٨١/٢٣ ، البداية والنهاية ١١٩/١٠

(٣٨) تهذيب تاريخ دمشق ١٤٠/٤ و ١٤١

(٣٩) تقدمة المعرفة - ابن ابي حاتم - ج١٩٣/١ - ١٩٥ - طبعة حيدر اباد ١٩٥٢

(٤٠) مختصر كتاب البلدان - ابن الفقيه - ص ١٠٥ - طبعة المثنى

(٤١) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم - المقدسي - ص ١٦٣

(٤٢) فتوح البلدان ق١٤٠/١

(٤٣) البلدان - اليعقوبي - ص ٣٢٧

(٤٤) تاريخ دمشق ٥٢٠/١٢ ، تهذيب تاريخ دمشق ١٦٩/٥ و ٣٢٩/٦ ، بغية الطلب في تاريخ حلب - ابن العديم - نسخة مصورة بمعهد المخطوطات في جامعة الدول العربية رقم ٩٢٩ تاريخ - ج٢٠٨/٥

(٤٥) التاريخ الكبير ٢٦٢/٦ ، تهذيب التهذيب ٢٨٦/٧

(٤٦) الجرح والتعديل ٢٠٥/٤ ، تهذيب التهذيب ٢٥٩/٤

(٤٧) تهذيب ابن عساكر ١٨٩/٢ ، حلية الاولياء - ابو نعيم الاصبهاني - ج٥/٨

(٤٨) حلية الاولياء - ج٩/٨

(٤٩) فتوح البلدان ق٢٧٩/١

(٥٠) تاريخ طرابلس السياسي والحضاري - د.تدمري - ج١٢٨/١

(٥١) تاريخ طرابلس ١٢٨/١

(٥٢) حلية الاوليـــاء ٥/٨

(٥٣) حلية الاوليـــاء ٦/٨

(٥٤) حلية الاولياء ٧/٨

(٥٥) حلية الاولياء ٢٨٨/٧

(٥٦) حلية الاولياء ٢٥/٧

(٥٧) حلية الاولياء ٨١/٧

(٥٨) تهذيب تاريخ دمشق ١٩٦/٢

(٥٩) تهذيب تاريخ دمشق ١٩٦/٢

(٦٠) مشاهير علماء الامصار ابن حبان البستي - نشوه فلايشهمر - ص ١٨٣ - القاهرة ١٩٥١ .

(٦١) فوات الوفيات - ابن شاكر الكتبي - تحقيق د. احسان عباس - طبعة دار صادر - ج١/١٣

(٦٢) معالم راعلام - احمد قدامة - ق١ج١/١٧ - دمشق ١٩٦٥

(٦٣) تاريخ أبي زرعة ٢٥٤/١ ، تاريخ الاسلام ٢٢٦/٥ ، الحلة السيراء - ابن الابار ٢٣٥/٢ ، تهذيب تاريخ دمشق ٢٥/٣ - ٢٧ ، مشاهير علماء الامصار ١٧٩ ، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان - الدباغ والانصاري - ج١/١٥٤ - طبعة تونس ١٣٩٠ هـ . رياض النفوس - المالكي - تحقيق د.حسين مؤنس - ج١/٧٥ القاهرة ١٩٥١ ، البيان المغرب - ابن عذارى ٤٨/١ ، حلية الاولياء ٨٥/٦ و ٨٦ ، تاريخ خليفة بن خياط - تحقيق د.أكرم ضياء العمري - ص ٣٢٣ ، قادة الفتح الاسلامي في المغرب العربي - اللواء الركن محمود شيت خطاب - ج٢/١٦٧ دار الفكر ببيروت ١٩٧٣ ، معجم العلماء المسلمين في تاريخ لبنان الاسلامي (مخطوط) - د.عمر تدمري - ق١ج١/٤٩٣ (رقم ٣٠٥)

(٦٤) -تاريخ دمشق (المخطوط) ٣٢٦/٨

(٦٥) طبقات الصوفية - السلمي ٢١٣ ، تاريخ دمشق ١/١٦ ، تاريخ الاسلام ٨٠/٥ ، معجم العلماء المسلمين - ق١ج٢/٨٦٠ رقم (٦٠١)

(٦٦) كتاب المجروحين ٢١٧/١ ، الجرح والتعديل ١٥/٤ ، الكاشف ٣٥٨/١ ، تاريخ دمشق ٤٠٨/١٥ ، تهذيب تاريخ دمشق ١٢٤/٦ ، لسان الميزان ١٣٢/٢ ، التاريخ الكبير ٤٦٩/٣ ، معجم العلماء المسلمين - ق١ج٢/٨٦٤ رقم (٦٠٥)

(٦٧) تاريخ دمشق ٤٢٩/٤٤ ، طبقات الشافعية الكبرى - السبكي - ج٤/٢٧ ، شذرات الذهب - ابن العماد الحنبلي - ج٣/٣٩٥ ، وفيات الاعيان - ابن خلكان - تحقيق د.احسان عباس - ج٦/١٩١ ، التاج المكلل - القنوجي ١٤٨ ، طبقات المفسرين - الداودي - تحقيق علي محمد عمر - ج١/١٩٦ ، معجم البلدان - ياقوت الحموي - ج٥/١٧١ ، معرفة القراء الكبار - الذهبي - ج ٣٤٦/١ ، تبيين كذب المفتري - ابن عساكر ٢٦٢ ، طبقات الفقهاء ١٣٢ ، العبر في خبر من غبر - الذهبي ٢١٣/٣ ، التكملة لوفيات النقلة - المنذري - ج١/٦٦ ، طبقات الشافعية - الاسنوي ٥٦٣/١ ، انباه الرواة - القفطي ٩٥/١ ، تهذيب الاسماء واللغات - النووي - ج١ق ٢٣١/١ روضات الجنان الخوانساري ٧٣/٤ سير اعلام النبلاء (المصور) الذهبي - ج ١٤٤/١١ طبقات الشافعية - الحسيني ١٤٧ تاريخ الاسلام تحقيق د.بشار عواد - ج١٨/٣٨٦ فهرسة ما رواه عن شيوخه - الاشبيلي ١٩٥ مرآة الجنان - اليافعي ٦٤/٣ معجم العلماء المسلمين - ق١ج٢/٩١٩ رقم (٦٤٨)

(٦٨) المعرفة والتاريخ الفسوي - تحقيق د.اكرم ضياء العمري - ج٣٩١/٢ و ٣٩٢ تاريخ

دمشق (المخطوط) ٤٤٠/٤ التهذيب ٢٩٦/٢ تاريخ بغداد ١٧/١٠ و ٢٢٢ ـ ٢٢٥ مشاهير علماء الامصار ١٨١ ، تهذيب التهذيب ١٥٠/٦ معجم العلماء المسلمين ـ ق١ج٣ دون ترقيم .

(٦٩) تقدمة المعرفة ٣٣٣/١ ـ ٣٤٠ تاريخ بغداد ٣٢٦/١٠ ـ ٣٣٧ ، تاريخ دمشق ٣٤٠/٢٥ ـ ٣٤٣ ، تهذيب التهذيب ١٣٢/٥ طبقات الحنابلة ١٩٩/١ ـ ٢٠٣ ، معجم العلماء المسلمين ـ ق١ج٣ دون ترقيم .

(٧٠) الانساب ـ السمعاني (النسخة المصورة) ـ ٣٥٦ أو ٣٥٨ ب و ٥٩١ ب ، الانساب المتفقة ـ ابن القيسراني ٨٧ و ٨٨) وفي تاريخ دمشق لابن عساكر ان وفاته كانت في سنة ٤٨٩ هـ ـ ج ٤٥١/٢٨ و ٤٥٢ ، معجم العلماء المسلمين ـ ق١ج٤ دون ترقيم .

(٧١) تاريخ دمشق ١١٠/٣٥ و ١١١ معجم العلماء المسلمين ـ ق١ج/١٥٧٢/٤ رقم (١١٨٩) .

(٧٢) تاريخ دمشق ١٩٥/٣٦ ـ ١٩٨ معجم العلماء المسلمين ـ ق١ج١٥٩٥/٤ رقم (١٢١٢) .

(٧٣) تاريخ اليعقوبي ـ ج٢٩٩/٢ ، تاريخ خليفة ٣١٤ و ٣١٥ ، تاريخ الطبري ٥٢٣/٦

(٧٤) تاريخ دمشق ١٢٢/١٥ بغية الطلب ٢٢٠/٧

أجناد القبائل العربية في بلاد الشام
في العهد المملوكي

الأستاذ أمين النفوري

دمشق

١ ـ العهد الزنكي والايوبي :

لئن كانت جيوش دولة الخلفاء الراشدين والامويين تتألف بمعظمها من القبائل العربية ، القيسية واليمنية فان جيوش الدولة العباسية قد اعتمدت العناصر غير العربية في كتائبها وجحافلها ولا سيما خلال مدة الانحطاط الطويلة التي تقسمت فيها أراضي الخلافة الى دويلات في الشرق والغرب .

وتوضع قسم كبير من القبائل العربية في المدن والحواضر الاسلامية ، التي توالت عليها الفتن والاضطرابات الموضعية في مناسبات متلاحقة ، لدمجها في امارة جديدة أو في سلطة مناوئة . وانكفأ بعضها الى الصحارى والبوادي ، تجوس خلال المدن وتنشر الرعب والهلع بغاراتها على المدن وبغزواتها للقرى وطرق القوافل سواء في العراق أو في بلاد الشام أو في مصر .

وحاولت بعض القبائل مثل تغلب أن تشكل امارة عربية في شمال بلاد الشام غير أنها لم تبق طويلا ، وتعرض الحمدانيون من بني تغلب الى مناوآت محلية من الامراء الطامعين ومن حاضرة الاسلام في بغداد ، وجابهوا تحديا خارجيا كبيرا تمثل في الامبراطورية البيزنطية واتباعها في الاناضول . وأصبحت بلاد الشام في بحران سياسي وعسكري خلال فترة لاحقة حيث كانت في خطوط تقاطع المجالات الحيوية للخلافة العباسية في بغداد ، والخلافة الفاطمية في القاهرة ، والسلطة الجديدة السلجوقية والتركية ــ التركمانية ، فضلا عن الامارات الصليبية التي نشأت في أعقاب الحملات الصليبية .

وكانت الدويلات المتعددة في بلاد الشام تتحالف وتختار أصدقاءها من بين هذه التشكيلة من القوى المحلية والاجنبية ، تبعا للاخطار ووفقا للمناسبات .

وتوالت في بلاد الشام امارات من قبائل عربية مثل بني كلاب القيسيين في شمال البلاد ، والعقيليين في الموصل ، وبني نمير في ديار بكر ، وبني فهد وبني كلب في صرخد ، وبني عمران في الموصل ، وبني منقذ في شيزر ، وبني ملاعب الاشهبي في حمص ، وبني الصليحة في الساحل ، وقبائل بني مالك في حوران ، وبني محرز في المرتفعات الجبلية المطلة على الساحل ، فضلا عن امراء جبل بهراء (العلويين) .

ومن هذا الفسيفساء العرقي واللغوي والديني والطائفي على الصعيد الداخلي والخارجي تشكلت ميول ونزعات سياسية كانت تتسق احيانا وتتنافر احيانا اخرى بتأثير ردود الفعل الداخلية والخارجية المنبثقة عن التحالفات المتعددة والمتنوعة بين بعض مكونات هذا الفسيفساء البشري والجنسي .

وقد طال التنازع القبلي القديم والجهل الذي استشرى في القبائل العربية نتيجة الاهمال الطويل في العصور العباسية ، دون تآلف هذه القبائل الكثيرة القوية المنتشرة في كل بلاد الشام ، حضرا وريفا وبداوة ، ودون تشكيلها دولة واحدة موحدة ، تفرض وجودها على كل هذا المزيج العربي والاجنبي في بلاد الشام على الاقل .

ولما امتد السلاجقة الى بلاد الشام وفي اعقابهم سواهم من الغز والتركمان ، وتشكلت امارات تركية وتركمانية في شمال بلاد الشام ، وفي داخلها ، كانت الحملات الصليبية توالي عبورها من بلاد الروم والبحر المتوسط باتجاه بلاد الشام للسيطرة على بيت المقدس وكل الرقعة الساحلية وجزء من الشطر الداخلي في بلاد الشام ، ووقفت القبائل العربية الضاربة في الصحراء موقف المشاهد المراقب المترقب ، ووقع عبء الصراع في المرحلة الاولى من النضال ضد الغزو الصليبي ، على القبائل التركمانية الكثيرة التي انساحت في شمال سورية وفي وسطها وخارج البلاد في اراضي الروم ، واصبحت ترابط في الثغور الاسلامية الشمالية بخاصة ، وحلت مكان العرب الذين كانوا يقيمون فيما مضى حول مناطق الجهاد في العواصم والثغور .

ولما اشتدت الحملات الصليبية كان الامراء المحليون المسلمون يستخدمون القبائل العربية في صد الهجمات الصليبية ، ولا سيما غزوها وهي تتحرك برتل السير ما بين انطاكية حتى القدس وعسقلان وغزة .

وقد تدفقت على بلاد الشام قبائل عربية كثيرة خلال هذه الفترة وبعدها ، قادمة من الحجاز ونجد والعراق ومصر ، واكثرها من قبيلة طي (الموالي) وآل

علي ، وآل أبي ريشة ، والفضل بن ربيعة ، وانتشرت على طول بلاد الشام من الشمال الى الجنوب بحكم القرابة القبلية بينها .

وكانت دمشق هدفا مستمرا للصليبيين يحاولون بلوغه بكل الوسائل ، باستخدام القوة والحيلة والافساد والتآمر ، أو التحالف مع بعض الامراء المحليين .

وكان حول دمشق وعلى مشارفها الشرقية القريبة وفي أواسط قبيلة بني كلب ولا سيما حلة كلثوم بن حسان بن مسمار الكلبي ، ويقع جنوب منزلة حلة مرى بن ربيعة من طي وفي فلسطين عرب الجراح من طي أيضا ، الذين ازعجوا النفوذ الفاطمي في فلسطين لمدة واقلقوا الصليبيين في تحركاتهم وغزواتهم المفاجئة عليهم في الارياف والبوادي وخلال مسير الجيوش الفلسطينية في الشقة الساحلية (١) . فكان بنو هوبر وحلة بني ربيعة حول عسقلان تتخطف القوافل .

وقد لجأ والي دمشق طغتكين الملقب بظهير الدين الى استخدام العرب في جيشه على نطاق واسع ففي وقعة طبرية مع الفرنج عام ٥٠٧ هـ استدعى ظهير الدين العرب الطائعين والكلابيين والخفاجين واستعان بهم للقتال فوصلوا في خلق كثير بالمزادات والروايا والابل لحمل الماء (٢) .

وبعد انتقال بانياس الى الفرنج طمعوا في دمشق فسار اليهم عسكر دمشق وانضم اليه التركمان من منازلهم حول البلد والامير مرة بن ربيعة في العرب الواصلين معه وتفرقوا كراديس في عدة جهات (٣) .

وكان آل معن من العرب الايوبية وهم بطن من بني ربيعة ، قد سكن جدهم أيوب الجزيرة الفراتية وتكاثر بنوه ثم رحل الى حلب وجعل يغزو الفرنج عند ظهورهم في انطاكية سنة ٥٠٢ هـ ٤١٠) ثم انتقل الامير معن الى سهل البقاع وأمره ظهير الدين أن يصعد بعشيرته الى الجبال العالية من لبنان ويطلق الغارة على فرنج الساحل(٥)

ولم يكن خلف ظهير الدين أقل اهتماما بالقبائل العربية ، للحاجة الماسة اليها في قواته ، فقد بادر تاج الملوك بوري بتجريد الاتراك الدمشقيين والتركمان والعرب القادمين مع الامير مرة بن ربيعة ، لملاقاة الفرنج في مناطق حوران حول ناحية « براق » فحمل العرب والاتراك حملة هائلة واسروا الفرنج (٦) .

ويظهر أن مرى بن ربيعة كان على اتصال مع دبيس بن صدقة الاسدي العراقي ، والذي كان مناوئا للخليفة العباسي ، فانهزم دبيس خوفا من المسترشد

بالله ، وضل الطريق ، وكان قصده حلة مري بن ربيعة . فكان ذلك سببا في قبض والي دمشق شمس الملوك على مري بن ربيعة وعلي بن اسامة بن المبارك ، وقتل مري بعد ذلك (٧) ، تقربا من أعتاب الخلافة العباسية البغدادية .

وقد تزايد بعد ذلك استخدام القبائل العربية في جيوش الشام ولا سيما في عهد معين الدين انر ، اذ كان يكاتب العرب كلما ألم به أمر من الصليبيين في الساحل وفي حوران والجولان(٨) .

وكان جل اعتماد دمشق على ما تحمله قوافل العرب من الغلال في حوران لتامين تموين هذه المدينة الكبيرة ، فكان على والي دمشق أن يسير النجدات الى بلاد الشام الشمالية والوسطى ، وان يسير عسكرا الى حوران لايناس قبائل العرب وحفظ اطرافهم لنقل الغلال على جمالهم الى دمشق على جاري العادة ، وحفظها والاحتياط عليها (٩) .

وفي عهد نور الدين أصبحت حوران قاعدة تموين وهجوم على الفرنج ، فكان يعسكر بالقبائل العربية فيها ويحفظ العرب الجالبين للغلال ويشن الغارات على الفرنج بالتركمان والعرب في قلاعهم الساحلية والجبلية ما بين بانياس وطبريا وهونين في جبل عاملة(١٠) .

وهكذا ازداد اعتماد الامراء والحكام في بلاد الشام على دعم القبائل العربية ولا سيما قبيلة ربيعة من طي بن كهلان من القحطانية ، والتي انتشرت في طول البادية الشامية ولا سيما في وسط البلاد وحول المدن . وقد كانت الرئاسة لهذه القبيلة زمن الفاطميين ، وكان كبيرهم مفرج بن دغفل بن جراح الذي اقطع منطقة الرملة في فلسطين .

وكان مبدأ ربيعة انه نشأ في أيام الاتابك زنكي صاحب الموصل وكان أمين عرب الشام ايام ظهير الدين طغتكين السلجوقي صاحب دمشق ، ووفد على السلطان نور الدين محمود فأكرمه واشاد بذكره ، وكان لربيعة أربعة أولاد : فضل ، ومرا (مرى) ، ثابت . ودغفل . وانقسم آل ربيعة الى ثلاثة أفخاذ ولكل منهم امير مخصوص : ١) آل الفضل وهم أعلاهم درجة وارفعهم مكانة وديارهم من حمص حتى قلعة جعبر والرحبة آخذين على ضفتي الفرات وأطراف العراق ، حتى البصرة ، وبرز منهم آل عيسى ، ٢) آل مرا وديارهم من حوران والجولان حتى مكة ، ٣) آل علي وديارهم مرج دمشق وغوطتها بين اخوتهم آل الفضل وبني عمهم آل مرا(١١) .

ـ وكان الملك الكامل قد طلب من ماتع بن حديثة جمالا يحمل عليها غـلالا الى خلاط فاحتج بغيبة جماله في البرية ، وكان بعض بني كلاب حاضرا فتكفل له بحاجته من الجمال ووفى له بذلك ، ثم جاؤوا اليه عندما اخذ مدينة آمد(ديار بكر).

وكانت بنو كلاب تخدم الملك الاشرف موسى وتصحبه لمتاخمتهم بلاد الروم، وكان الناصر محمد بن قلاوون لا يزال ملتفتا الى تألف بني كلاب وأمر عليهم سليمان بن مهنا من آل الفضل وجعل عليهم حفظ قلعة جعبر وما جاورها (١٢) .

ـ واخذ ذكر آل الفضل من ربيعة طي ينتشر ولا سيما في دولة المعز ايبك والمنصور قلاوون ، حيث حضر الى الأبواب السلطانية زامل بن علي وعيسى ابن مهنا وأولاده ، وكان لهم عند السلطان حرمة كبيرة وصيت عظيم الى رونق فـي بيوتهم ومنازلهم .

واجتمع أيام الظاهر بيبرس جماعة من آل ربيعة فحصل لهم من الضيافة في مدة قصيرة شيء عظيم(١٣) .

ـ لقد ازداد نفوذ القبائل العربية ، ولا سيما آل الفضل ، بظهور التتار في العراق وتهديدهم بلاد الشام ، وكان المماليك يخشون انحياز هذه القبائل الى التتار فرفعوا من شأنهم واكرموهم وادروا عليهم العطاء ومنحوهم الاقطاعات ليكونوا في وجه التتار وعيونا للسلاطين في الصحراء وحول الفرات ، وبرز منهم في تلك الفترة شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة امير العرب الذي أعطاه الملك المظفر سلمية عام ٦٥٦ هـ (١٤) وقد قدم زامل بن علي أمير العرب من آل الفضل في عدة من العربان مع الملك الاشرف موسى بن شيركوه صاحب حمص والملك المنصـور صاحب حماة ، وواقعوا التتار على الرستن عام ٦٥٩ هـ فأفنوهم قتلا واسرا .

ويعزى لآل الفضل (الموالي) شرف تثبيت الخلافة العباسية في مصر زمن الملك الظاهر بعد انقراضها على أيدي التتار في بغداد سنة ٦٥٦هـ ، وذلك عندما هرب أحد ابناء عم الخليفة المستعصم بالله من مذبحة التتار في بغداد ولجأ الى جماعة من عرب بني مهنا حول الفرات في منطقة عانة ، فاصطحبه آل الفضل في جوف الصحراء وورد الغوطة ومعه جماعة من عرب خفاجة في قريب خمسين فارسا بعد أن وفد الى الرحبة على الفرات واتاه الامير علي بن حديثة من آل الفضل في ٤٠٠ فارس من العرب . ثم سافر الخليفة المقبل حيث اثبت الفقهاء والشهود في القاهرة نسب الخليفة العباسي فنصبه الملك الظاهر خليفة وذلك سنة ٦٥٩هـ(١٤) .

واستمرت قبيلة بني كلاب في التوطن حول حلب واطرافها وصاروا يتكلمون التركية بحكم اختلاطهم بسلاجقة الروم والتركمان . ويركبون الاكاديش . وهم عرب غزو ورجال حروب وابطال جيوش ومن اشد العرب بأسا . وأما آل بشار فمساكنهم الجزيرة ، وبعض بلاد حلب ، وبنو عجل وديارهم سنجار الى الجزيرة العربية وأطراف بغداد ، حسب مؤلف كتاب مسالك الابصار وصبح الاعشى (١٦) .

كان عماد الدين زنكي كثير التنقل في غزواته ، سريع الحركة لملاقاة الفرنج في شمال بلاد الشام وسواحلها وجنوبها ولا سيما في جنوبي دمشق وحوران .

وقد شن غارة كبيرة على ولاية طرابلس جمع لها من التركمان والعربان عددا كبيرا وقتل من الفرنج طائفة عديدة(١٧) .

واستخدم نور الدين التركمان والعرب في شمال بلاد الشام لاسر الامير الصليبي جوسلين . وكان التركمان والعرب يحيطون ببانياس الجولان عندما زحف اليها ملك القدس بلدوين (١٨) وفتح نور الدين حارم برجال المدن وعربان البر واسر من الفرنج خلقا كثيرا وفتح بانياس(١٩) وكان امير تنوخ ظهير الدين بن بحتر حاكما على ثغر بيروت فولاه نور الدين القنيطرة والبقاع وظهر الاحمر ووادي التيم وبرج صيدا والدامور . وكان له معاش ٤٠٠ فارس لمقاتلة الفرنج ، وكان آل تنوخ أكبر الطوائف التي حضرت من معرة النعمان (٢٠) . وسار آل شهاب من حوران الى وادي التيم خوفا من نزاع نور الدين وصلاح الدين وفتكوا بالفرنج في حاصبيا(٢١) .

وتعاظم دور العرب في الحروب الصليبية ، وقد خشي صلاح الدين أن يستخدمهم الفرنج ويتقووا بهم فكتب الى نور الدين يقول :

« لقص أجنحة الفرنج وفل اسلحتهم وقطع موادهم انه لم يبق في بلادهم أحد من العربان بعد ترحيلهم وتبديل ديارهم الى أن صار العدو (الفرنج) اذا نهض لايجد بين يديه دليلا ولا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا »(٢٢) .

ولما عزم الملك العادل على دخول بلاد الفرنج أمر ولده الاشرف ان يغير عليها ، فاستدعى الاشرف عساكره وحضر عنده عرب طي في ظاهر حلب ووصل اليه أمير العرب مانع بن حديثة في جمع عظيم من العرب من آل الفضل(٢٣) .

ولئن كانت هذه القبائل أداة قوة ضد الفرنج فانها كثيرا ما كانت اداة تدمير وتخريب للمدن الداخلية كحمص وحماة وغيرها(٢٤) .

واشتهر في الفترة من امراء آل الفضل مانع بن حديثة واخوه علي بن حديثة.

وكان لهما دور بارز في الصراع مع الخوارزمية حول حلب والسلمية ، وكانا يتأرجحان بين تأييد سلطة خلفاء صلاح الدين من الامراء الايوبيين ، وبين الانتصار لخصومهم حسبما تقتضيه مصلحة هؤلاء العربان .

٢ ـ العهد المملوكي :

وفي العهد التالي أحضر السلطان الملك الظاهر بيبرس امراء العربان وسلمهم درك البلاد والزمهم حفظ الدروب الى حدود العراق ، وكتب منشور الامرة على جميع العربان للامير شرف الدين عيسى بن مهنا(٢٥) .

وكان لعرب الكرك والشوبك خطورة كبيرة ، وهم من بني عقبة وينتسبون لى قبيلة جذام ، اذ ان هذين الموقعين كانا يشرفان على طريق المواصلات الرئيسي المؤدي الى مصر والى الحجاز (طريق الحج) .

ـ ولم يصرح لاحد من آل الفضل بأمرة العرب الا في أيام العادل ابي بكر أخي السلطان صلاح الدين ، حيث أمر منهم حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة ، ثم كان بعده مانع بن حديثة الذي توفي عام ٦٣٠ هـ ، وولي عليهم بعده مهنا وحضر مع المظفر قتال هولاكو ملك التتار واقطعه سلمية .

ولما تولى الملك الظاهر بيبرس عند سيره الى دمشق لتشييع الخليفة الى بغداد نبغ عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة في تلك الفترة .

وفي عهد الاشرف خليل بن قلاوون وفد عليه الى دمشق مهنا بن عيسى في جماعة من قومه وقبض عليهم وبعث بهم الى قلعة الجبل في القاهرة حتى أفرجعنهم سنة ٦٩٤هـ حيث رجع الى امارته . وكان مهنا يتأرجح بين المماليك والتتار في العراق .

وجاء أخوه فضل بن عيسى الى السلطان الناصر سنة ٧١٤ هـ فولاه مكانه . وبقي مهنا مشردا ثم لحق سنة ٧١٦ بملك التتار فأقطعه الاراضي في العراق . ورجع مهنا الى الشام وبعث بأولاده الى الملك الناصر فأكرمهم واحسن اليهم ورد مهنا الى امارته واقطاعه ، غير أن مهنا عاد الى موالاة التتار فطرد السلطان آل الفضل بأجمعهم من الشام وجعل مكانهم في الامرة ، آل علي ، ثم وفد مهنا على السلطان الملك الناصر بوساطة الافضل صاحب حماة فأعاده السلطان الى أمرته السابقة وتوفي سنة ٧٣٤هـ .

وتوالى بنو مهنا على امرة العرب مثل سليمان وسيف وأحمد بن مهنا وفياض وجبار وزامل ومعيقل ثم نعير وعساف وغيرهم(٢٦) .

واشتهر منهم في خلال قرن ونصف عيسى بن مهنا ، ومهنا ونعير .

وكان امراء آل الفضل يدعون بملوك البر واما الامرة عليهم فقد جرت العادة ان يكون لهم امير كبير منهم يولى من الابواب السلطانية ويكتب له تقليد شريف بذلك ويلبس تشريفا أطلس اسوة بنواب المملكة في البلاد الشامية ان كان حاضرا ، أو يجهز اليه ان كان غائبا . ويكون لكل طائفة من هؤلاء العرب كبير منهم يقوم مقام امير عليهم ، وتصدر اليه المكاتبات من الأبواب الشريفة . ولم يكن فيما مضى يكتب له تقليد أو مرسوم ، فكان أول من أخذ الامرة بتقليد من السلطان ، حديثة بن عقبة بن فضل ابن ربيعة(٢٧) .

وكان يكتب بالولاية لأمراء العربان في المملكة الشامية ومنهم أمير آل الفضل وامير آمرا وامير آل علي ومقدم قبيلة جرم ، كما كان يكتب ايضا بالولاية لمقدمي التركمان والاكراد ومقدمي الجبلية في البلاد الشامية (نابلس ، لبنان) واتابك طائفة الاسماعيلية بقلاع الدعوة وحاكم الفندق(٢٨) .

ولذا كان ممن يولى عن الابواب السلطانية امراء العربان وهم على طبقات :

الطبقة الاولى وهم ممن يكتب له تقليد « بالمجلس العالي » وهوأمير آل الفضل سواء كان مستقلا بالامارة أو شريكا لغيره فيها ، وصورة ذلك كما ورد في تقليد سنة ٧١٢ هـ : « رسم بالامر الشريف العالي ان يفوض اليه .. ، وليكن لاخبار العدو مطالعا ولنجوى حركاتهم وسكناتهم على البلد سامعا ولديارهم كل وقت مصبحا حتى يظنوه من كل ثنية عليهم طالعا ، وليدم التأهب حتى لا تفوته من العدو غارة ولا غرة ، ويلزم أصحابه بالتيقظ لادامة الجهاد الذي جرب الاعداء منه مواقع سيوفهم غير مرة » .

وقد كتب مرسوم شريف بامرة آل الفضل الى الامير حسام الدين مهنا بن عيسى هذه بعض صورته : « فلذلك رسم أن يعاد الى الامرة على امراء آل فضل ومشايخهم ومقدميهم وسائر عربانهم ومن هو مضاف لهم ومنسوب اليهم على عادته وقاعدته ، آخذا للجهاد اهبته من جمع الكلمة واتحادها واتخاذ القوة واعدادها وتضافر الهمم والزام امراء العربان بتكميل اصحابهم وحفظ مراكزهم التي لا تسد ابوابها الا بهم . والتيقظ لمكائد عدوهم والتنبيه لكشف أحوالهم في رواحهم وغدوهم وحفظ الاطراف التي هم سورها من أن تتسورها مكائد الاعداء ، وتخطف من يتطرق الى الثغور من قبل أن يرفع الى افقها طرفا او يمد على البعد الى جبهتها المصونة يدا ، وليبث في الأعداء من مكايد مهابته ما يمنعهم من الفرار ويحسن لهم الفرار »(٢٩) .

الطبقة الثانية من عرب الشام ، من يكتب له مرسوم شريف :

المرتبة الاولى : امير آل علي ورتبته « السامي » ومنزلهم مرج دمشق وغوطتها بين اخوانهم آل فضل وبني عمهم آل مرا ، ومنتهاهم الى الحوف حتى تيمياء .

وصورة الكتاب اليهم : « رسم بالامر الشريف ان تفوض اليه امرة آل علي ، تامة ، عامة ، كاملة ، شاملة ، يتصرف في امورهم وآمرهم ومأمورهم قربا وبعدا غورا ونجدا وظعنا واقامة » .

المرتبة الثانية : بعض امراء آل الفضل : « رسم بالامر الشريف ان تفوض اليه التقدمة على العربان بالشام المحروس وان منازله الداروم من الرستن الى الملوحة والالزام له بذلك . ولهم مخاوض تحفظ (على الفرات) ومفاوز تلحظ (بادية الشام) ومطارح لا تلفظ ومشات ومصايف ونفائض ومصارف ومرابع ومراتع ، فليرتب ذلك أجمل ترتيب وليسلك فيه خير مذهب وتهذيب وليدع العادي ويلاحظ الرائح والغادي وليؤمن ذلك الجانب(٣٠) .

الطبقة الثالثة : أمير آل مراء ورتبته السامي ومنازلهم حوران والجيدور والجولان الى الزرقاء وبصرى حتى مكة .

وصورة الكتاب : (رسم بالامر ان يستقر المشار اليه في .. وقد اقمناه اميرا على آل مرا (مرى) وليقمع المفسد من عربانه ويقابله بالنكال والصالح الخير يجزل له النوال(٣١ . وليأخذ للجهاد هبته ويعجل اليه هبته وليقف من وراء البلاد الشامية المحروسة دريئة لاسوارها المنيعة ونطاقا على معاقلها الرفيعة وسدا من بين ايديها وخلفها لباب كل ذريعة وخندقا يحوط بلادها الوسيعة ولا يفارق البلاد حتى يعبس في وجوهها ولا يعود حتى تؤذن زروعها المخيمة بذهاب ، وليحصل من الخيل كل سابقة تليق ان تقدم الينا ..

المرتبة الثانية : من ارباب المراسيم من العرب ومن يكتب له في قطع الثلث (شكل الورق المكتوب)بالسامي بدون الياء .

ومنهم في الدرجة الأولى امراء بني مهدي ورتبة كل منهم (مجلس الامير) ومنازلهم البلقاء الى علم اعفر وهذه المنطقة مقسومة على أربعة إمراء ، وكان يطلب منهم التأهب للجهاد حيث سارت الجيوش المنصورة ..

ومنهم في الدرجة الثانية مقدم زبيد ومنازل بعضهم المرج وغوطة دمشق وبعضهم بصرخد وحوران .

وعلى هذا فان عربان الشام يمثلون جل القوم من القبائل وعين الناس . وكانت عناية الملوك بهم ولا مبالاة بغيرهم . وراس الجميع آل فضل وآل مراء وآل علي الذين هم من سلسلة قبيلة طي ، والبداءة كانت بآل الفضل اذ كانوا في نحر العدد ولهم العديد الاكثر والمال الاوفر وكان يمثلهم ما بين ٦٥٦هـ - ٦٨٠هـ ، أي في الموجة التتارية الاولى ، عيسى بن مهنا واستمر في قبيلته بقرب الفرات يحفظ المخاضات ويرقب تحرك التتار منها نحو الشام ويجمع الخيول للدولة ويقيم على طاعة السلطان فكان يضاعف اكرام هذه القبيلة وتوفر لهم الاقطاعات ويكتب لهم برتبة : المجلس العالي الاميري في مبتدىء امرهم . ويأتي بعد آل الفضل امير آل مرا (مرى) ، ودون هؤلاء بنو عقبة .

اما بنو مهدي فيسهمون في قبيلة عدوان وامرتهم في اربعة ، وكذلك عرب غزة فأمرتهم آل فضل بن حجي ورسم المكاتبة الى امرائهم (مجلس الامير) .

ـ اما بقية عرب الشام مثل زبيد المرج وزبيد حوران وخالد حمص والمشارقة وزبيد الاحلاف ، فأجل كبرائهم واشرافهم واشياخهم من يكتب له (مجلس الامير)(٣٢) وقد ترسل الملوك والسلاطين وتوجه « المطلقات » الى الامراء في الشام والى قبائل العرب والتركمان والاكراد وصورتها :

والى كل واقف عليه (اي الكتب المطلقات) من المجالس السامية الامراء الاجلاء المجاهدين المؤيدين الانصار ، الغزاة ، الانجاد ، الامجاد ، أمجاد الاسلام ، اعوان الدولة عدد الملوك والسلاطين بالبلاد الشامية وسائر المماليك الاسلامية والثغوروالحصون والاطراف المحروسة (٣٣)

وهكذا كان يكتب الى امراء القبائل العربية في بلاد الشام ، كل على قدر منزلته وحسب طبقته ودرجته ، مرسوم أو تقليد بالامرة . ويعني حدود هذه الامرة وعلى من تقع ومايلزم الامير ان يؤديه من واجبات ازاء الدولة من الطاعةوالمناصحة ورصد العدو وجمع الخيول والجمال اذا اقتضى الامر فيالمهماتالداخلية والخارجية، والمسير مع جيوش الدولة لمقابلة اعدائها في الداخل والخارج ، سواء كان ذلكفي التجاريد العسكرية الى البغاة والعاصين في الداخل ، او في الغزوات لاعداء الدولة في الخارج ، حيث كانت جيوش السلطنة تنقسم الى اجناد حلقة وبرجيه او بحرية وعرب وتركمان واكراد وغيرهم ، وحيث كان السلطان يسير بنفسه أو يعين من يختاره من جيشه لقيادتها بعد استعداد الخيالة والرجالة والرماة(٣٤) للمسير فيها . واشهر هذه التجاريد غزو قبرص وساهم فيها العربان وعشران لبنان عام ٨٢٩ هـ ورحلة يشبك عام ٨٧٥ هـ .

وثمــة واجبات عسكرية اخرى تسمى (المهمــات الشريفة) ، هــي تجري كلما طرأت ضرورة لحراسة ثغر من الثغور أو طرف من اطراف الدولة وحفظه او ما في مثل ذلك ، وكان يعين لقيادتها جماعة من الامراء في استعداد اقل من طريقة (التجاريد) التي كان السلطان أو أحد القادة الكبار يسير فيها(٣٥) .

وثمة احصاء دقيق بينه لنــا صاحب كتاب (زبدة كشف الممالك) عــن عدد اجناد السلطنة ، ومنها عدد اجناد القبائل العربية في زمانه حيث يقول حول عــام ٨٠٠ ــ ٨٢٠ هـ :

قبائل العربان :

آل الفضل وهم بنو نعير ٢٤ الفا ، ثم عرب الحجاز ٢٤ الفا، آل علي ٢٠٠٠، عرب العراق ٢٠٠٠،عرب يلمام ٢٠٠٠،عرب الجزيرة ٢٠٠٠،عرب متروك ٢٠٠٠،عرب جرم ١٠٠٠ ، عرب بني عقبة وبني مهدي ١٠٠٠ ، عرب آل مرا (مري) ١٠٠٠ ، عرب جذام عرب العايد ١٠٠٠ ، عرب فزارة ١٠٠٠ عرب متفرقة بمصر ٣٠٠٠ ، عرب هــوارة ٢٤ الفا ..

مقدمو العشران (ابناء الفلاحين والعرب المتوطنين في نابلس والقدس وغزة ولبنان وصفد والكرك والشوبك والبقاع وجبة عسال والزبداني وغيرهم) وعددهم ٣٥ مقدما، وقرر عليهم ٣٥ الف خيال (٣٦)

وكانت سياسة المماليك خلال ثلاثة قرون ، الاكثار من عدد الامراء في القبيلة الواحدة خوفا من سلطة واحدة تجمعها وتناوىء الدولة ، ولا سيما وان وزن هذه القبائل في المجتمع من حيث التأثير السياسي كان عظيما جدا، وكثيرا ماسببت هذه القبائل مشاكل حربية للسلاطين عندما كانت تميل الى احد الامراء العاصين علــى الدولة ، أو عندما كانت تقف على الحياد او تمالىء عدوا خارجيا كالتتار ، أو الامارات الاسلامية الرومية او التركمانية الكثيرة التي انتشرت في شمال بلادالشام وحتــى قلب العراق وفارس .

وكانت السلطنة تستفيد ، لتثبيت هيبتها ، من التنازع المعهود على الامارة في هذه القبائل التي كانت تغزو بعضها في كثير من المناسبات انتصارا لاخ على اخيه في القبيلة او دعما لابن عم على ابن عمه .

وكثيرا ماكانت تشتد الفتن بين هذه القبائل بعضها على بعض ولاسيما ال الفضل فيما بينهم ويشترك في ذلك عشيز البلاد الجبلية وغيرها بحيث كانت في اغلب الاحيان

تشكل حربا اهلية مدمرة كانت تجري في دمشق وحلب والقاهرة وغزة ونابلس وحمص وحماه ولاسيما اذا ما ثار على السلطان احد الامراء الكبار وحاول اخذ السلطة لنفسه كما جرى ذلك عشرات المرات في بلاد الشام ، فكانت القبائل العربية ولاسيما ال الفضل تشترك في هذه النزاعات بين المماليك انفسهم وتنتصر اما للسلطان القائم او للامير الثائر ، وكانت ساحة الصراع تمتد من غزة والكرك والقدس ودمشق وعلى طول الصحراء والمدن الداخلية حتى حلب وآمد والرها وانطاكية ، مع ما يعقب ذلك من اضعاف للدولة وافقار المدن وحرق وتقتيل في السكان والجيوش وانهيار في هيبتها . وغالبا ما كانت تنتهي هذه المنازعات والحروب الاهلية بتثبيت سلطة احد الامراء وعودة الامور الى نصابها بعد حروب خراب وتدمير في عدد من المدن والقرى .

وتعج كتب التاريخ في تلك الفترة باخبار وحوادث هذا التدمير والتخريب وتذكر اسماء الامراء والسلاطين الذين وقعوا في الفتنة كما تذكر سلوك القبائل العربية وامراءها ازاء تلك الاحوال وما كان يفعله اولئك الذين زجوا بأنفسهم في الفتنة .

وكانت تكثر هذه الفتن عندما كان يطرق العدو الخارجي حدود الدولة وقد لوحظ ذلك عند مجيء التتار الى بلاد الشام عام ٦٥٨هـ ثم عام ٦٧٠هـ ، ثم قبل مجيء تيمورلنك وبعده .

ـ وكان يؤثر في ميزان القوى عند الصدام مع التتار موقف القبائل العربية وطاعتها . ففي سنة ٦٧٢ / ١٢٧٤ تواردت الاخبار بحركة التتار فرسم السلطان الملك الظاهر للامير عيسى بن مهنا امير العربان باغارة عليهم فوصل الانبار . ولما علم (ابغا) ملك التتار ظن ان السلطان الظاهر قد دهمه ، فرحل بعسكره وانهزم على أسوأ حال(٣٧) وفتح الملك الظاهر بلاد الارمن (سيس) لمظاهرتهم التتار وفي خدمته العساكر وجميع العربان وعرضهم ركبانا وجرد منهم عيسى بن مهنا والامير حسام الدين الى جهة البيرة بصورة جاليش للعسكر (طلائع) وفتحت مدينة سيس الارمنية ، وسار العشير والعربان الى رأس العين ووقع الرعب في التتار فولوا منهزمين . (٣٨)

وفي عام ٦٧٩ / ١٢٨٠ كان أحمد بن حجي من آل مري ملك العرب في البلاد القبلية، وشرف الدين عيسى بن مهنا ملك العرب بالبلاد الشرقية والشمالية ولما انهزم شمس الدين سنقر الاشقر ، احد الامراء الكبار ، من دمشق اقام عند عيسى بن مهنا ثم توجها الى الرحبة على الفرات .

وكاتب شمس الدين سنقر الملك ابغا التتاري يعرفه ما وقع بين العساكر الاسلامية من الاختلاف وحثه على قصد البلاد بجيوشه ووعده الانحياز اليه (٣٩) وكتب الامير

شرف الدين عيسى بن مهنا الى الملك أبغا بمثل ذلك ، وعند ذلك اخرج الملك المنصور اقطاع عيسى بن مهنا الى الامير فخر الدين عثمان بن مانع من آل الفضل والى الامير محمد بن أبي بكر من آل الفضل الى الامير حسام الدين دراج .

ـ واستقر الحال على ان يكون للامير فخر الدين والامير شمس الدين اميري آل فضل وآل علي وان تكون منزلة فخر الدين عثمان من الرستن الى الملوحة ومنزل شمس الدين من الملوحة الى شط الفرات وان يكون حسام الدين اميرا على ال عامر وأن تكون منزلته من الرستن الى العقابيات وكتب مناشيرهم وتقاليدهم بذلك .

ـ غير ان عصيان عيسى بن مهنا لم يطل فقد عاد من العراق الى خدمة الملك المنصور سيف الدين قلاوون وسأل الصفح عما فرط من ذنبه وما كان عزم عليه من الانضمام الى التتار ، وكان اجتماعه بالملك المنصور بمنزلة (الروحاء) ولما وصل عيسى الى الخدمة ركب السلطان اليه وتلقاه واكرمه وبالغ في اكرامه واحسن اليه .(٤١)

ولما عبر التتار الى الشام وقع المصاف معهم بحمص وهزم التتار ، وكان لال الفضل وال مري وابي ريشة النصيب الوافر في الحا قالهزيمة بالموغول في عام ٩٨٠هـ / ١٢٨١م ، وذلك في اواخر ايلول واوائل تشرين الاول / الموافق لشهر جمادي الآخـرة .

ـ وكان التتار وبقيادة منكو تمر اخي أبغا بن هولاكو ، حيث خرج الملك المنصور من دمشق وبعث الى سائر البلاد بالحضور الى دمشق لملاقاة التتار ولم يتأخر احد من العربان والتركمان وسائر الاطراف . ونزل الملك المنصور على حمص بالعساكر والجموع وكان مع الموغول الكرج والروم والارمن والفرنج ، حسب ما اورده مؤلف كتاب زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة .

ووقف الملك المنصور في الميمنة وفيها ايضا صاحب حماة وفي راس الميمنـة شمس الدين عيسى به مهنا وآل فضل وآل مري وعربان الشام ومن انضم اليهم . وفي راس الميسرة التركمان بجموعهم وعسكر حصن الاكراد والجاليش وهو مقدمة القلب وفيه المماليك السلطانية ، وكان الملتقى بين الرستن ونهر العاصي ومجمع المروج في تلك النواحي ، ووقعت ميمنة التتار على ميسرة المسلمين وكسروها ونـزل التتار في المروج عند سد حمص وجاءهم عيسى بن مهنا في اصحابه استعراضا وقتلوا مـن التتار مقتلة عظيمة وانهزمت فرقة منهم باتجاه سلمية والبرية وفرقة اخذت جهة حلب والفرات فجهز الملك المنصور في اثر التتار جماعة كثيرة من العسكر والعربان(٤٢)

وفي هذه المعركة اعلم بعض ال الفضل رؤوسهم بريشة لكي يعرفوا خلال المعركة فسموا بعد ذلك بآل ريشة .

وبعد هذه الوقعة اقبل آل مرى الى دمشق وهم زهاء اربعة آلاف فارس شاكي السلاح على الخيل المسومة وعليهم الكزغندات الحمر والاطلس المعدني والديباج الرومي وعلى رؤوسهم البيض متقلدين بالسيوف وفي ايديهم الرماح وامامهم العبيد تميل على الركائب وبين أيديهم الجنائب ووراءهم الظعائن والحمول(٤٣) .

وكانت الوصايا الدائمة لامراء العرب في تلك الفترة ومن اجل مراقبة تحركات التتار على الشكل التالي وتوجه اليهم من الابواب السلطانية في القاهرة :

استعلم اخبارا العدا في طليعة كل صباح وتأهب لهم ولا تتبدل بالفرات واردا ولا تتبعك المناظر اذا ارسلت طرفك الى سواها رائدا ، واحفظ اطراف البلاد ممن يتولع ببنائها او يترصد لمرابع اسودها ، ولاتدخل الى البرية الا اذا لم يبق لك بالبلاد مقام .

واما العرب فهو اميرهم المطاع وآمرهم وهم له اتباع فليجعلهم على طاعتنا الشريفة وان يأخذ نفسه واخوته وبني عمه واهله وعترته الاقربين بان يكونوا بالجياد الينا مقربين ..(٤٤)

وفي عام ٦٨٧ / ١٢٨٨ كتب السلطان مرسوما شريفا باسم بدر الدين طيمون بن ريشة الكلبي ان يكون اميرا على عرب الكلبيين وبني كلاب الشاميين المقيمين في ثنية العقاب (٣٠كم شمال دمشق) الى الجهات القبلية خارجا عن بني كلاب ، ثم الكلبيين الشاميين والروميين المقيمين شمال ثنية العقاب المعروفين في حمص وشيزر وحلب وتلك البلاد ، وان يلزم بتحصيل عداد بيوتهم على ما كان علية عديدهم في الايام الناصرية ويكون له من عدادهم المستقر ، الربع ، ومهما ثمره من العداد زايدا عن المستقر في عداد بيوتهم ، يكن له في النصف (٤٥) وثمة وجه سلبي لخروج القبائل العربية عن الطاعة وتشجيع العدو الخارجي ولا سيما الموغل للتعرض لدولة المماليك والجراءة على اقتحامها .

وقبل مجيء تيمورلنك الى بلاد الشام حدثت فتن كبيرة وحرب اهلية بين امراء المماليك اشترك فيها العشير والقبائل العربية وكانت سببا في اضعاف الجيش المملوكي وانقسام السلطنة وطمع الموغول فيها .

وكانت فتنة الامير منطاش والناصري وما وقع فيها من احداث مدمرة وحرب

اهلية ما بين القاهرة وغزة ودمشق وحمص وحماة واللاذقية وحلب من العلائم المشجعة لتيمورلنك في غزو بلاد الشام حيث اشترك فيها الى جانب العصاة على السلطنة امير آل الفضل نعير ومعه عنقا بن شطي من آل مرى(٤٦) ، وما كان يرافق ذلك من اقتتال دام واحراق وتخريب وتقتيل في المدن والقرى وفي كل ساحة البلاد الشامية بدوها وحضرها جندها وعشيرها وتركمانها وعربها .

لقد امتد سلطان ال الفضل الى شاطىء الفرات حتى البصرة ويذكر ابن الفرات ان ولد الامير نعير بن حيار حضر الى الوطاق الشريف واخبر أن والده نعير استولى على بغداد وجلب معه محضرا مثبوتا وانه خطب فيها باسم السلطان الظاهر(٤٧) سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٤ ، وان السلطان ارسل خلعة للامير نعير باستقراره في امرة ال الفضل على عادته .

وكان المماليك يستعينون بالتركمان المنتشرين في شمال بلاد الشام والاناضول ، على القبائل العربية العاصية (٤٨) .

والخلاصة لقد كان للقبائل العربية في بلاد الشام دور سياسي وعسكري بارز منذ القرن الرابع الهجري بتشكيلهم بعض الامارات العربية المستقلة في شمال بلاد الشام ما بين الموصل وحلب ثم اقتصر دورهم على اطراف الصحراء وحول المدن يقدمون الدعم والعون للسلاطين حتى العهد العثماني ، وقد اثروا في الحياة الاجتماعية في دولة المماليك والسلطنة العثمانية ، وكانوا اغلب الاحيان في صراع دائم مع المماليك وامتدت انتفاضتهم من صعيد مصر والصحراء الشرقية وبلاد الشام حتى السماوة والبصرة والحجاز ، طورا يلتزمون بالطاعة للولاة والسلاطين ، وطورا يعيثون فسادا ويشتركون في الحروب الاهلية التي كانت تجري باستمرار لكثرة الطامعين في الحكم فضلا عن الصراع القيسي اليمني بين عشران فلسطين وعشران دمشق .

وثمة امر يلفت النظر في اوضاع تلك القبائل العربية وحالتها السياسية اذ انها رغم كثرتها وانتشارها وقوتها العسكرية الكبيرة لم تستطع ان توطد سلطتها العربية في امارات وسلطنات اغلب المسيطرين فيها ليسوا عربا.

ويعود ذلك الى قلة استقرار هذه القبائل في مواضع محددة ذات طابع توطني دائم فكان في مكنتها التنقل والرحيل من بلاد الشام الى العراق وغيرها ، وترك منازلها فلم تستقر في مدينة كبيرة تسيطر عليها بمفهوم الحكم السياسي رغم توفر العصبية التي هي اساس الحكم من اجل انشاء كيان امارة او دولة ذات طابع مدني فكانت تكتفي بفرض الاتاوات على المدن والقرى حيث سادت العقلية البدوية الاعرابية

على ان الجهل وانعدام العلم بمفهومه الديني والدنيوي والتربوي وغياب المـدارس والتدريس عند هذه القبائل بحيث جهلوا تاريخهم وموقعهم الاجتماعي ولم يدركوا حقيقة هويتهم ، قـد كان مـن اسباب عجزهم عـن حكم البلاد والمواقع التي سيطروا فيها بداوتهم السطحية ، فصاروا اداة في يد غيرهم يتسلطون على غيرهم ويظلمـون انفسهم .

لقد نشأت في عهدهم امارات تركمانية وسلطنات كثيرة مابين شمال الشـام والعراق وفارس بفئات تركمانية قليلة (القطيع الاسود والابيض) عندما استقـرت في مدن وحواضر كبيرة مع عصبية عرقية ، وعجزت القبائل العربية في نفس الوقت عن اقامة حكم مستقر رغم كثرتها وقوتها وعصبيتها وسعة انتشارها ما بين صعيد مصر والصحراء الشرقية وبلاد الشام والعراق بسبب جهلها وترحلها وضيق نظرتها السياسية الى الحياة العـامة .

انهـا ظاهرة معقدة في تاريخنـا ينبغي جلاؤهـا وتحليلهـا والعكوف عـلى دراستها واستخلاص العبر والنتائج من اسبابهـا لانها ماتـزال تتحكم في تاريخنا الحديث بانعكاساتها المتعددة في مجتمعنا ، واحرى بالمجلة التاريخية وطالبي الدراسات التاريخية في الجامعات العربية ان يتوفروا على استجلائها ورفع الظلال عنهـا لتكون عونا لنا في حياتنا العربية المعاصرة ولا سيمابعد ان حاول الاجانب ويحاولون استكشاف الثغرات في تركيبنا الاجتماعي ــ النفسي لتسخيرة ضدنا والاضرار بنا والافادة من هذا التناقض والتفاوت المتعدد في البيئة العربية .

(١) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي طبع بيروت ١٩٠٨ ص ١٨٣ ـ ٨١٥ ـ ٢٢٥ ، ٢٣٠
(٢) الذيل ١٨٥
(٣) الذيل ٢٢٥
(٤) تاريخ حيدر الشهابي ص ٣١٦
(٥) نفس المصدر ، ص ٣٢٣
(٦) الذيل ٢٢٥
(٧) الذيل ٢٣٠ ـ ٢٣٦
(٨) الذيل ٣٠٤
(٩) الذيل ٣٠٤
(١٠) الذيل ٣١٢ ، ٣٤٣
(١١) صبح الاعشى ٢٣/٤ ـ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨
(١٢) صبح الاعشى ٢٣٢/٤
(١٣) صبح الاعشى ٢٠٤/٤
(١٤) السلوك للمقريزي . طبع دار الكتاب المصري ٤٣٣/١
(١٥) السلوك للمقريزي ـ طبع دار الكتاب المصري ٤٤٢/١ ـ ٤٤٥ ، ٤٦٢
(١٦) صبح الاعشى ٢٣١/٤ ، ٢٣٢
(١٧) تاريخ حيدر الشهابي ص ٣٣٢
(١٨) تاريخ حيدر الشهابي ص ٣٤٧
(١٩ تاريخ حيدر الشهابي ص ٣٥٦
(٢٠) تاريخ حيدر الشهابي ص ٣٤٩
(٢١) تاريخ حيدر الشهابي ص ٣٥٢
(٢٢) مفرج الكروب لابن واصل القاهرة ١٩٥٣ ص ٢٢٥/١
(٢٣) مفرج الكروب لابن واصل القاهرة ١٩٥٣ ص ٢٦٥/٣
(٢٤) مفرج الكروب لابن واصل القاهرة ص ١٧٧/٤ ـ ٢٥٥/٥ ـ ٥٨٢/٥ ـ ٢٨٩/٥
(٢٥) السلوك ٤٦٥/١
(٢٦) صبح الاعشى ٢٠٦/٤ ـ ٢٠٨
(٢٧) صبح الاعشى ٢٥٠/٤
(٢٨) صبح الاعشى ٢٥٢/٩
(٢٩) صبح الاعشى ١٢٠/١٢ ـ ١٢٣
(٣٠) صبح الاعشى ١٢٩/١٢
(٣١) صبح الاعشى ١٣٠/١٢–١٣٤

(٣٢) التعريف بالمصطلح الشريف (ابن فضل الله العمري) ص ٧٩–٨٠

(٣٣) التعريف بالمصطلح الشريف (ابن فضل الله العمري) ص ٨١

(٣٤) رحلة الامير يشبك الدوادار مخطوط مصور بالمجمع العلمي بدمشق رقم ٩ يذكر فيه حملة مجهزة بالمدافع خرجت من القاهرة الى بلاد الارمن في كيليكيا واخضعتهم اشترك فيها عشران نابلس والقدس والصقيلبية وعربان ربيعة وامير جرم وعساكر الشام .

ص ١– ١٢– ١٨– ١٩– ٣٥– ٧٤ .

(٣٥) زبدة كشف الممالك : ابن عبد القاهر ص ١٣٦ طبع باريز ١٨٩٤

(٣٦) زبدة كشف الممالك : ابن عبد القاهر ص ١٠٥ طبع باريز ١٨٩٤

(٣٧) تاريخ ابن الفرات تحقيق قسطنطين زريق ١٩٤٢، الجزء ٦/٧

(٣٨) تاريخ ابن الفرات تحقيق قسطنطين زريق ١٩٤٢ الجزء ٢٩/٧–٣١

(٣٩) تاريخ ابن الفرات تحقيق قسطنطين زريق ١٩٤٢ الجزء ١٦٩/٧–١٧٢

(٤٠) ابن الفرات ١٧٧/٧–١٧٨

(٤١) ابن الفرات ٢٠٠/٧

(٤٢) ابن الفرات ٢١٣/٧ — ٢١٨

(٤٣) صبح الاعشى ٢٩/٤

(٤٤) التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٠٩ — ١١٠

(٤٥) ابن الفرات ٦٧/٨

(٤٦) ابن الفرات ٢١٢/٩–٢٣٣

(٤٧) ابن الفرات ٢٧٨/٩–٢٨٢

(٤٨) ابن الفرات ٤٥/٩

بيتُ المقدِس

كما صورها ناصر خسرو في رحلته

د . يوسف بكّار

جامعة اليرموك ـ الاردن

ـ ١ ـ

انه لنافلة ان يقال ان دواعي الرحلة والسفر في الاعصر الغابرة قد تعددت وتنوعت ، فكان منها الاطلاع على ارجاء الدولة الاسلامية المترامية الاطراف لوصفها تسهيلا لمهمة الولاة والحكام في تطبيق احكام الشريعة . ومن هنا جاءت دراسة البلدان وخراجها وانبجست فكرة التأليف في « تقويم البلدان » .

وكان منها طلب العلم والتوسع في التجارة ، ومن الرحالة من جمع بين الامرين معا . ومنها ما كان يتم عن طريق السفارة والارسال من لدن الحكام . ولعل اداء فريضة الحج كان من أكبرها واوسعها ، وكذلك « سلوك الطريقة » (التصوف) ، ومن أكبر الامثلة على هذا الداعي ما كان من امر فريد الدين العطار والغزالي وجلال الدين الرومي .

وليس من شك في ان ما عرف عن الشرقيين ن اكرام الضيف واحترامه . وبساطة العيش وسهولته قد ساعد على تسهيل امر الرحلات آنذاك(١) .

ـ ٢ ـ

في اطار هذه الدواعي او بعضها يمكن ان نسلك رحلة نفر من علماء الفرس وشعرائهم وفلاسفتهم الى المشرق العربي من بلدان الخلافة الاسلامية . وقد كان في طليعة هؤلاء الاعلام ، غير ناصر خسرو موضوع هذا البحث : حجة الاسلام ابو حامد

*** اعد هذا البحث للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، عمان ، ٤ ـ ٩ جمادي الاخرة ١٤٠٠ هـ/١٩ ـ ٢٤ نيسان ١٩٨٠ م .**

الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) ، والشاعر الخاقاني (٥١٠ ـ ٥٩٢ هـ) ، وفريد الدين العطار (٥٣٧ ـ ٥٨٩ هـ) ، ومولانا جلال الدين الرومي البلخي (٦٠٤ ـ ٦٧٢ هـ) والشاعر المعروف سعدي الشيرازي (٦٠٦ ـ ٦٩١) .

الغزالي كان اقدمهم رحلة الى ديارنا ، وكانت بغداد التي عينه السياسي العجوز والوزير الداهية نظام الملك الطوسي مدرسا في « نظاميتها » عام ٤٨٤ هـ مفتتح اسفاره ، وفيها اقام اربع سنوات ثم تركها الى الشام والقدس ، يقول « واظهرت عزم الخروج الى مكة ، وانا ادبر في نفسي سفر الشام ، حذرا ان يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمي على المقام في الشام ، فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم ان لا اعاودها ابدا »(٢) .

ففي دمشق نزل بالمسجد الاموي وكان يعتكف طورا ويدرس تارة . وظل هناك سنتين ، وغادرها الى بيت المقدس واقام فيها مدة يقال انه كان يدخل قبة الصخرة يوميا ويغلق بابها عليه . وفي القدس الشريف شرع في تأليف « احياء علوم الدين » واتمه بدمشق ، وهو الذي نُقل ، بعد ذلك ، مختصرا الى الفارسية باسم « كيماي سعادت » (كيميا السعادة) . ويقال انه الف في القدس ايضا « الرسالة القدسية في قواعد العقائد » وقد كتبها خصيصا لاهل بيت المقدس ، وجعلها قسما من ربع العبادات في « احياء علوم الدين » (٣) .

فأما الخاقاني افضل الدين ابراهيم الذي يلقبه الفرس (حسان العجم) ، فكان الهدف الاول من سفره عام ٥٥٠هـ زيارة مكة للمرة الثانية(٤) . وقد سجل مشاهداته في مكة وغيرها شعرا في مثنوية طويلة اسماها « تحفة العراقين »(٥) (عراق العرب وعراق العجم) ،وقد ضمنها ، فضلا عن مشاهداته ، معلومات كثيرة عن سيرته وحياته . وهي تقع في خمس مقالات : جزء من الثالثة عن العراق وبغداد خاصة ، والرابعة في وصف مكة ، والخامسة في وصف المدينة (٦) وذكر الشاعر « بيت المقدس » و « المسجد الاقصى » غير مرة في ديوانه ايضا (٧) .

اما فريد الدين العطار النيسابوري . فقد اكثر من الترحال وغادر مرتعطفولته فجاب ، فيما جاب ، الكوفة ومصر ودمشق ومكة ، وان ليس ثمة معلومات واخبار عن زياراته هذه (٨) .

واما جلال الدين الرومي ، فيبدو انه اعتاد حياة الرحلة والسفر والفها منذ نعومة اظفاره ، اذ لقفها عن اسرته التي تركت « بلخ » مسقط راسها اول مرة عام ٦٠٩ هـ لاسباب يختلط فيها السبب الفكري وهو اختلاف والده بهاء الدين محمد

المعروف بـ « بهاء الدين ولد » مع فخر الدين الرازي ، بالسبب السياسي وهو — فيما يروى — اختلاف الاب ايضا مع حاكم البلاد ، وباسباب اخرى عامة لعل من اهمها شعور الوالد بقرب هجوم المغول ، وقد كان عمر جلال الدين انذاك خمس سنوات . وهكذا طفقت الاسرة تتنقل من مدينة الى اخرى . والذي يهمنا تركها نيسابور الى بغداد ثم مكة ، واهم من هذا ما يقال عن رحيل « مولانا » بعد وفاة والده عام ٦٢٨ هـ الى الشام للدرس والتحصيل في الوقت الذي كان ينزل فيها الصوفي المعروف محيي الدين بن عربي وان ليس ثمة ما يشير الى التقائه بابن عربي سواء في الاخبار ام في شعر جلال الدين نفسه . بيد أن من المحقق ان « مولانا » تلمذ بدمشق للشيخ برهان الدين الترمذي احد تلاميذ ابيه ، وتلمذ ، بعد وفاة برهان الدين ، للشيخ « شمس الدين التبريزي » ، وهو الذي سمى جلال الدين ديوانه « شمس تبريز » باسمه (٩) .

أما سعدي الشيرازي ، فقد بدأ اسفاره ، فيما يفهم من استنتاجات دراسية من شعره ، قبل عام ٦٢٣ هـ(١٠) حين اضطر الى ترك شيراز ثانية ، وظل يجوب الافاق قرابة ثلاثين عاما ، واقام ، فيما اقام ، ردحا من عمره في العراق والشام ، وقصد الحجاز حاجا (١١) .

— ٣ —

وأما ناصر خسرو (٣٩٤ — ٤٨١ هـ) موضوع بحثنا هذا ، فهو الرحالة الفارسي الوحيد ، فيما اعلم ، الذي كتب عن القدس من بين الذين زاروها من الفرس ووصفها في كتابه « سفر نامه » بالشكل الذي هو عليه الان (١٢) .

لست أراني في حاجة الى الكلام على حياة ناصر خسرو وسيرته ، او على رحلته وقصتها عموما بيد انه لا مندوحة من بضع اضاءات استهل بها حديثي : اولها ان رحلة سبع السنوات التي جاب فيها الرحالة الفارسي الافاق والتي لم يكن مخططا لها ان تطول الى هذا الحد ، كان مبعثها حيرة الرجل وتأملاته ومكاشفاته النفسية وتعطشه لمعرفة الحقيقة التي لم يستطع ان يهتدي اليها فيما قرأ في الكتب السماوية وغير السماوية ، وفيما سمع من العلماء والفلاسفة (١٣) . وثانيها : ان ناصرا زار بيت المقدس عن طريق لبنان قبل توجهه الى الديار المقدسة حاجا ، وعاد اليها بعد اداء الفريضة ، ثم عزم على الرحلة الى مصر على ان يغادرها الى مكة من جديد .

وثالثها واخرها ، انه بدا بكتابة اخبار رحلته ومشاهداته فيها من مذكراته التي

كان يدونها يوما فيوما ، فقد قال « هذا ما رأيت في جامع بيت المقدس ، فقد صورته وضممته الى مذكراتي » ، والا انى له هذه الدقة في الوصف ، وخاصة في وصف مسجد الصخرة وقبتها والمسجد الاقصى ، وطول النفس في تسجيل الاسماء والارقام فكل هذا مما لا يعلق بالذاكرة ، المدة الطويلة ، التي امتدت اليها رحلته ؟

— ٤ —

كانت أرض « عكة » أول ارض فلسطينية وطئتها اقدام ناصر خسرو ورفيقي سفره ، وهما اخوه الاصغر وغلام هندي . وفي جبل « عكة » زار مشاهد الانبياء ، عليهم السلام ، ثم ذهب الى قرى « البروة » و « دامون » و « اعبلين » حيث قبر هود عليه السلام ، وحطين(١٤) حيث قبر شعيب وقبر ابنته زوج موسى عليه السلام و « اربد »(١٥) ومنها الى « كفر كنه » التي عاد منها الى طبريا ثانية ، وقد وصف في تجواله هذا ما رأى وشاهد من اضرحة ومزارات ومبان وجبال واماكن ، وبحيرة طبرية

وبعد يوم في عكة تركها الى « حيفا » وقد كانت قرية ، فيما يقول . ومنها توجه الى قرية « كنيسة » ثم الى « قيسارية » التي تبعد عن عكه سبعة فراسخ(١٦)، ثم الى « الرملة » ومنها الى «اللطرون»(١٧) و «قرية العنب» حتى وصل الى بيت المقدس في الخامس من رمضان عام ٤٣٨ بعد سنة شمسية كاملة على خروجه من بلده ، لم ير فيها هو ورفيقاه الراحة قط .

نلاحظ باديء ذي بدء ان ناصرا لم يشر ، مثلما اشار الاصطخري قبله ، الى ان الرملة كانت مدينة فلسطين العظيمة الاولى انذاك ، وان بيت المقدس كانت تليها في الكبر (١٨) ونلاحظ ايضا ان الرحالة الفارسي يذكر بشيء من الدهشة والعجب ان « أهل الشام وتلك النواحي يطلقون على (بيت المقدس) بضم الميم وفتح القاف وتشديد الدال وفتحها ـ القدس » (النص الفارسي ، ص ٢٦) ولا غرابة لان الايرانيين الى يومنا هذا لا يعرفونها الا بهذا الاسم «بيت المقدس»(١٩) ، وليس بيت المقدس(٢٠) بفتح الميم وسكون القاف وكسر الدال) مثلما هي الحال عندنا .

— ٥ —

كان ناصر خسرو يهتم في تسجيل اخبار رحلته ومشاهداته بكل شيء : طبيعة البلاد ومناخها ، أبنيتها وآثارها التاريخية والدينية ، مظاهر حياة اهلها وعاداتهم وتقاليدهم واحوال عيشهم . بيد ان اهتمامه بالعمارة ووصف المساجد والاماكن

الدينية فاق كل اهتمام ، ويتضح هذا بجلاء في وصفه بيت المقدس وقبة الصخرة ومسجدها والمسجدالاقصى وما اشتملت عليه جميعاوصفا دقيقا مدعما بالارقام الدقيقة التي قلما نقع على مثلها عند الرحالة خاصة وعند كثيرين من المؤرخين عامة . يقول كراتشكوفسكي : « ويمثل وصفه لبيت المقدس قسما من أهم اقسام كتابه ، مما مكن لمدنيكوف Mednikov على اساسه أن يقدم وصفا واقعيا للمسجد المعروف بمسجد عمر »(٢١) .

لم يكن الرجل يقنع بما كان يشاهده بنفسه ، انما كان يسأل الناس ويستوضحهم وان لم يكن يأخذ بكل ما كان يسمع ، فما اكثر ما رد من اعتقاداتهم ومعارفهم . وكان يأخذ بالروايات محترسا بمثل قوله « والعهدة على الراوي »و « والله تعالى اعلم » .

— ٦ —

لم يقف الرحالة الفارسي عند وصف مدينة القدس والكلام على حياة اهلها او على مرافقها المختلفة طويلا ، وكأنه كان يدخر حديثه لوصف معالمها التاريخية والدينية ومع هذا ، فقد سجل لنا عن قدسنا في ذلك الوقت معلومات مختصرة مهمة معرفتها لنا الان ، وانفرد بذكر اشياء لم يذكرها غيره .

فلقد وصف المدينة بانها « مشيدة على قمة الجبل ، وليس بها غير ماء الامطار ، وليست ذات عيون . والمدينة محاطة بسور حصين من الحجر والجص . وعليها بوابات حديدية . وليس بقربها اشجار قط ، فانها على رأس صخر » . ووصف اعمالها وما تتسم به بايجاز ، فقال : وسواد ورساتيق بيت المقدس جبلية كلها ، والزراعة واشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء . والخيرات بها كثيرة ورخيصة وفيها أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين الف (من) من زيت الزيتون ، يحفظونها في الابار والاحواض ويصدرونها الى اطراف العالم . ولئن اكتفى ناصر بذكر الزيت من الصادرات فان المقدسي قبله باكثر من نصف قرن ذكر صادرات اخرى للقدس منها : الجبن والقطن والزبيب والمرايا (٢٢) .

ولم يفصل ناصر القول في اسواق المدينة وصناعاتها ، انما اكتفى بقوله :
وبها اسواق جميلة وابنية عالية .... وفي المدينة صناع كثيرون ، لكل جماعة منهم سوق خاصة .

ومن الغريب ان يغفل ناصر خسرو القادم من « خراسان » الاشارة الى مناخ

القدس وطبيعة هوائها وقد كانت كما وصفها المقدسي « لا شديدة البرد ، وليس بها حر ، وقل ما يقع بها ثلج(٢٣ » في حين ان خراسان كانت ، وما زالت معـــروفة ببردها وثلجها ، ولقد رسم شاعرنا ابو تمام صورا جميلة لشتائها في لامية(٢٤) يكاد يلخصها هــذا البيت :

اذا خراسان عن صنبرها كشرت كانت قتــادا لنــا انيابها العصل

— ٧ —

انفرد ناصر خسرو بذكر عدد سكان المدينة المقدسة عام ٤٣٨ هـ ، فقال انه كان بها عشرون (٢٠) ألف رجل (٢٥) فانى له هذا الرقم ؟ ولماذا اغفل النساء وغيـــر النساء ان لم يكن المقصود بالرجل شخصا ؟ .

وعلى اية حال ، فان في هذا ما يتلاءم مع ما يقال بأن عدد سكان القدس كان ، حين دخلت في حوزة الفاطميين عام (٩٦٦ م) على اثر احتلال جوهر الصقلي لهـــا ، عشرين الفا من السكان جلهم من الشيعة (٢٦) .

وانفرد ايضا بالاشارة الى انه كان في القدس في العهد الفاطمي مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة ، ويصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء . وبه اطباء يأخـــذون مرتباتهم من الوقف المقرر لهذا المستشفى .

بهذا يكون الرحالة الفارسي قد اشار الى اثر هام من اثار الفاطميين وصـــرح من صروحهم العلمية في المدينة المقدسة . وانفرد بذكر هذا المستشفى الذي ليست لدينا معلومات عمن بناه (٢٧) والذي كان اول مستشفى عرفته القدس ، وكان يقوم في الموضـــع المعروف اليوم بـ « الدباغة »(٢٨)

— ٨ —

ولم يفت ناصرا ان يسجل ما رأى للقدس من مكانة دينية عند المسلمين وغير المسلمين . ـ فأما المسلمون ، فكان يذهب اليها من اهل الشام في موسم الحج مـــن لا يستطيع الذهاب الى مكة ، فيتوجه الى الموقف ويضحي العيد كما هي العـــادة . ويحضر هناك لتأدية السنة ، في بعض السنين ، اكثر من عشرين الف شخص في اوائل ذي الحجة ومعهم ابناؤهم .

واما غير المسلمين ، فيذكر انه يأتي ازيارة المدينة من ديار الروم كثير من النصارى واليهود ، وذلك لزيارة الكنيسة والكنيش .

ويذكر ان خلقا كثيرين كانوا يقصدون سهل « الساهرة » املا في ان يموتوا في ارض الميعاد وفقا للاعتقاد الذي كان سائدا ، وهو ان هذا السهل سوف يكون ساحة القيامة والحشر (٢٩) .

ومن اعتقادات العامة التي سجلها ناصر خسرو ما كانوا يعتقدونه عن « وادي جهنم »(٣٠) الذي يبدو ان الرحالة الايراني كان ثالث من ذكره من قدماء البلدانيين ، والاخران هما : ابن الفقيه (٣١) والمقدسي (٣٢) يصف ناصر الوادي بشيء من الدهشة فيقول : « واد عظيم الانخفاض ، كأنه خندق ، وبه ابنية كثيرة على نسق ابنية الاقدمين ورأيت فيه قبة من الحجر المنحوت مقامة على بيت لم ار اعجب منها ، حتى ان الناظر اليها ليسأل نفسه : كيف رفعت في مكانها ؟ ويقول العامة : انها بيت فرعون » .

ويذكر انه سأل عمن سمى الوادي باسمه هذا ، فأجيب ان الفاروق عمر هو الذي سماه به بعد ان رآه حين انزل جيشه في « سهل الساهرة » . اما ماذا كان يعتقد العوام حول هذا الوادي ، فيقول مخبرا ومفندا ما قيل في آن واحد : «يقول العوام ان من يذهب الى نهايته (الوادي) يسمع صياح اهل جهنم ، فان الصدى يرتفع هناك وقد ذهبت فلم اسمع شيئا » .

ومن الطريف ان هذا الاعتقاد مازال حيا في اذهان العامة الى زماننا هذا (٣٣) وليس ببعيد ان يكون منشؤه ، آنذاك ، المقولة التالية التي نقلها ناصر ، ومقولة ابن الفقيه من قبله « وعليه (الوادي) ينصب الصراط(٣٤) » وقد يكون منشؤه ، كذلك ما يروى عن الرسول ، عليه السلام ، من احاديث واخبار في هذا الخصوص . روي عن ابي ذر ، رضي الله عنه ، انه قال : قلت : يا رسول الله ، اخبرنا عن بيت المقدس . قال : « ارض المحشر والمنشر »وعن كعب انه قال « العرض والحساب من بيت المقدس» ، وعن قتادة في قوله تعالى «واستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب »(٣٥) قال : « من صخره بيت المقدس » ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، في قوله تعالى ، « فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب (٣٦) » ، قال : هو حائط بيت المقدس الشرقي الذي من ورائه واد يقال له : «وادي جهنم» ومن دونه باب يقال له « باب الرحمة »(٣٧) .

ومن اعتقاداتهم التي يذكرها ما يرتبط بـ « عين سلوان » يقول : « ويقال ان

من يستحم من ماء هذه العين يشفى مما الم به من الاوصاب والامراض المزمنة » .
وقد يكون هذا الاعتقاد استمرارا لما عرف عن « عين » كانت عند « عين سلوان » في زمان بني اسرائيل ، هي التي قيل فيها « وكانت المراة اذا قذفت اتوا بها فشربت منها فان كانت بريئة لم تضرها ، وان كانت نطفة ماتت . فلما حملت مريم حملوها فشربت منها فلم تزدد الا خيرا . فدعت الله ان لا يفضح بها امراة مؤمنة ، فغارت العين(٣٨) واستمرارا لما وصفت به عين سلوان بانها « من الجنه » (٣٩) .

ومع تركيز ناصر على معتقدات العامة والاكثار منها ، فانه لم يذكر عن اهل فلسطين عامة واهل القدس خاصة شيئا ، وكذا بالنسبة لمراكزها العلمية وعلمائها ، وبالنسبة للفرق والمذاهب الدينية سوى قوله «وفي عرض المسجد، مسجد الصخرة . رواق في حائطه باب خارجه صومعتان للصوفية » ، في حين ان المقدسي وصف اهلها بقوله « ولا أعف من اهلها ، ولا اطيب من العيش بها »(٤٠) ،وقال عن الفرق والمذاهب وببيت المقدس خلق من الكرامية (٤١) لهم خوانق ومجالس ، ولا ترى به مالكيا ولا داوديا(٤٢) ، وقال : ولاصحاب ابي حنيفة بالمسجد الاقصى مجلس ذكر يقرأون في دفتر وكذلك الكرامية في خوانقهم . وكان الحراس يهللون بعد صلاة الجمعة ، ويجلس الفقهاء بين الصلاتين وبين العشائين ، وللقراء مجالس في الجوامع (٤٣) وفي حين ان محيي الدين بن عربي الذي رحل الى بيت المقدس قبل رحالة فارس بحوالي نصف قرن عرض لمدارسها وشيوخها وعلمائها ومجالس المناظرات فيها مع الكرامية والمعتزلة والمشبهة واليهود (٤٤) .

— ٩ —

فأما عن الصخرة وقبتها ومسجدها ، فقد مهد ناصر قبل الكلام عليها بنبذة تاريخية مؤكدا ان المسجد ما بني على حافة المدينة الشرقية الا لوجود (الصخرة) هناك، الصخرة التي امر الله موسى ، عليه السلام ، ان يتخذها « قبلة » وظلت قبلة الى مجيء محمد عليه السلام ، حين امر الله تعالى ، عباده ان يولوا وجوههم شطر الكعبة . وقد بنى سليمان ، عليه السلام، المسجد بحيث تكون الصخرة في وسطه .

ثم سرد حكاية تعليق الصخرة بما قيل ان الرسول (ص) صلى ليلة المعراج في « قبة الصخرة » ووضع يده على الصخرة ، فلما خرج وقفت اجلاله ، فوضع يده عليها لتعود الى مكانها وتستقر ، وهي نصف معلقة . ويقال انها حين قامت خلا ما تحتها فلما استقرت بقي هذا الجزء كما كان ، وهو الغار الذي تحت الصخرة ، والذي يضاء بالشمع دائما .

ووصف الصخرة بانها حجر ازرق اللون لم يطأها احد برجله ابدا ، وفي ناحيتها المواجهة للقبلة انخفاض كأن انسانا سار عليها فبدت اثار قدمه فيها . وعليها اثار اقدام قال انه سمع انها اثار اقدام أسماعيل ، عليه السلام ، لما مشى عليها حين كان مع ابيه عليه السلام .

وليس من شك في ان الرحالة الفارسي اعتمد فضلا عن مشاهداته على معلوماته التاريخية عن المدينة وما يتصل بها ، لانه كثيرا ما يصدر اخباره ورواياته بكلمة « يقال » ويعلق على بعضها تعليقات تنم عن هذا . يقول عن « قبة السلسلة » : « وهي السلسلة التي علقها داود ، عليه السلام ، والتي لا تصل اليها الا يد صاحب الحق ، اما يد الظالم والغاصب فلا تبلغها » ويعلق على هذا بقوله « وهذا المعنى مشهور عند العلماء » .

وتتجلى « علمية » ناصر خسرو وجلده في دقة مقاييسه وحساباته فيما خلفه من وصف بالارقام لقبة الصخرة ومسجدها والمسجد الاقصى فقبة الصخرة بيت مثمن منظم كل ضلع من اضلاعه الثمانية ثلاث وثلاثون (٣٣) ذراعا(٤٥) ، وله اربعة ابواب على الجهات الاربع الاصلية ... وبين كل بابين ضلع ... وجميع الحوائط من الحجر المنحوت وارتفاعها عشرون (٢٠) ذراعا ..

ومحيط الصخرة مائة (١٠٠) ذراع ، وهي غير منتظمة الشكل ، لا هي مدورة ولا مربعة ، ولكنها حجر غير منتظم كحجارة الجبل . وقد بنوا على جوانب الصخرة الاربعة اربعة دعائم مربعة بارتفاع خائط البيت المذكور . وبين كل دعامتين ، على الجوانب الاربعة ، عمودان اسطوانيان من الرخام ، بالارتفاع نفسه . وعلى قمة تلك الدعائم وهذه الاعمدة الاثني عشر (١٢) بنوا القبة التي تحتها الصخرة ، والتي يبلغ محيطها مائة وعشرين (١٢٠) ذراعا ...

والخلاصة ان « قبة الصخرة » كانت ترتكز على اثنتي عشرة دعامة محيطة بالصخرة ، يقول « فتراها على بعد فرسخ كأنها قمة جبل لانها من اساسها الى قمتها ثلاثون (٣٠) ذراعا ، وهي تستند الى اعمدة ودعامات ارتفاعها عشرون (٢٠) ذراعا . وقبة الصخرة مشيدة على بيت ارتفاعه اثنتا عشرة ذراعا . واذن فمن ساحة المسجد الى رأس القبة اثنتان وستون ذراعا » .

واذا ما وازنا بين وصف ناصر خسرو لقبة الصخيرة وبين ما هي عليه الان نجد (٤٦) :

أولا : ـ انه كان يوجد بقبة الصخرة اثنان وثلاثون (٣٢) عمودا مستديرا (سوى الدعامات المربعة) ، في حين أن فيها الان ثمانية وعشرين (٢٨) فقط .

ثانيا : يتفق قياس محيط القبة في ايامه مع قياسه الحالي .

واخيرا : ثمة تفاوت بين ارتفاع القبة عند ناصر خسرو وهو (١٢٤) قدما وبين ارتفاعها الحالي (١١٢) قدما .

وليس من شك ان سبب هذا وما اعترى المسجد الاقصى من تغيير يعود الى ما انتاب الحرم القدسي من عوادي الطبيعة في الفترة ما بين المقدسي وناصر خسرو وخاصة زلزال عام ٤٢٥ هـ (١٠٣٣ م) ، اذ تكفل الخليفة الفاطمي الظاهر لاعزاز دين الله اعماره في السنة التالية (٤٧) .

واما « مسجد الصخرة » فذكر انه مبني على حافة المدينة من الناحية الشرقية ، ويطل احد حيطانه على وادي جهنم . ارتفاعه مائة (١٠٠) ذراع من الحجر الكبير الذي لا يفصله عن بعضه « ملاط » أو « جص » . وذكر انه كان ينوي ان يقيس المسجد بنفسه لولا ان راى عند الجانب الشمالي بجوار قبة يعقوب ، عليه السلام ، طاقا مكتوبا على حجر منه ان طول المسجد سبعمائة واربع وخمسون (٧٥٤) ذراعا ، وعرضه اربعمائة وخمس وخمسون (٤٥٥) ذراعا بذراع الملك (٤٨) .

ولقد ساعده هذا في التفرغ لوصف داخل المسجد وصفا يكشف عن اعجابه بالدقة التي روعيت في تنظيمه . فأرضه مغطاة بحجارة موثوقة الى بعضها بالرصاص ، وفيه رواق عظيم جميل ارتفاعه ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون . وله جناحان منقوشة واجهتاه وايوانه بالفسيفساء المثبتة بالجص « وهي من الدقة بحيث تبهر النظر » . وكانت على الرواق كتابة منقوشة بالمينا . وقد كتب هناك لقب سلطان مصر . وفوق الرواق قبة كبيرة من الحجر المصقول ، وله بابان مزخرفان وواجهتاهما من النحاس الدمشقي ، وقد طعما بالذهب وحليا بالنقوش الكثيرة ، وطول كل منهما خمس عشرة (١٥) ذراعا وعرضه ثمان (٨) واسمهما ((باب داود)) . وبعد هذا الباب ، على اليمين ، رواقان كبيران في كل منهما تسعة وعشرون (٢٩) عمودا من الرخام ، تيجانها وقواعدها مزينة بالرخام الملون ووصلاتها مثبتة بالرصاص . وعلى تيجان الاعمدة طيقان حجرية مقامة فوق بعضها بغير « ملاط وجص » . ولا يزيد عدد حجارة الطاق الواحد على اربع او خمس قطع . وعلى اليسار رواق طويل به اربعة وستون (٦٤) طاقا كلها على تيجان اعمدة من رخام .

وجعل يذكر الاروقة والابواب الاخرى ، فذكر : باب السقر ، وباب الاسباط ، وباب الابواب ، وباب الرحمة ، وباب التوبة .

— ١٠ —

وحين وصل الى وصف المسجد الاقصى قال انه اكبر « مرتين »(٤٩) من مسجد « مهد عيسى » وقال : انهم (بنوا به ابنية غاية في الزخرف ، وفرش بالسجاد الفاخر ، ويقوم عليه خدم مخصصون يعملون به دواما . والمسجد مشيد على صخرة وارضه مستوية . وهناك ساحة المسجد والجزء المسقوف منه الذي به «المقصورة» ويقع عند الحائطين الجنوبي والغربي وطول هذا الجزء اربعمائة وعشرون (٤٢٠) ذراعا وعرضه مائة وخمسون (١٥٠) . وبه مائتان وثمانون عمودا من الرخام . ثم اخذ يصف تيجان الاعمدة والمقصورة ونقوشها وفرشها ، ويعدد محاريبها واروقتها وابوابها وما تشتمل عليه جميعا بدقة تامة . وذكر ان احد الابواب الخمسة عشر زين « غاية الزينة ، وهو من الحسن بحيث تظن انه من ذهب . وقد نقش بالفضة وكتب عليه اسم الخليفة المأمون ، ويقال انه هو الذي ارسله من بغداد » .

هنا يلتقي ناصر خسرو مع المقدسي مع فارق بسيط هو ان ناصرا ذكر اسم المأمون في حين ذكر الاخر ان رواق الخمسة عشر بابا احدثه عبد الله بن طاهر الذي كان واليا للمأمون على مصر والشام (٥١) .

ويذكر ناصر ان كان عند الحائط الكبير« رواق به اثنان واربعون طاقا ، وكل اعمدته من الرخام الملون . وهذا الرواق متصل بالرواق المغربي . ثم يذكر الابواب الخارجية التي تؤدي الى ساحة المسجد ، وهي : باب النبي في الجنوب ، عرضه عشر اذرع . وارتفاعه يتفاوت حسب المكان ، فهو في مكان خمس اذرع وفي اخر عشرون . والجزء المسقوف من المسجد الاقصى مشيد فوق هذا الممر « ويقال ان سليمان بن داود هو الذي بناه ، وقد دخل منه نبينا عليه الصلوات والسلام الى المسجد ليلة المعراج » . وباب العين شرقي في عرض المسجد ، وباب الحطة وهو تحت الارض ، وهو الباب الذي امر الله ، عز وجل ، بني اسرائيل ان يدخلوا منه الى المسجد الاقصى ، فقال « وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم . وسنزيد المحسنين »(٥٢) . وباب السكينة .

ولقد وقف (لسترنج) عند وصف كل من المقدسي وناصر خسرو للمسجد الاقصى فراى انهما يعطيان معا فكرة واضحة عن المسجد قبل ان يصل اليه

الصليبيون ، بيد ان الفارق الرئيسي بين وصفيهما يكمن في عدد الابواب التي كانت على عهد المقدسي خمسة عشر الى الشمال واحد عشر الى الشرق في حين ان ناصر خسرو وصف سبعة الى الشمال وعشرة مفتوحة شرقا . وقد عزا هذا الاختلاف الى الزلازل التي حدثت في فترة الستين سنة بين زيارة كل من الرجلين المدينة(٥٣) وهو ما ألمحت اليه عند الكلام على المتغيرات التي اعتورت قبة الصخرة .

ولا مندوحة من الاشارة الى ان الرحالة المسلم لم يشر من قريب او بعيد الى « باني » المسجد الاقصى . لربما انه كان يدرك حقيقة الاختلاف في بانيه : اهو عبد الملك بن مروان ، فيما يذكر المقدسي ومؤيدوه . من مؤرخي القرنين الثالث والرابع الهجريين ، أم الوليد ابنه فيما يذهب فريق اخر (٥٤) فآثر الا يخوض في مسألة احتدم فيها الخلاف ، والا يحشر نفسه في زمرة من زمر المختلفين . واهتم بوصف المسجد والكلام على ما فيه . .

غير ان ناصرا التفت الى مسألة هامة ، هي المياه التي كان يعتمد عليها المسجد فقال : « وتحت الارض في الحرم المسقوف حوض يجعل بحيث يكون في مستوى الارض حين يغطى . وقد بني لتجمع فيه مياه المطر . . وقد حفرت في ارض المسجد احواض وصهاريج كثيرة ، فان المسجد مشيد كله على صخرة . فمهما يهطل المطر لا يذهب خارج الاحواض ولا يضيع سدى ، بل ينصرف الى الاحواض وينتفع به الناس . وهناك (ميازيب) من الرصاص ينزل منها الماء الى احواض حجرية تحتها وقد ثقبت هذه الاحواض ليخرج منها الماء ويصب في الصهاريج ، بواسطة قنوات بينها ، غير ملوث أو عفن » .

وجره الحديث عن مصادر مياه المسجد الى الكلام على مصادر مياه المدينة كلها ، فقال « وقد رأيت على ثلاثة فراسخ من المدينة صهريجا كبيرا تنحدر اليه المياه من الجبل وتتجمع فيه . وقد اوصلوه بقناة الى مسجد المدينة حيث يوجد اكبر مقدار من مياه المدينة . وفي المنازل كلها احواض لجمع ماء المطر ، اذ لا يوجد غيره هناك ، ويجمع كل انسان ما على سطح بيته من مياه ، فان ماء المطر هو الذي يستعمل في الحمامات وغيرها . ووصف ماء المدينة بانه اعذب وانقى من اي ماء اخر .

مصـــادر البحث ومراجعــه

أولا : العربيـــة

ــ الاشعري ، أبو الحسن علي بن اسماعيل :
مقالات الاسلاميين ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . النهضة المصرية ، الطبعـــة الثانية ١٩٦٩ .

ــ الاصطخري ، أبو اسحق الفارسي :
مسالك الممالك ، طبع ليدن ، بريل ١٩٦٧ م

ــ ابو تمام ، حبيب بن أوس :
ديوان أبي تمام ، الجزء الرابع ، تحقيق محمد عبـــده عزام ، دار المعـــارف بمصر ١٩٦٥ .

ــ ابن الجوزي ، عبد الرحمن :
فضائل القدس ، تحقيق الدكتور جبرائيل جبور . دار الافاق الجديـــدة ــ بيروت ١٩٧٩ .

ــ الخالدي ، احمد سامـــح :

١ ــ اهل العلم بين مصر وفلسطين . الطبعة العصرية ، القدس (دون تاريخ) .

٢ ــ المعاهد المصرية في بيت المقدس ، الطبعة العصرية ، القدس (بدون تاريخ)

ــ الخشاب ، يحيى (الدكتور) :
مقدمة الترجمة العربية لرحلة ناصر خسرو .

ــ الدباغ ، مصطفى مـــراد :
بلادنا فلسطين ، الجزء التاسع ــ القسم الثاني . دار الطليعة ، بيروت ــ الطبعة الاولى ١٩٧٥ .

ــ زايد ، عبد الحميد (الدكتور) :
القدس الخالدة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ١٩٧٤ .

ــ زكي محمد حسن (الدكتور) :
الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، دار المعارف بمصر ١٩٤٥ .

ــ الشرباصي ، احمد (الدكتور) :

الغزالي ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٩ .

ــ العــارف ، عــارف :

١ ــ تاريخ الحرم القدسي . مطبعة الايتام ، القدس ١٩٤٧ .

٢ ــ تاريخ قبة الصخرة المشرفة والمسجد الاقصى . مطبعة دار الايتام ــ القدس (دون تاريخ) .

٣ ــ المفصل في تاريخ القدس . الجزء الاول . مطبعة المعارف ــ القدس . الطبعة الاولــى ١٩٦١ .

ــ ابن عربي ، محيي الدين :

رحلة ابن العربي الى المشرق كما صورها « قانون التأويل » . تحقيق الدكتــور احسان عباس : مجلة الابحاث ــ الجامعة الامريكية ، بيروت . السنة (٢١) الاجزاء (٢ و ٣ و ٤) كانون الاول ١٩٦٨ .

ــ الغزالي ، ابو حامد :

المنقذ من الضلال ، تحقيق الدكتورين جميل صليبا وكامل عياد . دار الاندلس . بيروت ، الطبعة التاسعة ١٩٨٠ .

ــ ابن الفقيه ، ابو عبد الله الهمذاني :

مختصر كتاب البلدان . مطبعة بريل ، ليدن ١٣٠٢ هـ (١٨٨٥ م)

ــ كفافي ، محمد (الدكتور) :

مثنوى جلال الدين الرومي ، الجزء الاول. المكتبة العصرية ، بيروت وصيدا ١٩٦٦

ــ المقدسي ، شمس الدين البشاري :

احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم . طبعة ليدن ١٩٠٦ م .

ــ النويري ، شهاب الدين :

نهاية الارب في فنون الادب ، الجزء الاول . طبعة « تراثنا » المصورة عن طبعة دار الكتب (دون تاريخ) .

ثانيا : الفارسية

ـ اميري . منوجهر (الدكتور) :
آيا سفرنامه ناصر خسرو تلخيصي است ازمتني مفصلتر ؟ (هل كتاب الرحلة تلخيص لنص اطول ؟) بحث في كتاب « يادنامه ناصر خسرو » (ذكرى ناصر خسرو) . مطبوعات جامعة مشهد ـ ايران . مشهد ١٩٧٦ .

ـ الخاقاني ، افضل الدين :
ديوان الخاقاني . تحقيق حسين نخعي ، طهران ١٣٣٦ شمسي .

ـ دبير سياقي ، محمد (الدكتور) :
« نكتة . اي جندر يارة سفرنامه ومسيرنا ناصر خسرو » (بضع ملاحظات حول سفرنامه ناصر خسرو ورحلته) بحث في كتاب « يادنامه ناصر خسرو » السابق .

ـ صفا ، ذبيح الله (الدكتور) :
تاريخ أدبيات در ايران (تاريخ الادب في ايران) طهران . الطبعة الثانية ١٣٥٢ شمسي .

ـ عباسي ، م . محمد لو :
مقدمته لديوان الخاقاني السابق .

ـ فروازنفر . بديع الزمان :
« سعدي وسهروردي » (سعدي والسهروردي) بحث في كتاب « سعدي نامه » (كتاب سعدي) . عدد خاص من مجلة « تعليم وتربيت » (التعليم والتربية) . السنة السابعة . اسفندماه ١٣١٦ شمسي .

ـ قزويني ، محمد :
« ممدوحين شيخ سعدي » (ممدوحو الشيخ سعدي) بحث في كتاب (سعدي نامه) السابق .

ـ ناصر خسرو :
سفر نامه ناصر خسرو . تحقيق الدكتور نادر وزين بور ، طهران ١٩٧٧ .

ـ يوسفي ، غلامحسين (الدكتور) :
ديداري با اهل قلم (في صحبة اهل القلم) الجزء الاول . منشورات جامعة مشهد ، مشهد ١٩٧٦ .

ثالثا : الاجنبية المترجمة والاصلية

ـ براون . ادوارد :

تاريخ الادب في ايران من الفردوسي الى السعدي ، ترجمة الدكتور ابراهيم امين الشواربي . مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٥٤ .

ـ كرتشكوفسكي ، اغناطيوس :

تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هشام . الجزء الاول لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٧ م .

ـ ناصر خسرو :

سفرنامه (رحلة ناصر خسرو) . ترجمة الدكتور يحيى الخشاب . دار الكتاب الجديد بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٠ .

— Le strange, Gy :

Palestine under the Moslems. Beirut, 1965

وترجمته العربية :

فلسطين في العهد الاسلامي ، ترجمة محمود عمايرة . وزارة الثقافة والاعلام ، عمان ١٩٧٠ .

(١) راجع : زكي محمد حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ٥ - ١٣ .

(٢) المنقذ من الضلال ١٣٧ ، تحقيق الدكتورين جميل صليبا وكامل عياد . وفهم بعض الدارسين من هذه العبارة ان الغزالي حج اولا ثم ذهب الى دمشق والقدس ، انظر ، مثلا :

١ - مقدمة المنقذ من الضلال للمحققين المذكورين أعلاه ، ص ١٢

٢ - مقدمة طبعة دار العلم للجميع من (المنقذ من الضلال) ص ٢١ لم يذكر مكان الطبع وتاريخه.

٣ - ادوارد براون : تاريخ الادب في ايران من الفردوسي الى السعدي ٣٦٩ ، ترجمة الدكتور ابراهيم امين الشواربي .

(٣) راجع : احمد الشرباصي ، الغزالي ٤٠ - ٤٢ .

(٩) راجع : ذبيح الله صفا ، تاريخ أدبيات درايران ، الجزء الثالث - القسم الاول ٤٥٣ - ٤٥٥ (ص ٥٥) حيث ذكر انها طبعت بالاسكندرية .

(٤) يقال ان حجته الاولى برفقة عمه قبل ذلك بثلاثين سنة (براون : تاريخ الادب في ايران ٤٩٩ - ٥٠٠) .

(٥) طبعت المثنوية مرتين : الاولى في لكنــــو عام ١٢٩٤ هـ ، والاخرى بطهران عام ١٣٣٢ شمسي من تحقيق الدكتور يحيي قريب .

(٦) يراجع ، لمزيد من التفاصيل : مقدمــــة ديوانه ، ص ٢٣ وما بعدها ، وهي بقلم : م . محمد لو عباسي .

(٧) انظر ، على سبيل المثال : الديوان : الصفحات : ١ ، ١٩ ، ١٦٤ ، ٢٦٩ .

(٨) براون : تاريخ الادب في ايران ٦٤٤ .

(٩) راجع : ذبيح الله صفا ، تاريخ ادبيات در ايران ، الجزء الثالث - القسم الاول ٤٥٣ - ٤٥٥ وبراون : تاريخ الادب في ايران ٦٥٤ - ٦٥٥ ، ومحمد كفافي : مثنوي جلال الدين الرومي ١ : ٣ - ٤ .

(١٠) انظر مقالة « سعدي وسهروردي » في : سعدي نامة ص ٧٧ ، العدد (١١ و ١٢) من مجـلة « تعليم وتربيت » الايرانية ، السنة السابعة ، اسفندماه ١٣١٦ شمسي .

ويرى الدكتور ذبيح الله صفا ان اسفار سعدي كانت في حدود ٦٢٠ - ٦٢١ هـ (تاريخ أدبيات در ايران السابق ، ص ٥٩٢) ، في حين ان محمد قزويني يشك فيما ينسب الى سعدي من شعر في اسفاره ، وفي احدى حكايات « بوستنة » (راجع مقالة : ممدوحين شيخ شيخ سعدي في كتاب : سعدي نامة السابق ، ص ١٦٥) .

(١١) ذبيح الله صفا : تاريخ أدبيات در ايران ٣ (القسم الاول) ص ٥٩٦ ، وبراون : تاريخ الادب في ايران ٦٧٣ .

(١٢) اقول هذا لان ثمة رأيين متضاربين حول الكتاب : خلاصة الاول ان الكتاب قد يكون مختصرا عن الكتاب الام او انه ناقص . ولاصحاب هذا الراي ادلتهم .

راجع : يحيى الخشاب ، مقدمة الترجمـــة العربية لسفر نامة ص ١٧ - ١٨ ، وغلا محسين يوسفي : « سيرى در افاق » (سير في الافاق) في كتاب ديداري يا اهل قلم ١ : ٥٦ و ٥٩ ومنو

جهر اميري : ايا سفر نامة ناصر خسرو تلخيصي ستاز متني مفصلتر « في كتاب » يا دنامة ناصر خسرو ص ٨٠ – ٩٥ .

اما الرأي الاخر ، فيرى ان الكتاب عن رحلةناصر خسرو قد وصل الينا كاملا ، ويمثله الدكتور محمد دبير سياقي اكبر المهتميـــن بناصر خسرووالمشتغلين باثاره .

راجع خسرو : نكتة اي جند دربار سفر نامةومسير ناصر خسرو « في كتاب » يا دنامة ناصر خسرو السابق ص ١٨٠ – ١٩٣ وخاصة ص ١٨٣ .

(١٣) ذبيح الله صفا : تاريخ ادبيات در ايران ٢ : ٢٤٦ ، ومقدمة الخشاب للترجمة العربية من سفر نامـة .

(١٤) في الاصل والترجمة العربية : الحظيرة ،وهو تصحيف . والصحيح ما اثبته (معجم البلدان حطين ، وبلدانية فلسطين العربية (٦١ – ٦٣)

(١٥) في الاصل والترجمة العربية : اربل (باللام) ، وهو تصحيف ايضا . والصحيح ما اثبته (معجم البلدان – اربد ، وبلدانية فلسطين العربية ، ص٥

(١٦) معرب « فرسك » الفارسية . والفرسخ يعادل ستة كيلو مترات .

(١٧) في الاصل الفارسي : خاتون. وقد صححهايحيى الخشاب عن « شيفر » (الترجمة العربية ، هامش ص ٥٥) .

(١٨) مسالك الممالك ، ص ٥٦ .

(١٩) نجد هذا ايضا في : النويري ، نهايــةالارب ١ : ٣٢٥ . ويذكر انه سمي بهذا لانه طهـر من الشرك وجعل مسكنا للانبياء والمؤمنين .

(٢٠) سمي بهذا ، لانه يتطهر به من الذنوب (النويري : نهاية الارب ١ : ٣٢٥ ايضا) .

(٢١) تاريخ الادب الجغرافي العربي ١ : ٢٥٩ ترجمة صلاح الدين عثمان هشام .

(٢٢) احسن التقاسيم ٨٠ .

(٢٣) احسن التقاسيم ١٦٥

(٢٤) ديوان ابي تمام ٤ : ٥٢٧ – ٥٢٩ .

(٢٥) الحملة الفارسية وشهري بزرس است كهان وقت كه دبديم بيسمت هزار (.رد) در وى بودند . ومعنى مرد الفارسية رجل .

(٢٦) عارف العارف : المفصل في تاريخ القـدس ١ : ٤٣٠ .

(٢٧) انظر ايضا : احمد سامح الخالدي ،اهل العلم بين مصر وفلسطين ، ص ٧ .

(٢٨) عارف العارف : تاريخ قبة الصخرة المشرفة ص ٢٨ ، وأحمد سامح الخالدي : المعاهد المصرية في بيت المقدس ٥ – ٦ .

(٢٩) انظر ايضا : المقدسي ، احسن التقاسيم١٧٢ .

(٣٠) راجع تفصيلات اكثر عن هذا الوادي في :مصطفى الدباغ ، بلادنا فلسطين ، الجزء التاسـع – القسم الثاني ، ص ١٤ – ١٨ .

(٤٦) راجع : عارف العارف ، تاريخ قبة الصخرة ٧٩ و :

(٣٢) احسن التقاسيم ص ١٧١ .

(٣٣) الدباغ : بلادنا فلسطين السابق ص١٦ (الحاشية) .

(٣٤) مختصر كتاب البلدان ١٠١ و ٩٥ ايضا .

(٣٥) سورة ((ق)) ، اية ٤١ .

(٣٦) الحديد ، اية ١٣ .

(٣٧) ابن الجوزي :فضائل القدس ١٣٦ – ١٣٧، والنويري : نهاية الارب ١ : ٣٣٤ – ٣٣٥ .

(٣٨) و (٣٩) ابن الجوزي : فضائل القدس٩٧ – ٩٨ ، والنويري : نهاية الارب ١ : ٣٤٤ .

(٤٠) احسن التقاسيم ١٦٦ .

(٤١) الكرامية : الفرقة الثانية عشرة من المرجئة اصحاب محمد بن كرام يزعمون ان الايمان هو الاقرار والتصديق باللسان دون القلب الاشعري مقالات الاسلاميين ١ : ٢٢٣ .

(٤٢) احسن التقاسيم ١٧٩ .

(٤٣) المصدر السابق ١٨٢ .

(٤٤) راجع : رحلة ابن العربي الى المشرق كما صورها – قانون التأويل – ص ٧٩ – ٨٥ حقيق ودراسة الدكتور احسان عباس مجلة الابحاث بالجامعة الامريكية – بيروت . السنة ٢١ ، الاجزاء (٢ و ٣ و ٤) كانون الاول ١٩٦٨ .

(٤٥) يذكر عبد الحميد زايد أن كل ضلع من أضلاعه (١٦) ذراعا (القدس خالدة ١٩٨) .
الدعامة : المربعة المبنية ، ويقابلها بالفارسية ((ستون)) .

(٤٦) راجع : عارف العارف ، تاريخ قبة الصخرة ٧٩ و :

(٤٧) عارف العارف : تاريخ الحرم القدسي ٤٤ ، وتاريخ قبة الصخرة ٧٨ – ٧٩ .

(٤٨) ذراع الملم يساوي (١٨) بوصة ، وكان يسمى بخراسان ، فيما يذكر ناصر خسرو ((كرشايكان)) .

(٤٩) أصل الفارسية ((دوبا بزركتر از مسجد مهد عيسى)) . و ((دوبار)) تعني ((مرتين)) . غير أن الدكتور يحيى الخشاب يقول ((يعتقد شيفر أنه ينبغي ان يكون النص)) ده ((بمعنى عشرة بدلا من)) دو ((بمعنى اثنين)) . (الترجمة العربية ٦١ ، حاشية ١) .

(٥٠) كذا في النص الفارسي ، لكن الدكتور الخشاب يقول ((هنا أصلح غني زاده النص وفق النسخ المختلفة لما في نسخة شيفر من اضطراب)) الترجمة العربية ٦١ ، (حاشية ٣) ، بيد أنه لم يذكر هذا الاضطراب .

غير أن لي سترانج يقول ((وأما الطول الذي هو ٤٢٠ ذراعا ويساوي ٤٠٠ قدما فمن المستحيل أن يكون صحيحا ، لأن هذا القياس ان بدأ من الحائط الجنوبي العظيم لمنطقة الحرم تقع الابواب الشمالية مع حائط الاقصى الشمالي فوق قبة الصخـــــرة والمنصة فحتى نتجنب هذا الخطأ يجب أن نقرأ الرقم (١٢٠) ذراعا بدل (٤٢٠) ، وهذا الرقـــم (١٢٠) ذراعا أي (٢٤٠) قدماً يجعل الحائط الشمالي مع الأبواب التي رآها ناصر في المكان نفسه الذي تقع فيه الأبواب والحائط الشمالي للمسجد في الوقت الحاضر)) .

ترجمته العربية : فلسطين في العهد الاسلامي ١١٣ و ١١٥ أيضا .

(٥١) أحسن التقاسيم ١٦٩ ،وانظر : الخشاب،الترجمة العربية لرحلة نـــاصر خســرو ، ص ٦٢ (حاشية) .

(٥٢) البقرة ، آية ٥٨ .

(٥٤) عارف العارف : تاريخ الحرم القدسي ٤١ .

—*—

دور الجمعيات الإصلاحية والنوادي الثقافية في مجابهة السياسة التعليمية في عدن

خلال تبعيتها للهند (١٨٣٩-١٩٣٧)

الأستاذ سلطان ناجي

عضو مجلس الشعب الاعلى باليمن الديمقراطية

لقد كانت عدن اول منطقة في الجزيرة العربية تتعرض للغزو الاجنبي وتصبح مستعمرة بريطانية عام ١٨٣٩ . وكانت آخر مستعمرة في الوطن العربي تحصل على استقلالها عام ١٩٦٧ . وتحاول هذه الدراسة التاريخ لهذه الفترة الاولى من الاستعمار البريطاني للمنطقة ــ والتي لم يسبق لها أن درست من قبل بالعربية أو الانكليزية ــ أن تبين أسلوب المواجهة التي كان يقوم بها الوطنيون العرب من اليمنيين ازاء السياسة الاستعمارية التي حاول البريطانيون اتباعها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين ، في هذا الجزء الاستراتيجي الحساس من الوطن العربي . وهذا النموذج العربي اليمني للمقاومة هو في الواقع جزء من التصادم الحضاري العام الذي وقع في العصر الحديث بين الحضارتين الغربية والعربية الاسلامية ، عندما تعرضت المنطقة العربية للغزو الاجنبي . بمختلف اشكاله .

لم يبدأ الانجليز في فتح أول مدرسة في عدن الابعد مضي (١٧) عاما من استعمارهم لها . وحتى تلك المدرسة الاولى التي فتحوها عام ١٨٥٦ اغلقت أبوابها بعد سنتين فقط من وجودها . ولم يعد فتحها الا عام ١٨٦٦ ، بمعنى اخر فان الانجليز لم يفتحوا اول مدرسة ابتدائية الا بعد مضي ربع قرن من استعمارهم للمنطقة اليمنية . ومنذ البداية فقد كانت الاهداف من وراء فتح المدرسة سياسية وتبشيرية ومن أجل ((أن تثبت وتنتشر تأثيرها في طول وعرض اراضي الداخل ، ثم تجذب أبناء الرؤساء ليقيموا اتصالات مستمرة مع البريطانيين في عدن بالاضافة الى تخريج كتبة عرب للادارة البريطانية))(١) وفي أول كتاب رسمي أصدره مساعد

---

* اعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦ ــ ٢٢ جمادي الآخرة ١٤٠١ هـ ، ٢٠ ــ ١٦ نيسان ١٩٨١ م

المقيم السياسي البريطاني بشأن مستعمرة عدن عام ١٨٧٧ ، يشير الكاتب بأن من أهداف تأسيس المدرسة الاولى كان أيضا من اجل محاولة تخفيف كراهية اليمنيين وتعصبهم ضد البريطانيين . (٢)

وهذا هو وصف رسمي لحالة التعليم في عدن خلال عشر السنوات الاولى منذ بداية تأسيسه في عام ١٨٦٦ وحتى عام ١٨٧٥ : ((خلال العامين الاولين فان تقدم المدرسة لم يكن مرضيا بأن حال من الاحوال : فمعظم التلاميذ كانوا من ابناء جنود الوحدة الهندية في الجيش البريطاني المعسكرين في عدن . ولم يكن في سجل المدرسة سوى (٦) تلاميذ فقط من المدرسة ذاتها .. وخلال الاربع سنوات الاخيرة فان المؤسسة والتي تسمى (مدرسة الاقامة في عدن) أصبحت تضم تلاميذ من كل الطبقات والمذاهب . وقد بلغ مجموع التلاميذ عام ١٨٧٨ (٦٠) تلميذا وزعوا حسب جنسياتهم كالتالي فرس ٢٩ ، بانيان ٨ ، خوجة ٢ ، مهمن ٧، بهرى ٥، يهود ٣، عرب ٢٥ ، مسلمون هنود ١٥ ، مسيحيون محليون ٦ » (٣) . ومن هذه الارقام يلاحظ بالطبع قلة النسبة للتلاميذ اليمنيين في المدرسة (حوالي ٨٪) وايضا النشاط الواضح السياسة التبشيرية . فالمسيحيون المحليون لم يوجدوا في الواقع الابعد مجيء الاستعمار اي بعد تنصير يمنيين مسلمين سابقين . وعلى كل حال فان مدارس ومستشفيات الارساليات كانت من اوائل المؤسسات في عدن . كما ان عدنا كانت ركز الجمعية الماسونية في الجزيرة العربية حتى الاستقلال .

وبجانب هذه المدرسة الانجليزية فقد حافظ الاهالي على مدارسهم الوطنية الاسلامية الملحقة عادة بالمساجد . كما كان لليهود ايضا مدارسهم الخصوصية . وبالنسبة للوحدات والبطاريات العسكرية فقد كانت لها مدارسها الخاصة التابعة لها . واذا تابعنا تطور التعليم الحكومي خلال ربع القرن الاخير من القرن التاسع عشر فسنجد انه لم تضف سوى مدرستين عربيتين حكوميتين ابتدائيتين . كذلك فقد فتحت خلال هذه الفترة ايضا مدرستان تبشيريتان كاثوليكيتان . وقد بلغ عدد التلاميذ في الثلاث المدارس الابتدائية العربية في اواخر القرن ـ أي بعد استعمار نحو ستين عاما كاملا ـ (٢٥٦) تلمذا فقط . اما المدرسة الحكومية الانجليزية فلم يتعد عدد تلامذتها في اخر القرن (٨٨) تلميذا . اما بالنسبة للمنهج فقد أدخلت مادة مسك الدفاتر في المدرسة الحكومية الانجليزية بجانب الدروس المحتوية على التواريخ الابتدائية لانجلترا والهند وروما والكتاب الاول من اقليدس والجغرافية والحساب والجبر . كما ن حصص الدراسات القرآنية قلل منها في المدارس الحكومية العربية مقابل زيادة في المواضيع النفعية على مستوى ابتدائي .(٤)

وفي عام ١٨٩٧ بدىء بنظام مساعدة المدارس الخاصة . وقد بلغ مجموع

التلاميذ في المدارس الحكومية والتبشيرية والخاصة (١٧٦٨) تلميذا .ولم يزد عدد التلاميذ العرب في المدارس الانجليزية عن (١٦) تلميذا فقط ، كما ان عددهم في المدارس الاخرى كان يقل عن النصف . ويقول جافين ((ان التركيب العرقي للصفوف المدرسية قد عكس طبيعة التركيب السكاني لعدن ذاتها . اما النظام التربوي الذي كان سائدا فكان يقوم على أسس تقليدية .))(٥)

لقد كانت عدن هندية اكثر منها عربية في ذلك الوقت . وقد انعكس هذا الوضع على حالة اللغة العربية ومناهج الدراسة . ولم يستطع ان ينكر تلك الحالة المؤسفة البريطانيون أنفسهم . فعندما كتب مساعد المقيم البريطاني هارولد جاكوب كتابه (ملوك العرب) في مطلع هذا القرن ، وصف حالة التعليم والثقافة العربية في عدن كالتالي :

من الممارسات المؤسفة في عدن ان يستخدم الكثيرون اللغة الهندستانية . فعدن بسرعة تتهند كل يوم. فالاعلانات التي توضع أمام شبابيك مكاتب البريد هي بالهندستانية أو الجزراتية . وتبدو اللغة العربية وكأنها لغة اجنبية ، ومعظم المدرسين من الهنود، والمدينة كلها قد نومت تنويما مغناطيسيا واصبحت كلها تعيش تحت نكهة بومبي .ان التاريخ العربي لا يدرس في المدارس الحكومية . فهل نخاف منهم اذا ما درسوا سيرة أبطالهم الوطنيين كما فعلنا مثلا في الهند في وقت من الاوقات عندما حظرنا عبادة شيفاجي ؟ فاذا كانت المدارس الحكومية في الهند الان تعلم الشباب احترام وتقديس شيفاجي ، افليس من الضروري للمؤسسات الخاصة في عدن ان تكون مدارسها الوطنية على نمط المدارس في الهند)) (٦)

بعد ادخال نظام الحماية في الثمانينات من القرن الماضي الى الارياف المحيطة بعدن بدلا من نظام الحماية فكر الانجليز باحكام قبضتهم اكثر على المنطقة من خلال (الدائرة العربية) التي كانت مكلفة بتسييس الشؤون القبلية هناك وذلك عن طريق مشروعي اقامة سكة حديد من جهة وبحاجة امس انشاء كلية لابناء السلاطين والمشائخ من جهة ثانية . فقد طرحت فكرة انشاء الكلية في عام ١٩٠٥ ،ثم أحييت القضية من جديد عام ١٩٢١ ولكن مآلها كان الفشل . وكما يقول الضابط السياسي البريطاني وقتها فان ((الفائدة السياسية من اقامة مثل هذه المؤسسة لتبرر دفع اموال الامبراطورية لفتحها . ان سياستنا في انشاء الكلية ستكون لها عواقب معينة وبعيدة المدى وليست عامة داخل محمياتنا)) ثم يسترسل ويقول :((ان الشباب العربي ينشأ وهو يجهل كل شيء الا الحروب القبلية التي يتشبع بها منذ طفولته .ومن الافضل ان نضع عليهم ايدينا وهم لا يزالون صغارا لان الشباب العربي يمتلك امكانيات كبيرة نستطيع توجيهها))(٧)

منذ انتهاء فترة الحرب العالمية الاولى وحتى انضمام عدن الى وزارة المستعمرات في لندن عام ١٩٣٧ تعاقب على ادارة المعارف في عدن ثلاثة من النظار الهنود المسلمين

استجلبوا من الهند وذلك بحكم ان النظام التربوي كان جزءا من النظام التربوي الهندي حيث كانت مدة الدراسة الابتدائية تتراوح بين ٤ـ٥ سنوات ثم تتبعها المرحلة الثانوية ، التي كانت تستغرق مابين ٥ـ٦ سنوات وفي نهايتها يتقدم الطلبة الى امتحان شهادة الجونير كامبردج والتي لم تكن تؤهل للالتحاق بالدراسة الجامعية او العليا . فماذا كانت حالة التعليم في هذه الفترة ؟ وهذا هو تقييم احد قادة الحركة الاصلاحية في اليمن . ففي عام ١٩٢٣ نشر الاستاذ محمد علي لقمان كتيبا باللغة الانكليزية تحت اسم مستعار بعنوان : « از ذيس اسكراب اف بيبر » (هل هذه قصاصة ورق ؟) (٨) انتقد فيه المؤلف حالة التعليم في عدن ، وذكر ان ٥٠٪ من اطفال عدن الذكور لايجدون مدرسة يؤمونها ، وهم يتسكعون في الاسواق ، والامية منتشرة بينهم بينما جزيرة سيشل وسكانها ١١٠٠٠ مقابل ٥٦٠٠٠ نسمة سكان عدن ، وتجارتها لاتوازي ربع تجارة عدن تتمتع بكلية ومدير معارف عام الى غير ذلك من تأخر عدن المحزن حتى انها لم تخرج طالبا واحدا يحمل شهادة البكالوريا الثانوية في (٨٤) سنة. ثم اضاف قائلا بأن الفوضى قد ضربت بجرانها في المدارس والكتاتيب . وكانت هذه المدارس على درجة العموم ضيقة . مظلمة . فاقدة أصول التهوية الصحية ، قذرة . وكان المعلمون أغبياء لايحمل احد منهم شهادة كفاءة . رواتبهم حقيرة ، ومقامهم غير محسود . اما برامج التعليم فقد كانت تفتقر الى عدة عناصر هامة كالجبر والهندسة والصحة والجغرافية الطبيعية والعلوم . وكانت اللغة العربية أضعف مواضيع الدروس على الاطلاق . (٩)

اما مدير المعارف العام في بونا في الهند الذي زار عدن في عام ١٩٢٤ فقد كان من نصائحه ان يعفى اولاد الفقراء من دفع الرسوم وبأن تؤسس مدرسة عمومية للصنائع . ثم طالب في رفع مستوى التعليم وكذلك مستوى المعلمين وزيادة مرتباتهم لكي يتفرغوا لواجباتهم بدل الاعمال التجارية لتغطية المصاريف . ثم اضاف قائلا :« من العبث ان ننتظر وفاء واخلاصا من جماعة من الناس يخدموننا برواتب حقيرة» . ولان ارسال اول المبعوثين للدراسة الجامعية في الخارج قدتم في البداية اما بواسطة الاباء انفسهم أو الجمعيات الخيرية فقط ، فقد قال المسترلوري بان من واجب حكومة عدن ان تساعد اهاليها وتقدم لهم النصائح متى ارادوا ارسال اولادهم في بعثات الى الكليات والجامعات في الخارج خصوصا بعد اجتياز شهادة السينير كامبردج او بكالوريا لندن .(١٠)

وحتى اشهر هؤلاء النظار الهنود في هذه الفترة وهو الاستاذ عطا حسين فقد كان يعتقد ان غاية النظام التربوي في عدن « لم تكن تتفق والغرض الانساني العام . فقد كانت المدارس ترمي الى اعداد الطلبة للالتحاق بخدمة الحكومة . ولذا فان عددا

كبيرا من الشبان الذين لم تكن لديهم المؤهلات لهذه الخدمة وجدوا انفسهم مدفوعين الى البطالة بعد مغادرة المدرسة . وكانت الدروس لاتتعدى اللغة الانجليزيةوالحساب وقليلا من الجغرافية السياسية او تاريخ الهند السياسي او تاريخ الامبراطورية .ولم تكن المدارس تعنى بالثقافة العامة ، ولم تكن تعنى بتنمية الذكاء وشفوف الحس بين ابناء المدارس بتدريس الاداب والفنون الا قليلا . وكان الاهتمام بالغا حده في تشجيع الحفظ بصورة ميكانيكية والترديد المقيت لايكسب الطالب شخصية مستقلة . وكان من رأيه ان تمنح المعارف في عدن ابناءها تعليما تحرريا . »(١١)

وفي ايام هذا الناظر الجديد (١٩٢١— ١٩٣٠) أدخل نظام التعليم في المراحل الاولى من المدرسة الثانوية الوحيدة باللغة العربية . وعين اول مساعد عربي له من فلسطين هو الاستاذ طاهر حمزة . وقد قدم الاستاذ حمزة جهودا طيبة في سبيل ترقية الادب العربي واللغة العربية . « فسعى لنشر محاسنها ودعا المعلمين لتعليم النحو واللغة » . وكان هذا الفلسطيني اول من نصح بفتح اول مدرسة ابتدائية للبنات(١٢) . وفي ايام هذا الناظر الهندي ايضا عين الاستاذ كامل عبدالله صلاح ، أحد رجال الدين المشهورين من الحجاز مديرا للمدرسة الحكومية الابتدائية ، فأدخل التعليم الديني لاول مرة ، الا انه لم تكن تعطى علامات للمادة في نتائج الطلبة .

والحقيقة ان هذه الخطوات التي اتخذت في طريق الاهتمام باللغة العربية لم تأت الا نتيجة مطالبة مستمرة من قبل اليمنيين الذين كانوا يشعرون كالغرباء في مدارسهم . وقد سجل لنا احد الحكام البريطانيين في مطلع الثلاثينات من هذا القرن هذا الحديث المرير مع احد اعيان عدن حول الحالة التعليمية والثقافية انذاك . قال الشيخ اليمني للحاكم البريطاني مايلي :

« ماذا عملت لنا الهند ؟ لاشيء . متخلفون ، متخلفون جدا ، والذنب ذنب الهند تماما . ان التعليم ضروري ، ضروري لكل الشعوب ولنا بدرجة اكثر من الجميع لاننا لانملك شيئا منه . لقد رأيت المدارس بنفسك ، ورايت الهنود الذين يقومون بالتدريس اين العرب المدرسون ؟ آه ! اعرف انك ستجيب بأن علينا ان نصبر لانه ليس عندنا في عدن ، وانه في الامكان جلبهم من البلدان العربية الاخرى ، وانه الى ان يكون لنا مدرسون قديرون للغتنا فلن نحرز اي تقدم . ان احد اولادي الذي يدرس حاليا في ادنبرة ، قد فشل في الامتحان وان المادة التي فشل فيها كانت اللغة العربية . ان الامر مخز ومن اجل ذلك الخزي يجب ان نشكر الهند . نحن لسنا جزءا جغرافيا من تلك البلاد ولسنا شعبا واحدا ، ولانتكلم لغة واحدة . » (١٣)

ان المطالب اليمنية انذاك والتي كانت بسبب عدم وجود الاحزاب السياسية او الصحافة تعبر عن نفسها عن طريق النوادي وخاصة الاصلاحية فيها ، لم تقتصر على المطالبة بوجوب الاهتمام باللغة العربية واعداد المعلمين الوطنيين ، وانما شملت أيضا

المطالبة بالاستقلال عن الهند والتبعية مع لندن . فمنذ «العشرينات من هذا القرن ، وبسبب امكانية استقلال الهند بدأ الانجليز يعملون تدريجيا على محاولة سحب عدن النهائي من تحت الحكومة الهندية . وبدأت اصوات المسؤولين ترفع الان شعار ان عدن عربية وان مستقبلها مع أهل الجزيرة وليس مع الهند . وهذا الاتجاه الجديد أثار بالطبع مخاوف الهنود، مسؤولين وتجارا وموظفين. لان تحويل عدن من تحت الهند لن يكون في صالحهم » . (١٤) وكانوا يسخرون من فكرة اعداد معلمين وطنيين ويظنون « ان ابناء عدن تشربوا بالمبادىء السياسية المتطرفة » . (١٥)

وكانت الاصوات ترفع أيضا من قبل الاباء ورجال الاصلاح بأن « طلبة المدارس يعيشون في وسط يفسد عادة ماتصلحه المدرسة». كما طالبوا بالحاح «في أن ترقى الرياضة البدنية في المدرسة رقيا مطردا وتصبح اجسام الطلبة قوية صحيحة »وكانوا يستغربون عدم تدخل ادارة المعارف في القضايا التي تمس اخلاق الطلبة وتربيتهم كالسينما .« فالافلام السينمائية الهندية التي تعرض على الاطفال افلام تجارية تعرض الوان السحر والشعوذة والدجل . وتعرض صنوف النهب والسلب والاغراء » . (١٦)

اما ارسال أولى البعثات الدراسية الى الخارج فلم يكن للحكومة فيه نصيب وانما تم كل ذلك بواسطة النوادي الثقافية والجمعيات الاصلاحية والآباء . لقد كان نشوء الجمعيات والنوادي الثقافية في عدن مباشرة بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى متأثرا الى حد كبير بالحركة الاصلاحية التي كانت قائمة انذاك في بعض البلدان العربية كمصر وسورية ولبنان وفلسطين . ففي عام ١٩٢٥ زار عدن الاستاذ عبد العزيز الثعالبي واقترح تأسيس ناد ادبي عربي فيها . فتأسس (نادي الادب العربي) برئاسة الشاعر والمؤرخ والفنان المشهور الامير أحمد فضل القمندان . وكان مديره الاستاذ محمد علي لقمان . ولما انتشر وباء الجدري والطاعون في عدن مابين عامي ١٩٢٧ ــ ١٩٢٩ قام اعضاؤه بجمع التبرعات الكبيرة للمرضى . وفي الاخير اقتصرت أعمال النادي تقريبا على الحفلات التكريمية واستقبال الشخصيات العربية عند زيارتهم لعدن . والحقيقة انه يمكننا ان نرجع بوادر الوعي الثقافي في عدن الى قبل نشوء (نادي الادب العربي) ، وبالذات الى مستهل القرن العشرين . لقد كان الشعور الاسلامي قويا بين أوساط سكان عدن في مطلع هذا القرن وذلك بحكم تداولهم آنذاك للصحف والمطبوعات العربية . فلم ينته الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨ الا وكان الناس يتداولون الصحف المصرية ، ثم يتجادلون في قضية السلطان عبد الحميد وجمعية الاتحاد والترقي . (١٧)

وفي عام ١٩٢٩ تأسس (نادي الاصلاح العربي) ، ثم تبعه في عام ١٩٣٠ (نادي الاصلاح العربي الاسلامي) وانضم اليه الجم الغفير من الوجهاء والشبان . وكان من

اهداف هذا النادي العمل لرفع مستوى الاخلاق ونشر العلم وتنشيط المعارف . كما ان اعضاء النادي « سعوا للاتصال برجال العرب في جميع اوطانهم وشادوابذكر ماكان للعرب من مقام في التاريخ واثاروا الرغبة الكامنة في النفوس باحياء أيام العرب ونشر محاسن الاسلام » .(١٨) وقد افتتح اعضاء نادي الاصلاح العربي مدرسة في الشيخ عثمان وكان يديرها العلامة الشيخ المعروف احمد العبادي الوهابي النزعة. وقد تخرج على يديه خاصة من حلقاته الخاصة اشهر علماء عدن . وقد الف الشيخ العبادي منظومة علق عليها الشيخ البيجاني اسمها (هداية المريد الى سبيل الحق والتوحيد) طبعت في مصر ونشرت في عدن وغيرها من الاقطار الاسلامية في سنة ١٩٣٩ . وقداحتوت المنظومة على حقائق علمية تحث على توحيد الخالق وتنهى عن البدع والخرافات وانواع الشعوذة . وقد اثارت افكار العبادي بعض العلماء التقليديين فحاولوا قتله عند باب مسجده .

وقد سبق ان تعرض للقتل في عمان بعد ان الف منظومته (السهام الدقيقة على كشف الحقيقة) خالف فيها الاباضية والخوارج . والحق فقد كان « دور العبادي في ايقاظ الفكر الديني وفي مجال التربية والتعليم وفي مضمار النشاط الاجتماعي ومناهضة الاستعمار دورا بارزا » .(١٩)

ومن الامور الطيبة التي قام بها (نادي الاصلاح العربي الاسلامي) هو ان رئيسه كتب عام ١٩٣٦ كتابا طويلا الى غازي الاول ملك العراق شرح فيه حاجة اهالي عدن الى مثقفين وطلب منه ان يقبل عشرة من ابناء عدن ليلتحقوا بمدارسها ، فقبل الملك غازي بذلك وسافرت اول بعثة دراسية الى العراق في ذلك العام مكونة من ثمانية اعضاء ، ثم لحقتها بعثتان فيما بعد الاولى الى العراق وعدد اعضائها خمسة والاخرى الى مصر وعددها ثمانية .(٢٠)

ثم قامت جمعيات ونواد اخرى . وكانت معظم هذه النوادي الثقافية تهدف في البداية الى «الالتفاف حول رئيس والتفاني في طاعته لخدمة هذا الوطن البائس ، وتأليف وحدة عربية اسلامية توعو الى الحث على مكارم الاخلاق ، ورفع مستوى البلاد ، والوعظ المستمر في المساجد والنوادي ، ومقاطعة السكارى وتشجيع التمثيل الحر ، وايجاد العمل للعاطلين ، والدعوة لتشجيع الزواج ، وتخفيف مهور البنات ، ونشر العلم ومطالبة الحكومة بتسهيل الوصول اليه وتعليم البنات ...)) كما ان بعض أعضائها كانوا يعطفون على القضية العربية ويرون فيها الشفاعة الكبرى . ويحدبون على الام العرب وامالهم ويجمعون بين فترة واخرى التبرعات لمنكوبي الزلزال في فلسطين والمنكوبين بالطليان في طرابلس ، ويكرمون رجال العرب الذين يزورون عدن. واهم ماأحدثته هذه النوادي هي اليقظة التي شعر بها الناس عموما في هذا البلد

والوعـي القومي الـذي تغلغل في نفـوس بعض المخلصيـن فاكسبهم روحـا وطنية امنت بحقها فقامت تسعى له . (٢١)

وعندما زار الكاتب المجري لاديسلاز فاراجو عدن عام ١٩٣٧ ترك لنا وصفا دقيقا للحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية في المستعمرة وذلك في كتابيه (العربـي الغريب) و(لغز بلاد العرب) يقول فاراجو : « اخذني على ـ دليل المؤلف ـ الى كثير من النوادي العربية ، وبدأت اعيش حياة المثقف العربي . ففي عدن يوجد اكثر من ١٢ ناديا من هذه النوادي ، الا ان اهمها هو (نادي الادب العربي) ..وكانت السياسة محظورة رسميا في هذه النوادي ، وقد اصر كثير من اصدقائي العرب بأن القصد منها كان للاغراض الاجتماعية فقط . ومع ذلك فان يقظة الفكر السياسي العربي في عدن قد تشكلت في هذه النوادي . فالمناقشات كانت دائما تدور حول مواضيع مثل التأثير المتنامي لايطاليا في شمال افريقيا والبحر الاحمر . ومعاناة العرب في فلسطين .. وكانت جدران هذه النوادي التي تدعي انها نواد غير سياسية مغطاة بشـعارات سياسية صارخة امثال «بلاد العرب للعرب» او «ياعمال بلاد العرب اتحدوا» أو بصور مثيرة منزوعة من صحف مصرية تبين اعمال ارهاب يمارسها جنود احدى الدول الاوروبية ضد عرب يعذبون .. وفي الشوارع الضيقة للسوق في عدن قابلت ممثليـن لكل البلدان العربية تقريبا . لقد قابلت لاجئين من سوريا وتونس وليبيا ومصر والسعودية وفلسطين .. ومن بين الهاربين من بلاد العرب وجدت لاجئا من العائلة المالكة الهاشمية هو السيد الدباغ . وبالباقي من ثروته الضخمة يقوم الان بالصرف على مدرسة عربية في عـدن وكتابة رسائل لاحصر لها الى السعودية لتنوير اصدقائه . وقد رافقت السيد الدباغ الى محاضرة عربية حيث قام احد اللاجئين التونسيين بتقريع الفرنسيين ، وبعدها في المساء ذهبت الى اجتماع حيث قام عربي من مقاديشو . لاشك أنه كان مأجورا ايطاليا ، يتكلم عن بركات الفاشية ودعا موسوليني بـ « سيف الاسلام » (٢٢)

كما اننا نجد المجلات العربية تنتقد السياسة التعليمية في عدن . فمثلا كتبت (مجلة الرابطة العربية) في عام ١٩٢٨ مانصه : « لايزال مدير المعارف في عدن يقتل الروح الاسلامية العربية في مدارس الحكومة بكل الوسائل ، وجل جهوده ومراميه ان يكون برنامج المدارس استعماريا صرفا ... واشتد النكير والتضييق على الـمدارس الاهلية سيما مدرسة الفلاح الاسلامية العربية المعروفة بنزعتها الوطنية الصادقة في تعليمها واناشيدها خاصة بعد حادثة الرحلة التي قامت بها بعثة الفلاح في أراضي لحج ويافع » (٢٢) ان اهم ما فعلته تلك النوادي والجمعيات كان يتعلق بمجال التعليم

وبالذات ارسال البعثات الى الاقطار العربية الاخرى على حساب حكومات تلك الاقطار فمثلا من الرسالة التي وجهها رئيس نادي الاصلاح العربي الاسلامي الاستاذ احمد الاصنج الى الزعيم السوداني عبد الرحمن المهدي عام ١٩٣٧ نلمس الشكوى العامة من ضعف مستوى التعليم والثقافة العربية في المستعمرة . تقول الرسالة :

«..وبعد فاني ارفع الى فضيلتكم ان عدن كما تعلمون الثغر الطبيعي لليمن كلها من اقصى العربية السعيدة غربا الى اخر حضرموت شرقا ، والاكثرية الساحقة من سكانها عرب مسلمون .

ابناء العرب في هذه الديار في ديجور حالك من الجهل ، والتعليم هنا على وجه العموم لايسمن ولايغني حيث يخرج الطالب من المدرسة الثانوية لايحسن العربية (وهي لغته) ولا يجيد الانجليزية (وهي اللغة الرسمية) . وكل ما هنالك علوم سطحية لاتفوم بالحاجة . ويكفي ان أقول انه لايوجد في عدن كلها طبيب او مهندس او محامي ولااستاذ في التربية والتعليم من ابناء العرب . ولهذا فقد استحوذ على مرافق البلاد وخيراتها الاجانب واصبح العربي فيها ليس الا غرا جهولا ، يقاسي الام الجوع والفاقة لهذا راينا ان لا سبيل الى انتشال ابناء المسلمين من هذه الهوة السحيقة الا بالعلم فالتجينا الى ملوك المسلمين وعظمائهم من اهل الفضل ، فكان ان قبلت حكومة جلالة ملك العراق المعظم عددا من الطلاب يتلقون لعلم في العراق على نفقتها كون الطلبة من الفقراء ، كما ارسلنا البعض الى الهند ايضا ، وهانحن اليوم في مخابرة مع حكومة جلالة ملك مصر المعظم بهذا الصدد .

ولما كنتم فضيلتكم من زعماء المسلمين المعدودين ، ومن الذين اشتهروا باعمال البر والاحسان ، ترانا نتقدم الى فضيلتكم بهذا الالتماس راجين من مكارم اخلاقكم بأن تفكروا فيما نقاسيه من الويلات ، وان تمدوا لنا المساعدة في انقاذ شباب المسلمين بأن تتقبلوا بقبول عشرة من ابنائنا ليتلقوا علومهم العربية والانجليزية في كلية غردون أو في اية مدرسة او جامعة تختارونها فضيلتكم في السودان او مصر .» (٢٣)

واذا اخذنا اعداد الطلبة الموجودين في مدارس عدن في منتصف الثلاثينات ، اي قبيل انضمام عدن الى وزارة المستعمرات ، وبعد مضي حوالي مئة عام من الاستعمار أو التبعية للهند ، سنجد انها كانت قليلة للغاية : فالمدارس الابتدائية الحكومية في المستعمرة لم ترد عن (٤) مدارس ، أما المدارس الابتدائية المعانة فكانت (٦) مدارس فقط . وكان مجموع طلبة هذين النوعين من المدارس اقل من (١٦٦٦) تلميذ . اما تلامذة الكتاتيب أو المدارس غير المعترف بها بما في ذلك بعض مدارس الاقليات فكانت حوالي الالفين (٢٤) ، كما ان طلبة الثلاث مدارس الانجلو ــ محلية (أي ذات الاقسام الثانوية) لم يزيدوا عن (٢٠٠) طالب . وكانت الدراسة في هذا النوع الاخير من المدارس فيما عدا الثلاث صفوف النهائية تعطى بواسطة لغة الطلبة التي يتكلمونها كالعربية والجزراتية . وعلى الرغم من ان السكان العرب كانوا هم الغالبية فانهم كانوا من حيث اعداد الطلبة اقل تمثيلا من بقية الجاليات كالهنود واليهود . اما ماكان

يصرف من ميزانية المستعمرة الضئيلة على التعليم فلم يتعد نسبة ٥٪(٢٥) .

وقبل ان تنتقل عدن الى التبعية المباشرة لوزارة المستعمرات في لندن في عام ١٩٣٧ ، نجد انالانجليز قد استطاعوا في الاخير تحقيق هدفهم الذي استمر يراودهم مُنذ احتلالهم لعدن ، وهو انشاء (كلية ابناء الرؤساء) أو (مدرسة جبل حديد) فيعدن. والحقيقة ان تبعية المحميات لوزارة المستعمرات كانت قد سبقت عدن بعشر سنوات وذلك عام ١٩٢٧ . ومنذ ذلك الحين بدىءفيتكثيف السياسة البريطانية وتدخلها المباشر في الارياف . فمن ناحية سياسية اصبح للمحميات جهاز سياسي قوي ، تطور فيما بعد الى داري الاعتماد والاستشارة في كل من المحميات الغربية والشرقية ، ومن ناحية عسكرية انشأ الانكليز قواتجديدة تمثلت (بجيش الليوي) و(الحرس القبلي) و(الحرس الحكومي)وذلك لخدمة تنفيذ سياستهم الجديدة ومن أجل تعزيز ودعم سلطة الامراء والسلاطين .

وكانت تلك القوى الثلاث تعمل وتتبع سلاح الطيران البريطاني وداري الاعتماد والاستشارة(٢٦) ثم اضيف الى هذين الجهازين السياسي والعسكري المكلفين باخضاع الارياف جهاز ثالث هو الجهاز التربوي السياسي الذي تمثل بـ (كلية ابناء الرؤساء) وقد تم افتتاح تلك الكلية في عدن في ابريل ١٩٣٥ .

وكما قال المستشار البريطاني المقيم المكلف برسم سياسة تلك الكلية والاشراف على فتحها فان ما كانوا يريدونه « رئيسا يجب ان لايكون متعلما تعليما عاليا » .ولم يكن المطلوب اعطاء خريجيها « ثقافة ادبية عالية وانما فقط ما فيه الكفاية من اللغة الانجليزية تمكنهم من الاتصال بضباط سلاح الطيران الملكي والزوار الاخرين الذين لا يعرفون العربية » أما المستوى المطلوب للعربية « فهو ان يكون بمقدور التلميذ كتابة رسالة مفهومة »(٢٧) اما بالنسبة لمدير ومدرسي المدرسة فقد جلبوهم خصيصا من السودان وجزيرة زنجبار في شرق افريقيا لانهم « يمتلكون الادراك لفهم الهدف من وراء المدرسة » . كما قال انجرامز .

ان اهمية انشاء كلية ابناء الرؤساء بالنسبة لسياسة اخضاع المحميات كان كبيرا . فمن المقدمة الجديدة التي نشرها انجرامز لكتابه بعد مضي حوالي(٢٥) عاما على طبعته الاولى ، تبين لنا بأن انجرامز قد هدد بالفعل السلطان الكثيري بمغادرة البلاد مالم يواصل اولاده دراستهم في كلية ابناء الرؤساء . كما ان تهديده للسلطان بمغادرة حضرموت قد جعل بعض انصار المستشار البريطاني من الحضارمرؤساء القبائل يعرضون عليه فكرة تنحية السلطان الكثيري وتنصيب انجرامز نفسه سلطانا على الدولة الكثيرية في منطقة حضرموت !(٢٨) وكما يقول مؤلف كتاب (لغز بلاد العرب) الذي زار الكلية عام ١٩٣٧ فان تلك المدرسة كانت تعد حوالي « اربعين سلطانا محتملا

لوظائفهم كحكام في المستقبل » . ثم يضيف الكاتب قائلا : « وكانت نظرية المستر الجرامز (المستشار البريطاني المقيم) هو انه سيكون اسهل بان تحكم البلاد اذا ما نشىء الحكام المحليون الى طور الرجولة تحت التأثير المباشر لبريطانيا » (٢٩).

ان حكومة المستعمرة لم يكن لها يد في ارسال البعثات الى الخارج خلال تبعية عدن للهند . وكذلك كان حالها في السنوات الولى من تبعيتها المباشرة لوزارة المستعمرات فالاربعة الجامعيون الذين عادوا الى عدن بنهاية هذه الفترة كان قد تم ارسالهم من قبل ابائهم او الجمعيات التبشيرية أو بجهودهم الخاصة . فقد تخرج احدهم كطبيب من بريطانيا بعد ان تم تنصيره (احمد سعيد عفارة) والثاني كمهندس (محمود مكاوي) والثالث بكالوريوس اداب من الجامعة الامريكية في بيروت (محمد عبده غانم) . اما الرابع (المستر حسين حمود) فقد تخرج في الطب الطبيعي او الشعبي من « جوامع الهند »(٣٠) وبالنسبة لمبعوثي الجمعيات الاصلاحية والنوادي الثقافية الى العراق . ومصر والهند فسنراهم يتخرجون بانتهاء الحرب العالمية الثانية ، اي بعد حوالي عشر سنوات من انتهاء هذه الفترة التي نتكلم عنها

والحقيقة ان التعليم بعد تبعية مستعمرة عدن للندن عام ١٩٣٧ لم يتقدم تقدما كبيرا كما كان متوقعا وذلك على ضوء اعلان بريطانيا بانها قد خصصت مالية خاصة برفاهية المستعمرات . وبالطبع فان جهود النوادي والجمعيات الاصلاحية والثقافية لم تتوقف عند ارسال البعثات فقط وانما شملت ايضا نقد السياسة التعليمية البريطانية الجديدة . ففي عام ١٩٤٠ وجه (نادي الاصلاح العربي الاسلامي) مذكرة الى حاكم المستعمرة موقعة من قبل ١٧ عضوا من أعيان عدن يمكننا ايجازها كمايلي:

(١) رفع مستوى التعليم في عدن لدرجة عالية تمكن بها الطلاب من ابنائها من الاندماج في الجامعات الكبرى للطب والهندسة وغيرهما .
(٢) ارسال الطلبة من عدن لطلب العلم في الخارج على نفقة الحكومة .
(٣) تعليم الكيمياء والعلوم للطلبة في عدن .
(٤) تعليم الطلبة الى مستوى يؤهلهم لطلب درجات عالية غير « المكرانة » (بمعنى الوظائف المكتبية) .
(٥) انشاء مدرسة للصنائع والفنون
(٦) انشاء كلية عدن .
(٧) تطوير مدرسة البنات بحيث يتعلمن التطريز والخياطة وترتيب المنزل والصحة .

ومن رد الحاكم البريطاني بمذكرته المطولة (رقم ٥٤٣٤ بتاريخ ١٥ اغسطس ١٩٤٠) نجد ان تبريرات الحكومة في عدم استطاعتها تحقيق المطالب المذكورة اعلاه هي في الواقع بمثابة اعتراف منهم بانهم لم يقوموا بشيء ذي بال في طريق تطوير التعليم بعد انفصال عدن عن الهند (٣١)) .

وبانتهاء هذه الفترة ساعدت عوامل خارجيـة وداخليـة على اجهاض هذه النوادي الثقافية والجمعيات الاصلاحية . فالحكومة الاستعمارية نفسها لم تكن ترضى عن نشاطها . لهذا فاننا نجدها اثناء الحرب العالمية الثانية تقوم بنفي بعض الاعضاء البارزين من منطقة الى اخرى في المستعمرة وتفرض عليهم الاقامة الاجبارية هناك متهمة اياهم بالتعاون ونشر الدعاية لصالح دول المحور . كما انها كانت تتمكن ، عبر بعض الرجال التقليديين من نشر الاشاعات بان « مقاصد واغراض تلك الجمعيات هي غايات سياسية لاخير لاحد في اعتناقها . . وقال اخرون ان تعليم البنت وتشجيع التمثيل امران مخالفان للدين والعقائد الاسلامية »(٣٢). وكما قال احدهم بحق « ان الرجعيـة في كل زمان اداة هدامة في صرح القومية وبناء الوطنية تنسب لكل حركة جديدة ترمي الى الاصلاح وتسعى للوعي القومي كل نقيصة » (٣٣) .

اما بالنسبة لحركة النشر والصحافة خلال هذه المئة سنة الاولى من الاستعمار البريطاني لعدن ، فقد كانت كل المطبوعات والجرائد باللغة الانجليزية او الجزراتية او العبرية ، وقد استوردت تلك المطابع الاجنبية الاحرف العربية لغرض مواجهة الطلبات المتنامية للطباعة عند التجار العرب او من اجل طبع بعض الاوراق والمعاملات المحلية . ومن الطريف ان نذكر ان دخول اول مطبعة انجليزية الى عدن كان في عام ١٨٥٣ ، ففي تلك السنة طلبت الادارة البريطانية في المستعمرة مطبعة صغيرة كجزء من « الاعمال الشاقة» في سجن عدن. وارسل بعض نزلاء السجن الى بومباي للتدريب على صف الحروف والطباعة . وبعد عودتهم طلب منهم تدريب بعض نزلاء السجن الاخرين . اما الجرائد فكانت كلها انجليزية (ايدن ويكلي جازيت، ايدن فوكس، استار ، ايكو . . الخ) . وكانت اهم المؤسسات الطباعية العربية هي مطبعة (فتاة الجزيرة) لصاحبها الاستاذ محمد علي لقمان المحامي التي افتتحت عام ١٩٤٠ . وكانت اول مطبعة تضيف النشر الى انشطتها الاخرى في عدن . فقد كانت تقوم بطبع (فتاة الجزيرة) اول صحيفة عربية في عدن ، بالاضافة الى عدد من النشرات اليومية والاسبوعيـة باللغتيـن العربيـة والانجليزية بجانب كتب وكتيبات عربية حول مختلف المواضيع . واول كتاب عربي طبعته « سلالة قحطان »(٣٤).

المصادر والهوامش

1 — R.J.Gavin. **Aden under British Rule 1839-1967.** London, Hurst, 1975, p. 192

2 — F.M.Hunter. **An account of the Biritish Settlement of Aden**, London, cass, 1877, p. 148

3 — **Ibid.** pp. 149-151

4 — Gavin. **op. cit.** p. 193.

5 — **Ibid.**

6 — H. Jacob. **Kings of Arabia**. London, 1939, ch. 14 « The eye of the yemen in 1923. »

7 — **Ibid.**

(٨) ظهر الكتيب تحت اسم مستعار للمؤلف هو NEDA وهو قلب لإسم عدن ، اما الناشر فتحت اسم Junius

(٩) محمد علي لقمان .. النهضة الحديثة في عدن (٤) فتاة الجزيرة ، العدد ٢٢٦ ، ١٨ يونيو ١٩٤٤ ، ص ١ – ٨ .

(١٠) المصدر ذاته ؛

(١١) محمد علي لقمان . النهضة الحديثة في عدن (٧) فتاة الجزيرة ، العدد ٢٣٤ ، ١٣ اغسطس ١٩٤٤ . ص ١– ٨.

(١٢) النهضة الحديثة في عدن (٩) فتاة الجزيرة ، العدد ٢٣٦ ، ٢٧ اغسطس ١٩٤٤ ، ص ١ – ١٢.

13 — Sir Tom Hickinbotham. **Aden.** London, Constable, 1958, pp. 20-21

(١٤) سلطان ناجي (ترجمة) عدن تحت الحكم البريطاني ١٨٣٩ – ١٩٦٧ . مجلة الخليج العربي ، مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ، العدد ٨ ص ٥٠– ٨٠ .

(١٥) النهضة الحديثة في عدن (٩) فتاة الجزيرة ، العدد ٢٣٦ ، ٢٧ اغسطس ١٩٤٤ ، ص ١ – ١٢.

(١٦) مراحل التعليم في عدن . فتاة الجزيرة ، العدد ٢٠٢ ، يناير ١٩٤٤ ، ص ٦ – ٧ .

(١٧) محمد علي لقمان . عدن بعد الاحتلال البريطاني. فتاة الجزيرة (٢) العدد ٢٢٣ ، ٢٧ مايو ١٩٤٤.

(١٨) ماذا عملت النوادي . فتاة الجزيرة (٢) العدد ٢٣٢ ، ٣٠ يولو ، ١٩٤٤ ، ص ١–١٢ .

(١٩) محمد سعيد جرادة . دور العبادي في مناهضة الاستعمار . مجلة الحكمة (لسان اتحاد الادباء والكتاب اليمنيين) العدد ١ ، ١٩٧٠ ، ص ٤٧ – ٥٢ .

(٢٠) ماذا عملت النوادي . (من الجدير بالذكر انهم كانوا هناك اثناء وجود بعثة صنعاء التي كان فيها الرئيس السلال) .

(٢١) المصدر ذاته

22 — Ladislas Farago. **The Riddle of Arabia.** Robert Hale, 1939, pp. 75-83

(٢٢) العدد ١١٧ بتاريخ ١٤سبتمبر ١٩٣٤ .

(٢٣) نسخة الرسالة المؤرخة ٢٨ رجب ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧) موجودة ضمن ملف (نادي الاصلاح العربي الاسلامي) وهو في حوزتي . والاستاذ احمد الاصنج هو مؤلف (نصيب عدن من الحركة الفكرية) اول كتاب فكري في عدن، مطبعة الشورى القاهرة ١٩٣٤ .

24 — Aden gov't, Annual Report 1931 - 32.

25 — Gavin, **op. cit. pp. 287-290.**

(٢٦) سلطان ناجي . التاريخ العسكري لليمن ١٨٣٩ — ١٩٦٧ . الكويت ، ١٩٧٦ ، ص ٧٠ ، ١٤٢، ١٥٠، ٥٦١، ١٠.

27 — H. Ingrams. **Arabia and the Isles.** London. J. Murray, 1942, pp. 95-99

28 — author's **«Introduction to third editon»**. J. Murray, 1966. pp. 31-32.

29 — Ladislas Farago. **The Riddle of Arabia.** Robert Hale, 1939, pp. 190-92

(٣٠) انظر قائمة — اول عدني في فنه — . فتاة الجزيرة ، العدد ٢٠٢ يناير ١٩٤٤ ، وايضا : راجي خير نحن لانريد ادباء) فتاة الجزيرة ، العدد ٢١٨ ، ٢٣ ابريل ١٩٤٤ .

(٣١) كلا المذكرتين موجودتان في ملف نادي الاصلاح العربي الاسلامي الذي هو الآن في حوزتي . وكلتاهما مكتوبتان بالانجليزية . ومذكرة نادي الاصلاح مؤرخة ١٦ ابريل ورد الوالي في ١٥ اغسطس ١٩٤٠ .

(٣٢) محمد علي لقمان . النهضة الحديثة في عدن (٦): ظهور النوادي . فتاة الجزيرة ، العدد ٢٣٠ ، ١٦ يوليو ١٩٤٤ .

(٣٣) محمد علي لقمان . ماذا عملت النوادي ، فتاة الجزيرة ، العدد ٢٣٢ ، ١ — ١٢ .

34 — Ali M. Lukman. « Education and press in South Arabic». in « **The Arabian Peninsula : Society and Politics** ». ed. D. Hopwood. George Allen, 1972, pp. 264-5.

الرِّدَّةُ وَمَوقِفُ أَبِي بَكْرٍ مِنهَا

الأستاذة نجدة خماش
كلية الاداب ـ جامعة دمشق

تستخدم المصادر العربية كلمة الردة للدلالة على انتقاضه القبائل العربية اثر وفاة الرسول الكريم ، ويعتبر العديد من المؤرخين هذه الردة ارتدادا أو رجوعا عن الاسلام ، ولكننا قبل ان نتهم هذه القبائل في اليمن وحضرموت ومهره وعمان واليمامة وبلاد اسد بالرجوع عن الاسلام ، يجب ان نستبين مدى تغلغل الاسلام بين هذه القبائل ، الاسلام بمعنى الايمان التام والكامل كدين ونظام للحياة والجماعة من جهة ، ومدى تقبل القبائل العربية لمفهوم الدولة الاسلامية التي ظهرت بظهور الاسلام وما يتضمنه مفهوم الدولة من انصياع للسلطة المركزية من جهة اخرى .

من المتفق عليه أن فتح مكة وما اعقبه من استسلام هوازن وثقيف اثبت للعرب ان المسلمين قوة سياسية وحربية الى جانب العقيدة التي تنزلت على النبي العربي ، ولذلك بدأت القبائل ترسل وفودها منذ نهاية العام الثامن وطوال العام التاسع كما ان مقدمات سورة التوبة من اولها الى نهاية الاية الثامنة والعشرين ، والتي نزلت في نهاية السنة التاسعة قبل موسم الحج تضمنت احكاما نهائية بالنسبة الى العرب المشركين الذين سيمهلون مدة اربعة اشهر فان لم ينضموا الى الصف المسلم فسيحاربون وسيكون الله ورسوله براء منهم « براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا في الارض اربعة اشهر واعلموا انكم غير معجزي الله وان الله مخزي الكافرين .. .. ، فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا الصلاة وأتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم »(١) .

كان لهذا الوعيد والانذار اثرهما في حث من بقي على الشرك من العرب على الانضمام للصف الاسلامي ،

واضحت القبائل التي تلكأت في اعلان اسلامها او ارسال وفود من قبلها لبيعة الرسول الكريم معرضة لغزوالمسلمين حتى تقر بالاسلام وتعترف برئاسة الرسول كما كان حال بني الحارث بن كعب ،اذ بعث الرسول خالد بن الوليد في شهر ربيع الاول او في جمادي الاولى من السنة العاشرة للهجرة الى نجران وامره ان يدعوهم للاسلام قبل ان يقاتلهم ، ثلاثا ، فان استجابوا قبل منهم اسلامهم والا وجب عليه قتالهم (٢) كما وجه الرسول علي بن ابي طالب في سرية الى اليمن في رمضان فاسلمت همدان ثم تتابع اهل اليمن على الاسلام (٣) .

واذا قمنا باحصاء الوفود التي قدمت على المدينة في السنة العاشرة للهجرة ، لوجدنا ان عددها اكثر بكثير من تلك التي قدمت في السنة التاسعة بمعنى ان معظم هذه الوفود قدمت عندما ادركت ان لافائدة من المقاومة وان من الافضل القبول بالامر الواقع ومبايعة الرسول على الطاعة والولاء . ولكننا في الوقت ذاته لا نستطيع الانكار ان بعض افراد هذه الوفود قد اسلموا عن ايمان فحسن اسلامهم ، بينما لم يدخل الا[illegible] قلوب الاخرين ، وشتان بين المسلم والمؤمن ، وقد اشار القرآن الى ذلك صراحة : ((قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم)) (٤) ، ومن ثم ما ان انتشر خبر مرض رسول الله (صلعم) اثر عودته من حجة الوداع (وهو غير مرض موته) حتى وثب الاسود العنسي باليمن ومسيلمة باليمامة ، ثم وثب طليحة في بلاد أسد . وانه مما يلفت الانتباه ان هؤلاء الثلاثة ادعوا النبوة كما ادعتها سجاح بنت الحارس بن سويد وذو التاج لقيط بن مالك الازدي في عمان فيما بعد ، وقد نتساءل عن السبب الذي دفعهم الى ادعاء النبوة ؟ لا شك انهم وجدوا ان في هذا الادعاء ما يكسبهم قوة ويمكنهم من السيطرة وتولي الحكم في المناطق التي ثاروا فيها ، وهو يشير كذلك الى ان هؤلاء الثلاثة وغيرهم لم يؤمنوا بمحمد (صلعم) على انه نبي مرسل ، وانما على اساس ان النبوة قد ساعدته على تحقيق سيادته وسلطانه وسلطان قريش على العرب فهذا مسيلمة ، حسب رواية البلاذري يقول لرسول الله حين اقبل مع الوفد ((ان شئت خلينا لك الامر وبايعناك على انه لنا بعدك)) ، فكان جواب رسول الله : ((لا ولا نعمة عين ولكن الله قاتلك)) وما ان انصرف وفد بني بني حنيفة حتى ادعى مسيلمة الكذاب النبوة وشهد له الدجال بن عنفوة بان رسول الله (صلعم) اشركه في الامر معه فاتبعه بنو حنيفة وغيرهم ممن باليمامة وكتب الى رسول الله : ((من مسيلمة رسول الله الى محمد

رسول الله، سلام الله عليك ، فاني قد اشركت في الامر معك وان لنا نصف الارض ولقريش نصف الارض ، ولكن قريشا قوم يعتدون » ، وكان ذلك آخر سنة عشر (٧) .

اما الاسود العنسي ذو الخمار عبهله (٨) فليس هناك من رواية عند الطبري وابن هشام تشير الى اسلامه ، اماالبلاذري فيذكر انرسول الله (صلعم) بعث جريرا بن عبد الله البجلي في السنة التي توفي فيها الاسود يدعوه الى الاسلام فلم يجبه ، ويعلق البلاذري ان بعض الرواة ينكر بعثة النبي (صلعم) جريرا الى اليمن (٩) .

واذا ما درسنا الروايات المتعلقة بردة الاسود العنسي التي قضي عليها قبل وفاة الرسول الركيم ، ثم الردة الثانية التي قادها قيس بن عبد يغوث نجد انها عبارة عن رفض لفكرة الانصياع للسلطة المركزية التي اوجدها الرسول من ناحية ورفض للمكانة التي احتلها الابناء عنداسلامهم في المجتمع اليمني من ناحية ثانية ، والابناء هم اولاد اهل فارس الذين وجههم كسرى الى اليمن مع سيف بن ذي يزن ، (١٠) فلما قتل سيف تولى الحاكم الساساني امر ادارة اليمن يساعده في ذلك افراد القوة الساسانية . وحدثت في هذه الفقرة اضطرابات في الدولة الساسانية جعلت مركز هذا الوالي ضعيفا ، فقوي نفوز القبائل والامراء المحليين ، وثاروا على الحكم الساساني وحصروا نفوزه في صنعاء وما يجاورها .

فلما أسلم باذام (باذان) الفارسي واسلمت اليمن جمع رسول الله (صلعم) لباذام عمل اليمن كلها وامره على جميع مخاليفها ، فلم يزل عاملا لرسول الله حتى مات ، ففرق الرسول عمل اليمن بين جماعة من اصحابه ، وفي روايتين للزهري ان النبي (صلعم) رجع الى المدينة بعد ما قضى حجة الاسلام ، وقد وجه امارة اليمن وفرقها بين رجال ، وافرد كل رجل بحيزه ، ووجه امارة حضرموت وفرقها بين ثلاثة وافرد كل واحد منهم بحيزه واستعمل عمرو بن حزم على نجران ، وخالد بن سعيد بن العاص على مابين نجران ورمع وزبيد ، وعامر بن شهر على همدان ، وعلى صنعاء شهر بن باذام ، وعلى عك والاشعريين الطاهر بن ابي هاله ، وعلى مارب ابا موسى الاشعري ، وعلى الجند يعلى بن امية وكان معاذ معلما يتنقل في عمالة كل عامل(١١) .

وهكذا نرى ان الرسول رغبة في احقاق المساواة الكاملة بين العربي المسلم والاعجمي المسلم ، ورغبة منه في ان يبين لاتباعه انه لا فرق بين

عربي واعجمي الا بالتقوى فانه كافأ باذام بان جعله عاملا له ليس على صنعاء فقط وانما على عمل اليمن كلها ، ولما مات عين ابنه شهر بن باذام عاملا على صنعاء ، فلما خرج الاسود العنسي ذو الخمار عبهلة بن كعب من كهف خبان ايدته مذحج وواعدته نجران واخرجوا عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص وهما عاملا الرسول وانزلوا الاسود منزلهما ، كما وثب قيس بن عبد يغوث على فروة بن مسيك عامل الرسول على مراد فاجلاه ونزل منزله ، (١٢) وورد كتاب من الاسود الى عامل الجند ومن معه : ((ايها المتوردون علينا امسكوا علينا ما اخذتم من ارضنا ، ووفروا ما جمعتم فنحن اولى به وانتم على ما انتم عليه)) . فهو يعتبر هؤلاء دخلاء ويطلب منهم التخلي عن هذه الارض التي هي ارضهم وانهم ، اي اهل اليمن ، اولى بما جمعوه من اموال ، ولكن الاسود لم يعمد الى قتلهم كما قتل باذام (١٣)، وفي رواية البلاذري ان الاسود كان متجبرا فاستذل الابناء واستخدمهم فاضر بهم وتزوج امراة شهر بن باذام (١٤) . ومما يثير الانتباه ان الرسول عندماارسل يحنس بكتابه طلب من الابناء وليس من عرب اليمن القيام على دينهم والنهوض في الحرب والعمل في الاسود اما غيلة واما مصادمة ، وقد تم قتل العنسي على يد فيروز ، وعن ابن عمر قال : ((اتى الخبر النبي (صلعم) من السماء الليلة التي قتل فيها العنسي ليبشرنا ، فقال : قتل العنسي البارحة قتله رجل مبارك من اهل بيت مباركين ، قيل من هو ؟ قال : فيروز ، فاز فيروز)) .

بعد مقتل العنسي عادت الامور الى مجاريها في اليمن ، ولكن ما ان وصل الخبر بوفاة الرسول (صلعم) حتى انتقضت الامور واضطربت الارض ثانية ، وفي رواية للسري عن شعيب عن سيف عن عبد الله بن فيروز انه بعد مقتل العنسي امن الامراء وتراجعوا واعتذر الناس وكانوا حديثي عهد بالجاهلية ، ولعل هذه العبارة الاخيرة تعبر اصدق تعبير عن الوضع فهم لا يزالون حديثي عهد بالجاهلية ، ولا بد من وقت حتى يستطيع افراد المجتمع كله ان يتفهموا الاسلام كدين وكنظام للحياة والجماعة (١٥) .

ونلاحظ هذا التحامل على الابناء في ردة اهل اليمن الثانية بقيادة قيس بن عبد يغوث من ناحية واعتماد ابي بكر على الابناء وعلى فيروز للقضاء عليها ، اذ عندما بلغ ابا بكر خبر ردة اليمن الثانية كتب الى وجوه اهل اليمن يامرهم بالتمسك بالذي هم عليه والقيام بأمر الله والناس : ((.... اما بعد فاعينوا الابناء على من ناواهم وحوطوهم واسمعوا من فيروز وجدوا معه ،

فاني قد وليته)) (١٦) وعندما سمع قيس بالامر ارسل الى ذي كلاع واصحابه : ((ان الابناء نزاع في بلادكم ونقلاء فيكم ، وان تتركوهم لن يزالوا عليكم ، وقد ارى من الراي ان اقتل رؤوسهم واخرجهم من بلادنا)) ولكن ذي الكلاع واصحابه وقفوا موقف الحياد فلم يمالئوا قيسا ولم ينصروا الابناء وقالوا : لسنا مما هاهنا في شيء ، انت صاحبهم وهم اصحابك)) وعمد قيس الى مكاتبة اتباع الاسود ، وامرهم بالمسير اليه ليكون امره وامرهم واحدا ، فلما اقتربت جموعهم من صنعاء تظاهر قيس بالجزع وطلب مشورة فيروز وداذويه ليبعد التهمة عن نفسه ولكي يطمئنا اليه ، ونجح قيس في قتل داذويه غيلة ، اما فيروز فقد استطاع ان ينجو بنفسه وان يتوجه مع جشيش نحو جبل خولان ، وهم اخوال فيروز .

واستولى قيس على صنعاء وجبى ما حولها واخذ يتريث حتى اتته خيول الاسود . اما فيروز فانه عندما اوى الى اخواله خولان فمنعوه ، انضم اليه الناس وكتب فيروز بالخبر الى ابي بكر ، وانضم الى قيس عوام قبائل من كتب ابو بكر الى رؤسائهم ، وبقي الرؤساء معتزلين . وعمد قيس الى الابناء ففرقهم ثلاث فرق ، اقر من اقام واقر عياله وفرق عيال الذين هربوا الى فيروز فرقتين ، فوجه احداهما الى عدن ليحملوا في البحر وحمل الاخرى في البر وقال لهم جميعا : ((الحقوا بارضكم) .

فلما سمع فيروز ما فعله قيس ، وان عوام اهل اليمن ساندوه ارسل الى بني عقيل بن ربيعة بن عامر بن صعصعة رسولا يطلب مساعدتهم في انقاذ الابناء ، كما ارسل الى عك يستمدهم ويستنصرهم كذلك ، فاستطاعوا ان ينتقذوا عيالات الابناء ثم اجتمعوا على قتال قيس ، وانتصر فيروز واضطر قيس الى الهرب ، وتذبذبت رافضتي العنسي وقيس معهما فيما بين صنعاء ونجران . ليس في الروايات المتعلقة بهذه الردة اشارة الى ارتداد عن الاسلام ، وانما نلاحظ رفضا للانصياع لاوامر السلطة المركزية المتمثلة بابي بكر الذي عين فيروز واليا على صنعاء وجعل للابناء مكانة متميزة في المجتمع اليمني .

ان هذا الرفض في الخضوع للسلطة المركزية نراه جليا واضحا كذلك في الروايات المتعلقة بطليحة ، والقبائل التي انضمت اليه ، ففي رواية ابي مخنف عن عبد السلام بن سويد ان خيل طيء كانت تلقى خيل بني اسد وفزارة قبل قدوم خالد فيدنو بعضهم من بعض ولا يقتتلون ، فتقول اسد وفزاره : « والله لا نبايع ابا الفصيل ابدا » فتقول لهم خيل طيء : ((اشهد ليقاتلكم حتى تكنوه ابا

الفحل الاكبر)) (١٧) . وهذا عيينه بن حصن حين ارتد وانضم الى طليحة يقول : ((ما اعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين اسد وانني لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديـــم ومتابع طليحة ، والله لان نتبع نبيــا من الحليفين احب الينا من ان نتبــع نبيا من قريش ، وقد مات محمد وبقي طليحة)) (١٨) .

وعندما اوثق خالد عيينه وبعث به الى ابي بكر ، اخذ غلمان المدينـــة ينخسونه بالجريد ويقولون : اي عدو الله ، اكفرت بعد ايمانك ؟ فيقول : والله ما كنت آمنت بالله قط ، فتجاوز عنه ابو بكر وحقن دمه (١٩) .

وتشير رواية ابن الاثير الى ان قبائل عربية كثيرة تبعت طليحـــة عصبية (٢٠) ولهذا كان اكثر اتباعه من اســد وغطفان وطيء وانضمت عبس وثعلبة بن سعد ومره ، وارسلوا الى المدينة يبذلون الصلاة ويمنعــون الزكاة . ولو تتبعنا اسباب ارتـــداد القبائل في المناطق الاخرى لوجــدنا الاسباب نفسها ، فقد دانت القبائل بالولاء للرسول شخصيا واعترفـــت بزعامته وسيادته واعتبرته سيـــد الجزيرة بلا منازع ولكنها وجـــدت صعوبة في الانصياع لشخص آخر غير الرسول فتجلى هذا الرفض امـــا بالانضمام الى مدعي النبوة او برفض دفع الزكاة ، لان القبائل رات في الزكاة عبئا ثقيلا عليها لاتدرك معناه ، فالزكاة كانت ايام الرسول تجمع من كافة الاطراف المسلمة وترسل الى المدينة حيث يقوم الرسول بتوزيعها علـــى المستحقين من المسلمين في كافة الديار فلما توفي الرسول نرى قرة بن هبيره من بني عامر يقول لعمرو بن العاص عندما نزل به منصرفه من عمان : « ياهذا ، ان العرب لا تطيب لكم نفسا بالاتاوة ، فان انتم اعفيتموها من اخذ اموالها فستسمع لكم وتطيع ، وان ابيتم فلا ارى ان تجتمع عليكم» (٢١). ولذا لجأت الدولة بعد القضاء علـــى الردة الى ترتيب آخر يتلخص في ان تجمع الزكاة من الاطراف وينفق منها على المستحقين في هذه الاطـــراف ويرسل الفائض بعد ذلك الى بيـــت المال في العاصمة ، وهذا ولا شـــك ارضى سكان الاطراف وهدا مـــن ثورتهم .

موقف ابي بكر .

وقف ابو بكر من مدعي النبـوة كما وقف من اولئك الذين امتنعوا عن دفع الزكاة موقفا واحدا صارمـــا اذ ان مفهوم الايمان والدولة ووحـــدة كلمة العرب في الجزيرة العربية ومحو العصبية والشعور القبلي واحـــلال الوحدة الدينية والقومية الاسلاميـــة محلها ، هذه الامور كلها كانت عنـــد ابي بكر كلا لا يتجزأ ، ومن ثم قـــرر محاربة اولئك الذين رفضوا ان يدينوا له بما كانوا يدينون به للرســـول

(صلعم) وبما ان الذين ثبتوا مع ابي بكر كانوا قلة بالقياس الى من ارتد فان الناس نصحوا الخليفة الا يحارب المتنعين عن دفع الزكاة ((لان العهد حديث والعرب كثير وهم شرذمة قليلة ولا طاقةلهم بالعرب» (٢٢) ، وقدسمعوا رسول الله (صلعم) يقول : ((امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فاذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله)) . رفض ابو بكر الاصغاء اليهم فلجأوا الى عمر علّه ينجح في اقناعه ، وخلا به نهاره اجمع ، فقال ابو بكر : ((والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله لقاتلتهم عليه ، ولو لم اجد احدا اقاتلهم به لقاتلتهم وحدي حتى يحكم الله بيني وبينهم وهو خير الحاكمين ، وقد سمعت رسول الله (صلعم) يقول : ((أمرت ان اقاتل الناس على ثلاث : شهادة أن لا اله الا الله ، واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، فوالله الذي لا اله الا هو لا اقصر دونهم)) وقد حمد له عمر رايه فيما بعد وقال له ((انا فداؤك لولا انت لهلكنا)) (٢٣) .

حارب ابو بكر المرتدة جميعا بالرسل والكتب ، كما كان رسول الله (صلعم) حاربهم به ، الى ان رجع اسامة بن زيد من الشام ، الا ما كان من اهل ذي حسًي وذي القصة ، اذ ان مجموعة من القبائل التي كانت قد اجتمعت على طليحة اقامت في ذي القصة ، وامدهم طليحة باخيه حبال فكان على اهل ذي القصة من بني اسد ومن انضم اليهم من ليث والديل ومدلج ، وكان على مرة بالابرق عوف بن فلان بن سنان ، وعلى ثعلبة دعبس الحارث بن فلان فبعثوا وفودا الى المدينة واعلنوا لابي بكر انهم مقيمون على الصلاة ممتنعون عن دفع الزكاة فرفض ابو بكر الاستجابة الى مطلبهم ولكن ايقن بانهم سوف يهاجمون المدينة لانهم راوا من المسلمين قلة ، وهذا ما حدث ، اذ عمد فريق الى مهاجمة المدينة ليلا ، وبقي فريق بذي حسًي .

واستطاع المسلمون ان يردوا المهاجمين وان يتتبعوهم الى ذي حسي ولكنهم اضطروا بعد ذلك الى التراجع عندما نفرت ابلهم ، فظن القوم بالمسلمين الوهن وبعثوا الى القبائل المقيمة بذي قصة ان يقدموا عليهم ، وادرك ابو بكر حرج موقف المسلمين اذاما تعرضوا لهجوم القبائل متكاتفة ، فبات يتهيأ ثم خرج ليلا فما طلع الفجر ((الا وهم والعدو في صعيد واحد فما سمعوا للمسلمين همسا ولا حسا حتى وضعوا فيهم السيوف ، فما ان بزغت حتى ولوهم الادبار)) وقتل حبال واتبعهم ابو بكر حتى نزل بذي القصة وترك بها النعمان بن مقرن مع عدد من الرجال ورجع الى المدينة ، فوثب بنو ذبيان وعبس على من فيهم من المسلمين فقتلوهم وفعلت قبائل اخرى فعل عبس وذبيان فحلف ابو بكر

((ليقتلن في المشركين كل قتلةوليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة))(٢٤) . وفي ذلك يقول زياد بن حنظلة التميمي :

اقمنا لهم عرض الشمال فكبكوا
ككبكبة الغزى اناخوا على الوفر
فما صبروا للحرب عند قيامها
صبيحة يسمو بالرجال ابو بكر
طرقنا بني عبس بادنى نباجها
وذبيان نهنهنا بقاصمة الظهر

كان لانتصار ابي بكر بالرغم من قلة من معه من المسلمين رد فعل على المسلمين والمرتدين سواء فقد ازداد المسلمون ثباتا على دينهم في كل قبيلة وازداد لها المشركون انعكاسا من امورهم في كل قبيلة ، وطرقت المدينة صدقات بعض الاشخاص من الذين ترددوا في بادىء الامر كصفوان بن صفوان والزبرقان بن بدر وكانا من عمال الرسول على تميم .

وعندما قدم اسامة بن زيد استخلفه ابو بكر على المدينة وخرج الى الربذة ليلقى بني عبس وذبيان وجماعة من بني عبد مناة بن كنانة فلقيهم بالابرق فقاتلهم وهزمهم ثم عاد الى المدينة ، فلما استجم جند اسامة قطع ابو بكر البعوث وعقد الالوية فعقد احد عشر لواء لاحد عشر قائدا ، وكتب ابو بكر رسالة من نسخة واحدة الى جميع المرتدين وبعث بهذه الكتب مع الرسل امام الجنود ، وقد بدأ الكتاب بحمد الله والثناء عليه وذكر بعثه محمداً بالحق من عنده بشيراً ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، وان الله هدى بالحق من اجاب اليه وان رسول الله (صلعم) ضرب باذنه من ادبر عنه حتى صار الى الاسلام طوعا او كرها ثم اشار الى وفاةالرسول بعد ان بلغ ما امره الله ان يبلغه للناس وان الله قد بين ذلك لاهل الاسلام فقال : ((انك ميت وانهم ميتون))(٢٥) وقال : ((وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد افان مت فهم الخالدون))(٢٦) وقال للمؤمنين : ((وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين (٢٧) وبعد ذلك قال : ((وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد ان اقر بالاسلام وعمل به اغترارا بالله عز وجل وجهالة لامره واجابة للشيطان ... واني بعثت اليكم فلانا في جيش من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان وامرته الا يقاتل احدا ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله ، فمن استجاب واقر وكف وعمل صالحا قبل منه واعانه عليه ومن ابى امرت أن يقاتله على ذلك ولا يبقى على احد منهم قدر عليه وان يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة وان يسبي الذراري والنساء ، ولايقبل من احد الا الاسلام ، فمن اتبعه فهو

خير له ومن تركه فلن يعجز الله ، وقد امرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الآذان ، فان اذن المسلمون فاذنوا كفوا عنهم وان لم يؤذنوا عاجلوهم ، وان اذنوا اسألوهم ما عليهم ، فان ابوا عاجلوهم ، وان اقروا قبل منهم ، وحملهم على ما ينبغي لهم)) . ان كل اجراء قرر ابو بكر اتخاذه يبين انه كان يريد تجنب القتال وحقن الدماء فترك المجال مفتوحا لمن يريد التوبة ، اما اولئك الذين يرفضون فمصيرهم التحريق والقتل وسبي الذراري والنساء .

بالرغم من ان ابا بكر عقد احد عشر لواء لاحد عشر قائدا،الا أن القائد الذي يعود له الفضل الاكبر في القضاء على اخطر حركتين بعد ردة الاسود العنسي هو خالد بن الوليد ، فقد قضى على حركة طليحة واتباعه (٢٨) ونجح في القضاء على مسيلمة الكذاب ومن اتبعه من بني حنيفة ، وكان مسيلمة قد هزم عكرمة بن ابي جهل وشرحبيل بن حسنه من بعده ، فوجه اليه ابو بكر خالد بن الوليد الذي ادرك ان هذه الفتنة لن يقضي عليها وتخمد جذوتها الا بقتل مسيلمة ففي رواية السري عن سفيب ، عن رجل من بني سحيم كان قد شهد القتال مع خالد قال بأنه «لما اشتد القتال وكان يومئذ سجالا انما تكون مرة على المسلمين ومرة على الكافرين ، قال خالد : ايها الناس امتازوا اي تفرقوا وانفصلوا لنعلم بلاء كل حي ولنعلم من اين نؤتى، فامتاز أهل القرى والبوادي ، وامتازت القبائل من اهل البادية واهل الحاضر ، فوقف بنو كل اب على رايتهم فقاتلوا جميعا فاستحر القتل في أهل القرى ، وثبت مسيلمة فعرف خالد أنها لا تركد الا بقتل مسيلمة »(٢٩) وقتل مسيلمة ، قتله وحشي قاتل حمزة في غزوة «احد» ورجل من الانصار ، كما قتل في المعركة التي دارت بين الفريقين في حديقة الموت التي التجأ اليها بنو حنيفة عشرة الاف مقاتل (٣٠) .

نجح أبو بكر خلال عام تقريبا في القضاء على حركة المرتدين فكان نجاحه تصفية وتثبيتا للاسلام ومدا له ، كان نجاحه تصفية لانها خلصت الدولة الاسلامية الناشئة من كل الشكوك التي أثارها موت الرسول والخوف من ان يتصدع البنيان بموت الباني ، كما كان تثبيتا للاسلام ومدا له الى الاطراف التي بدا وكأنها لم تكن قد لقنت الدين كما لقنته المراكز القريبة من مكة والمدينة ، فكان لابد من هذه الحركة قبل أن ينطلق العرب الى الشام والعراق ، ولكن ابا بكر بقي طيلة حياته وفي كل غزواته وجهاده لا يثق بالمرتدين ، ويحدثنا الشعبي ان ابا بكر « كان لا يستعين في حربه بأحد من أهل الردة حتى مات»(٣١)، كما كتب الى عماله : « لا تستعينوا

بمرتد في جهاد عدو »(٣٢) . وكتب الى خالد بن الوليد وعياض بن غنم «ولا يغزون معكم احد ارتد حتى ارى رأيي »(٣٣) . وبالرغم من أن وجوه المسلمين وقادتهم حاولوا أن يثنوه عن خطته وان يغيروا من رايه ، فقد ظل ابو بكر عند خطته التي انتهجها فلا يشهد الايام مرتد(٣٤) . فلما كانت خلافة عمر لم يشأ أن تظل هذه القوى معطلة ولم يشأ أن يحرم المجتمع الاسلامي ثمرة هذا العقاب وما تركه في نفوس المرتدين من اندفاع ورغبة في التكفير ، فأذن لهم عمر ان يشاركوا في الحرب ولكن كجنود في بادىء الامر ، ثم اذن لهم أن يلوا بعض المراتب في الجيش ولكنه لا يطمعهم في الرياسة كما يقول الشعبي(٣٥) وانما يحد سلطانهم دون المائة وبكتب الى سعد ان لا يولي رؤساء أهل الردة على مائة (٣٦) فيضطر سعد ليلة الهدير تقيدا بسياسة الدولة أن يبعث قيس بن المكشوح في سبعين رجلا فحسب ، وقد اظهر المرتدون اندفاعا مشرفا رغبة منهم في تعويض الخطيئة السابقة بالحسنات الكثيرة اللاحقة واقبلوا على الموت اقبالا لا يعرف الهيبة . ويحدثنا الطبري « أن عمر ندب اهل الردة فاقبلوا سراعا من كل اوب فرمى بهم الشام والعراق » ، ومع ذلك فقد ظلت هذه الطبقة عهد عمر حشوة الناس على حد تعبير الشعبي « وكان رؤساء أهل الردة في تلك الحروب حشوة الناس » ، فلم تستطع فعالهم أن تقدمهم فتضعهم في مقام الذين ثبتوا على الاسلام . فلما كانت خلافة عثمان نجده يسقط عن هذه الطبقة آخر آثار العقوبات التي وضعها ابو بكر وكسر حدتها عمر « فيأذن باستعمال المرتدين استصلاحا لهم » .

وهكذا نلاحظ أن المجتمع الاسلامي نتيجة لهذه الحادثة التي تلت وفاة الرسول كاد أن ينقسم الى طبقتين، طبقة الذين ثبتوا على الاسلام وطبقة الذين ارتدوا ، وانه كان لذلك آثاره الواضحة في استعمال هذه الطبقة المرتدة وفي الاستعانة بها وفي ادماجها في المجتمع ، .فاذا ذكرنا ان الارتداد شمل اكثر أطراف الجزيرة وأجزاء من وسطها وانه لم يسلم منه الا هذه المناطق التي شهدت نشأة الدعوة وازدهارها ، اذا ذكرنا ذلك ادركنا عمق الآثار التي خلفتها الردة في التمييز بين هاتين الطبقتين من طبقات المجتمع الاسلامي ، غير أن الاسلام لم يقتصر على الجزيرة وانما جاوزها ، وخرج المسلمون الى هذه الاقطار التي غلبوا عليها وشاركهم عقيدتهم بعض السكان في هذه الاقطار ، ولذلك لم يحتفظ المجتمع في الحياة الاسلامية بهذا التمييز بين طبقة الذين ارتدوا

والذين ثبتوا وانما اتخذ المجتمع بمن انضاف اليه اشكالا جديدة .

بالاضافة الى هذا الانقسام الذي كاد المجتمع الاسلامي أن ينقسم اليه، نلاحظ ان حروب الردة حققت ، مع ما رافقها من خطر على كيان الدعوة الناشئة ، نوعا من الاختلاط بين العرب أنفسهم ، فقد مضت جيوش الخلافة الى اليمن والبحرين والى عمان ونجد وانتهى الامر بها الى الظفر . ولكن هذه الجيوش لم تحقق ظفرا ماديا فحسب وانما حققت ما كان مقدرا لها في طريق الوحدة فاذا الجنود لا يعودون جميعا الى بلادهم او مجتمعاتهم او قبائلهم ، وانما يظلون في هذا المجتمع الجديد الذي أنشأوه يمتزجون به ويختلطون معه ويشاركونه الحياة ولا تحول القبلية بينهم وبين هذه المشاركة ، اذ لم تعد القبيلة هي الرباط الاوحد ما بين هؤلاء الناس، وانما أضحت أخوة العقيدة وصلة الدين هي الرباط الاقوى ، هذا ما نفهمه من حديث الطبري : ان العلاء بن الحضرمي قائد الجيوش التي خرجت تحارب المرتدين في البحرين « أقفل الناس بعد انتصاره فرجع الا من أحب المقام » .

يضاف الى ذلك أن حروب الردة أتاحت حركة تزاوج وتواصل عريضة بين جيوش الخلافة وبين مناطق الارتداد ، كما حمل كثير من السبي الى المدينة ، فلما استقامت الجزيرة كلها لنظام الخلافة وولي عمر ، قال: « انه ليقبح بالعرب أن يملك بعضهم بعضا وقد وسع الله وفتح الاعاجم واستشار في فداء سبايا العرب في الجاهلية والاسلام الا امراة ولدت لسيدها ، وجعل فداء كل انسان سبعة ابعرة ، الا حنيفة وكندة » .

ولا شك ان عملية الفداء التي اقترحها عمر وانفذها لم تكن تخلو من معنى اجتماعي عميق ، فقد مضت أيام الخليفة ابي بكر أو أكثرها في اقرار الاسلام في الجزيرة نفسها وفي الاندفاعات الاولى نحو العراق والشام ، فلما ولي عمر الخلافة أدرك بما وهب من بعد نظر أنه لابد من تجنيد كل قوى الجماعة الجديدة ومن استثارة كل طاقاتها ولا سبيل الى ذلك الا في تمتين وحدتها ، ولذلك حاول أن يصفي أحقادها في الجاهلية والاسلام فلجأ الى هذا الفداء الذي كان ادراكا بارعا لما يجب أن تكون عليه نفوس الذين ينطلقون في الفتوح من ود وصفاء ، وكانت كذلك تصفية لكل ما علق النفوس من آثار الهزيمة وعمل السبي .

(١) سورة التوبة ـ الآيات ١ ـ ٧ .
(٢) الطبري ج٣ ص ١٢٦ .
(٣) المصدر السابق ج٣ ص ١٣٢ .
(٤) سورة الحجرات الآية ١٤ .
(٥) الطبري ج٣ ص ١٨٥ ، تهذيب تاريخ دمشق الكبير ج٧ ص ٩٥ .
(٦) البلاذري ، فتوح ، ص ٩٧ .
(٧) المصدر السابق ص ٩٧ الطبري ج٣ ص ١٤٦ . السيرة لابن هشام ج٤ ص ١٨٣ .
(٨) الاسود العنسي هو الاسود بن كعب من عوف العنسي ، تكهن وادعى النبوة وسمى نفسه رحمان اليمن كما سمى مسيلمة نفسه رحمان اليمامة وقال بعضهم هو ذو الخمار لانه كان متخمرا معتما أبدا ، ويقول بعض أهل اليمن انه كان اسود الوجه فسمي الاسود للونه وان اسمه عبهلة (البلاذري) فتوح ص ١١٢ .
(٩) البلاذري ، فتوح ص ١١٢ .
(١٠) المصدر السابق ص ١١٤ .
(١١) الطبري ج٣ ص ٢٢٨ .
(١٢) الطبري ج٣ ص ١٨٥ .
(١٣) المصدر السابق ج٣ ص ١٨٥ .
(١٤) البلاذري ، فتوح ، ص ١١٤ .
(١٥) الطبري ج٣ ص ٢٩٣ .
(١٦) المصدر السابق ج٢ ص ٣٢٢ .
(١٧) الطبري ج٣ ص ٢٥٥ .
(١٨) المصدر السابق ج٣ ص ٢٥٧ ، كان بين اسدوغطفان وطيء حلف في الجاهلية ، فلما كان قبل مبعث النبي (صلعم) اجتمعت اسد وغطفان على طيء فازاحوها عن دارها وغوثها وجديلتها فكره ذلك عوف فقطع ما بينه وما بين غطفان وارسل عوف الى الحيين من طيء فاعاد حلفهم وقام بنصرتهم واشتد ذلك على غطفان .
(١٩) المصدر السابق ج٣ ص ٢٦٠ .
(٢٠) ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ ج٢ ص ٣٢٣ .
(٢١) الطبري ج٣ ص ٢٥٩ .
(٢٢) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ج١ ص ٣٣ .
(٢٣) المصدر السابق ج١ ص ٢٣ .
(٢٤) الطبري ج٣ ص ٢٤٦ .
(٢٥) المرجع السابق ج٣ ص ٢٥٠ سورة الزمر : ٣٠ .

(٢٦) المصدر السابق ج٢ ص ٢٥٠ . سورة الانبياء : ٣٤ .
(٢٧) المصدر السابق ج٢ ص ٢٥٠ . سورة آل عمران : ١٤٤ .
(٢٨) هرب طليحة بعد ان خذله الله حتى لحق باعمال دمشق ونـزل على آل جفنة ، ثم اسلم وقدم مكـة معتمرا ، ثم خرج الى الشام وجاهد وشهد اليرموك وشهد بعض حروب الفرس ـ تهذيب ابن عساكر ج٢ ص ٩٢ .
(٢٩) الطبري ج٣ ص ٢٩٢ .
(٣٠) المصدر السابق ج٣ ص ٢٩٤ .
(٣١) المصدر السابق ج٤ ص ٢٥ .
(٣٢) المصدر السابق ج٣ ص ٣٤١ .
(٣٣) المصدر السابق ج٣ ص ٣٤٧ .
(٣٤) الطبري ج٣ ص ٣٤٧ .
(٣٥) المصدر السابق ج٤ ص ٢٥ .
(٣٦) المصدر السابق ج٣ ص ٥٥٧ .

وثائق تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العهد العثماني

د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

جامعة قطر ـ الدوحة

ان الحديث عن ماهية الوثائق المتصلة بتاريخ الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر في العصر العثماني يستلزم بادىء ذي بدء ، وضع توصيف موجز لنوعيات هذه الوثائق المختلفة واماكن حفظها ، ثم كيفية الاستفادة منها ، واهمية كل نوع من أنواعها في دراسة تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني . ولذا فان هذه الدراسة ستشمل العناصر التالية :

(اولا) : أنواع هذه الوثائق وتوصيفها واماكن حفظها .

(ثانيا) : كيفية الاستفادة من هذه الوثائق في دراسة الحياة الاقتصادية والحياة الاجتماعية .

(ثالثا) : تقويم وخاتمة .

* * *

(اولا) : انواع هذه الوثائق وتوصيفها واماكن حفظها :

ان وثائق الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر في العصر العثماني تشمل :

١ ـ دفاتر الالتزام : ويحمل الدفتر الاول منها تاريخ ١٠٦٩ هـ ـ ١٦٥٨ م ، وهو تاريخ بدء تطبيق هذا النظام في مصر ، وهذه السجلات عبارة عن دفاتر مستطيلة الشكل ، طول كل منها ٤٥ سم ، وعرضه ٢٠ سم ، ويبلغ عددها (١٥٠٠) سجل ، وتحفظ حاليا بدار الوثائق التاريخية ، بعد نقلها من دار المحفوظات التي كانت تحفظها من قبل ، وهذه السجلات بعضها خاص بولايات **الوجه البحري** ، وبعضها خاص بولايات الوجه القبلي (١) ، وقد خصص لكل عام سجل خاص بولايات الوجه البحري ، وسجل اخر خاص بولايات الوجه القبلي ، وبيانات هذه السجلات تقتصر على تسجيل أسماء الولايات والنواحي التي تتبع كل ولاية ، واسماء الملتزمين بهذه

النواحي ، وحصة كل ملتزم بالقيراط (٢) ولا تسجل اية معلومات تفصيلية عن مساحة الناحية (القرية) ، بالفدان كما تهمل ذكر قيمة الضريبة الاميرية المقررة على الفدان الواحد وانما تكتفي بذكر جملة الاموال الاميرية ، وغير الاميرية المقررة على الناحية (القرية) واقساطها وميعاد سداد هذه الاقساط وقيمة كل قسط ، وفي نهاية الجزء الخاص بكل ولاية من السجل نجد تسجيلا للحساب الاجمالي المطلوب من الولاية ، وجملة المصروفات المخصصة للادارة المحلية من هذا الحساب ، وما هو مطلوب للروزنامة من الولاية، وفي نهاية السجل نجد تسجيلا كاملا لاجمالي الاموال المطلوبة من الولايات المسجلة به ونعتقد ان هذه السجلات تركت سجيل البيانات التفسيلية المشار اليها ، اعتمادا على انها مسجلة بدفاتر شهود القرى والمراقبين ، واجهزة الادارة المحلية التي كانت قائمة آنذاك ، والتي كانت مسؤولة امام الروزنامة عن تسديد اجمالي الاموال المقررة التي سجلتها دفاتر الالتزام ، ولكن مما يؤسف له ان دفاتر الادارة المحلية في الريف غير موجودة بدور حفظ الوثائق .

٢ ـ **دفاتر الجمارك (الكمارك)** : يحمل السجل الاول من هذه السجلات تاريخ ١٠٨٢هـ / ١٦٧١ ، وتحتوي هذه السجلات على معلومات وفيرة عن جمارك بولاق ومصر القديمة ، والسويس ، والاسكندرية ، ودمياط ، ورشيد ، ووكالة البذور بالمحلة الكبرى ، ووكالة البذور ببولاق ، وسوق الارز برشيد ، والمعلومات المالية المسجلة بهذه السجلات ترسم صورة واضحة عن ايرادات الروزنامة من هذه الايرادات التي كانت تجبى من هذه الجمارك والوكالات والاسواق ، كما تعطي صورة واضحة عن المخصصات التي كانت تحددها الروزنامة من هذه الايرادات لرجال القلاع المسؤولين عن حراستها وبخاصة قلاع السويس والاسكندرية ودمياط ورشيد وهذه الحقيقة تتضح مما سجلته دفاتر المرتبات الخاصة برجال هذه القلاع وكذلك الاوامر الصادرة من باشوات مصر الى حكام تلك الثغور والتي كانت تنص على صرف مبالغ تحددها تلك الاوامر لرجال هذه القلاع على ان تخصم هذه المبالغ من واردات جمرك... (٣) فالمعلومات المالية التي تحتوي عليها هذه السجلات جد مفيدة في الوقوف على حالة مصر الاقتصادية وبخاصة في مجال التجارة وتحفظ هذه السجلات الان في دار الوثائق التاريخية بعد نقلها من دار المحفوظات العمومية .

٣ ـ **دفاتر الجراية والعليق** : وهي سجلات المرتبات العينية من قمح وشعير ، وعددها ٨٠٠ سجل تبدأ من ١٠٦٦ هـ/١٦٥٥ ، وتحفظ الان بدار الوثائق التاريخية بالقاهرة ، والمعلومات التي تحتويها هذه السجلات تفيد في الوقوف على قيمة ومقدار المرتبات التي كانت تدفع لكل من الباشا ، وقاضي العسكر ، والدفتردار والامراء

الصناجق ، وكبار رجال الفرق العسكرية وكتاب الخزينة والمحالين على المعاش ،
موظفي الادارة ، وكذلك مرتبات كبار العلماء والاشراف وغيرهم من رجال الدين
فهذه السجلات مصدر هام لدراسة اوجه الصرف من الخزينة العامة (الروزنامة)

٤ ـ **دفاتر الرزق الاحباسية** : وهي دفاتر خاصة بالاراضي الموقوفة على او
البر ، وتحفظ حاليا بدار الوثائق التاريخية بالقاهرة ، بعد نقلها من دار المحفوظ
العمومية . وهذه السجلات تحتوي على معلومات هامة عن هذا النوع من الاراض
حيث نجد فيها تسجيلا كاملا وتتبعا لتاريخ كل رزقة واصحاب حق الانتفاع به
والملتزمين بها وقيمة دخل كل منها ، وصور الحجج الشرعية التي صدرت بخصوص
الافراجات والفرمانات التي صدرت لتنظيم حق الانتفاع بهذه الرزق ، وأوجه صر
ريعها في حالة انقراض ذرية اصحاب حق الانتفاع بها فهذه الدفاتر ذات اهمية كب
في دراسة النواحي الاجتماعية والاقتصادية ، بل والحياة الدينية في العصر العثماني

٥ ـ **دفاتر خدمة الديوان عربي** : تحفظ حاليا بدار الوثائق التاريخية بالقاه
وهذه الدفاتر بها تفصيل كامل لمرتبات موظفي رجال الادارة المركزية والمحلية
وغيرهم من الموظفين . وفي نهاية كل دفتر من هذه الدفاتر توجد الحجج والفرمان
الخاصة ببعض التغيرات الادارية في الريف . ومرتبات حكام الولايات وغيرهم
والبت فيها بالرفض او القبول . وهي ذات فائدة لدراسة الحياة الاقتصادية .

٦ ـ **دفاتر الجسور** : يوجد الدفتر الوحيد الذي عثرنا عليه بدار الوثائق بعد ن
من دار المحفوظات وهذا السجل خاص بالجسور السلطانية والبلدية التي كا
قائمة بالوجه البحري آنذاك ، وبه معلومات عن الاعباء المالية التي كان على الق
تحملها في عملية جرف هذه الجسور ، وكيفية تحويل الجسور البلدية الى جس
سلطانية نظير مبالغ يتحملها الملتزمون والفلاحون ، ويوجد بنهاية الدفترالبيورلدي
والفرمانات والحجج الشرعية الخاصة بكل جسر .

٧ ـ **دفاتر الترابيع** : دفاتر وضعها علماء الحملة الفرنسية سنة ١٢١٥
/ ١٨٠٠ م . بعد اخذ هؤلاء العلماء معلومات هذه الدفاتر من دفاتر المعلمين الاقب
(الصرافين) و (المباشرين) . ولذا فان معلومات هذه الدفاتر . جاءت وافية تم
وهي تسد بصورة كاملة النقص الذي يوجد بدفاترالالتزام ففيها تسجيل كامل لمسا
كل ناحية (قرية) بالفدان وانواع ارض كل ناحية حسب جودتها . والمال المي
المقرر على كل فدان حسب نوع جودة الارض . وهذا ما اهملته دفاتر الالتزام .
تسجل هذه الدفاتر انواع الضرائب الاخرى : وبها تسجيل كامل لأنواع العادات

التي فرضها رجال الادارة على الفلاحين وقيمة كل عادة نقدا ، والتي كانت تشكل ما عرف باسم المال البراني ، ولم نعثر من هذه الدفاتر الا على المجموعة الخاصة بالوجه البحري ، والتي تحمل ارقام ١٦٠٥ ، ١٦٠٨ ، ٤٩ ، وجميعها مكتوبة باللغة العربية وقد كنت اول من عثر عليها واستفاد منها منذ ان وضعها رجال الحملة الفرنسية عام ١٢١٥ هـ/١٨٠٠ م . وهذه الدفاتر تكمل الصورة العامة للاعباء المالية التي كان يتحملها الفلاحون .

٨ ـ أرشيف المحكمة الشرعية : يوجد حاليا بمقر الشهر العقاري ، شارع رمسيس بالقاهرة ، ويعد هذا الارشيف من أثمن المصادر لكتابة تاريخ مصر في العهد العثماني ، ويحتوي هذا الارشيف على سجلات المحاكم الشرعية التي انشئت في ذلك العصر وهي : محكمة الباب العالي وعدد سجلاتها (٥٥٩) سجلا ، محكمة بولاق وعدد سجلاتها (٨٣) سجلا، محكمة مصر القديمة وعدد سجلاتها (٣١) سجلا، محكمة قناطر السباع وعدد سجلاتها (١٥) سجلا ، محكمة طولون وعدد سجلاتها (١٢٠) سجلا محكمة قوصون وعدد سجلاتها (٤٧) سجلا . محكمة الصالح وعدد سجلاتها (٦٥) سجلا ،ومحكمة الزاهد وعدد سجلاتها (٤٩) سجلا . ومحكمة الحاكم وعدد سجلاتها (٤٦) سجلا . ومحكمة الصالحية النجمية وعدد سجلاتها (١٠١) سجلا ، ومحكمة باب الشعرية وعدد سجلاتها (١١٥) سجلا ، ومحكمة القسمة العسكرية وعدد سجلاتها (٤١٨) سجلا ، ومحكمة القسمة العربية وعدد سجلاتها (١٥٧) سجلا . ومحكمة البرمشية وعدد سجلاتها (١٥) سجلا ، ومحكمة باب سعادة والخرق وعدد سجلاتها (٧٥) سجلا ، ومحكمة الضبعي وعدد سجلاتها (٧) سجلات .

هذا بالاضافة الى ان هذا الارشيف يحتوي على سجلات الديوان العالي التي تبدأ من عام ١١٥٣هـ / ١٧٤٠م ، وتستمر حتى ما بعد عصر محمد علي ، وكذلك سجلات اسقاط القرى والتي كانت تسجل فيها جميع العمليات الخاصة باسقاط القرى ، سواء بالبيع او الرهن ، والنزاعات بين الملتزمين بعضهم بعضا ، وبينهم وبين الفلاحين . وغير ذلك من المشاكل التي تنشب حول حصص الالتزام . وهي صادرة من محكمةالباب العالي . وكذلك فان هذا الارشيف يحتوي على (١٥٣) محفظة دشت بها حجج من مختلف المحاكم . وجميع سجلات هذا الارشيف مكتوبة بالعربية ويعيبها رداءة الخط . وهي مستطيلة الشكل ٥٠ × ٤٠ سم ولكنها ضخمة الحجم حتى ان حجم بعضها يفوق الالف صفحة عدا . ووثائق هذا الارشيف ذات اهمية كبيرة لدراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مصر في العصر العثماني .

٩ ـ مضابط محاكم الاقاليم : وتوجد هذه المضابط بدار المحفوظات العمومية بالقاهرة بالمخزن رقم (٤٦) وهي تحتوي على أحكام محاكم النواحي ، والموجود منها مضابط المحاكم التالية : محكمة المنصور،يبدأ السجل الاول منها بتاريخ ٩ ربيع آخر سنة ١١١٩ هـ/١٠ يوليه ١٧٠٧ م ، ومحكمة دمياط ، ويحمل السجل الاول منها تاريخ ١٣ صفر سنة ١٠٢١ هـ/١٥ ابريل ١٦١٢ م وسجلات هذه المحكمة غير منتظمة في تواريخها وكذلك توجد مضابط محاكم كل من رشيد ، ودمياط ، والمنصورة ، ولكنها خاصة بالفترة الاخيرة من القرن الثامن عشر .

١٠ ـ سجلات الديوان العالي : توجد بارشيف المحكمة الشرعية وهي غير كاملة ويبدأ السجل الاول منها سنة ١١٥٣ هـ/١٧٤٠ م وتستمر بعد ذلك ، حتى عصر محمد علي وما بعده وهي سجلات في غاية الاهمية حيث نعثر فيها تسجيل لكثير من حالات النزاع بين الملتزمين بعضهم بعضا حول حصص الالتزامات وكذلك النزاع بينهم وبين الفلاحين ، والمصالحات التي تتم بشأن لك ، كما نجد بها كثيرا من الفرمانات والاوامر الادارية الخاصة بادارة مصر اداريا وماليا فهي مصدر هام لدراسة النواحي الاقتصادية والاجتماعية في مصر في العهد العثماني .

(ثانيا) كيفية الافادة من هذه الوثائق في :

(١) دراسة الحياة الاقتصادية : يستطيع الباحث عن طريق دراسة مجموعات الوثائق السابقة ان يخرج بصورة واضحة عن الحياة الاقتصادية في القرية والمدينة على السواء ، فعن طريق دفاتر الالتزام الخاصة بالاراضي الزراعية يمكن استخراج صورة كاملة عن الاموال الاميرية ، وغير الاميرية المقررة على القرية وحجمها واقساط سدادها وموعد سداد كل قسط ، ومدى وفاء الملتزم أو الملتزمين بسداد هذه الاقساط واختلاف الاموال المقررة على كل قرية عن الاخرى ، حسب مساحتها وجودة اراضيها الزراعية ، وهل بها أراض موقوفة ، أم لا .

وسنسوق المثالين التاليين احدهما من الوجه البحري والاخر من الوجه القبلي كنماذج للمعلومات المالية التي تحويها **هذه الدفاتر :**

(١) قرية حطارة : تابع

بلغت جملة الاموال المقررة عليها (١٤٨٣١) بارة ، سددت على ثلاثة اقساط على النحو التالي :

قسط اول ٤٩٤٦ بارة بتاريخ ١١٣٠ هـ

قسط ثان ٤٩٤٦ بارة بتاريخ ١٣ صفر ١١٣١ هـ

قسط ثالث ٤٩٤٦ بارة بتاريخ ٢٤ ربيع اول ١١٣١ هـ

الجملة = ١٤٨٣٨ بارة، وواضح ان التسليمات بها زيادة مبلغ ٧ بارات لان الكسر كان دائما يجبر لصالح الروزنامة .

٢) قرية طحطا (طهطا) تابع جرجا .

بلغت جملة الاموال المقررة عليها كثمن للغلال المقررة عليها والمضاف ومال حماية ومال مستجد مقدار (٢٤٨٧١٦) بارة سددت على قسطين على النحو التالي :

قسط اول ١٩٢٥٢٦ في ١٤ شوال ١١٢١ هـ/١٧ ديسمبر ١٧٠٩ م .

قسط ثان ٥٦١٩٠ في ٥ محرم ١١٢٢هـ / ٦ مارس ١٧١٠ (٤) .

واضح هنا ان التسليمات تمت على قسطين وليس على ثلاثة اقساط ، كما ان هذه القرية يوجد بها ارض وقف حيث فرض عليها مال حماية ، كما فرض عليها مال مستجد .

وربما قيل ان هذه الصورة خاصة بالقرية او الناحية ككل . وليس بها ما يفيد في الوقوف على احوال الافراد الاقتصادية ، وهنا نجد المجموعة الثانية من مجموعات دفاتر الاطيان الزراعية تجيب على هذا التساؤل . ونقصد بها ـ دفاتر الترابيع ـ التي قام رجال الحملة الفرنسية بوضعها بناء على المعلومات التي كانت مدونة بدفاتر المعلمين الاقباط (الصرافين) . والتي تحوي معلومات تفصيلية عن الضرائب الاميرية وغير الاميرية . ومساحة كل قرية بالفدان وانواع الاراضي جيدة ام غير جيدة وضريبة كل فدان ، كما سجلت الاعباء المالية غير الرسمية التي كان يتحملها الفلاح المصري في ذلك العصر . والتي كانت تسجل في السجلات الرسمية تحت اسم « براني » . وقد اصبحت قيمة هذه الاعباء غير الرسمية كما هو واضح من هذه السجلات تفوق بكثير قيمة الاموال الاميرية . كما يتضح من المثال التالي :

قرية اتريب :

نوع الارض	المساحة ف	ط	ضريبة الفدان	جملة الضرائب
١ ـ طين فلاحة عال	١٧٣	١٦	١٠٠	١٧٣٦٧
٢ ـ طين فلاحة اوسط	٣٤	٢٠	٩٥	٣٣٠٩
٣ ـ طين فلاحة دون	٦٩٨	٢	٨٤	٥٨٦٣٩

٤ ـ طين الاوسية	١٠ ١٩٧	٨٤	١٦٥٨٣
٥ ـ رزق	ـ ٣٢	ـ	ـ
٦ ـ بـور	١٣ ٣٠	ـ	ـ
٧ ـ مناجـزة	١١ ١٢٧	ـ	٧٩٣٦
الجملـة	٧٢ ١٢٩١		١٠٣٨٣٤
	ـ + ٣		

١٢٩٤ فدانا

ثم سجلت الاعباء المالية غير الرسمية المعروفة بالبَراني كالآتي :

٥٠٠ زيادة طين التوجيب
١٦٠٦ مال طين اولاد طعيمة من البور
١٦٥٣ مال طين عامر طعيمة من البور
٤٩٢٤ زيادة المال الميري
١٠٠١ زيادة الحـوض الغربي
١٤٨٨ فايض رزقة الجامع بعد المصاريف
٠٨٤ خراج طين احمد هلا

١١٥٠٩٢ الجملة
١٨٦٢٤ مصاريف الناحية

٩٦٤٦٨ الباقي

اثمان العادات المقـررة

١٧٥٤ ثمن اغنام ضيافة
٢٠٠ عادة الخازندار
٦٠٠ حوالـة المـال
٦٨٠ عادة القائمقام
٥٠٠ هدية القائمقام
٦٠٠ تقدمة القائمقام
١٠٠٠٠ ثمن سمن مسلى معتاد القائمقام
٨٥٠٠ مـال السباخ

٢٤٩ ثمن الفروج
٥٧٤ مـال الجزيرة
١٨٦٥ تقدمت المجدوم (الملتزم)

١٤٦١٨ جملة صافي الاموال المطلوب من القرية سدادها بعد مصاريف الناحية ، كانت هذه الاموال توزع على النحو التالي :

١٧٩٥ بارة الميرى (المال الخاص بالروزنامة)
٧٨٥١ بارة فايض (الخاص بالملتزم)
٤٩٧٢ بارة البرانى (ثمن العادات التي فرضها رجال الادارة على فلاحي القرية)

١٨ ١٤٦ الجملة (٥)

وواضح من هذا التسجيل الرسمي ان قيمة كل من الفائض الخاص بالملتزم والبراني الخاص برجال الادارة ، وهي الاموال غير الاميرية أصبحت تفوق بكثير قيمة الاموال الاميرية المقررة وعند مقارنة الأموال الاميرية المقررة على الفدان كما تسجله دفاتر الترابيع ، وقيمة الايجار الذي كان يؤجر به للفلاحين ، كما تسجلـه سجلات المحكمة الشرعية ، فاننا نجد ان الفرق بين القيمتين كبير ، فاذا كان متوسط ضريبة الفدان كما يرد في دفاتر الترابيع للارض الجيدة هو (١٥٠) بارة كما في قرية ججر تابع الشرقية ، وللارض الضعيفة هو (٥٠) بارة ، كما في قرية القراموص تابع الشرقية كذلك ، (٦) فاننا نجد في نفس الوقت ايجار الفدان كما يرد في سجلات المحكمة الشرعية يتراوح بين (٣٦٩) بارة ، (٦٠٠) بارة (٧) وبمقارنة ما يرد في هذه السجلات فان الباحث يخرج بصورة واضحة عن حياة الفلاح الاقتصادية ، والاعباء المالية الضخمة التي كان يعاني منها ، وتزداد الصورة وضوحا عن الحياة الاقتصادية في الريف ، بل والمدينة على السواء بالرجوع الى سجلات اسقاط القرى ، الصادرة عن محكمة الباب العالي ، وسجلات محاكم الاقاليم(٨) ففي هذه السجلات يعثر الباحث على صورة كاملة للعلاقات الاقتصادية التي كانت قائمة بين الفلاحين والملتزمين ، وبين الملتزمين بعضهم ببعض ، وكذلك العلاقات التي كانت قائمة بين الفلاحين انفسهم من عمليات استئجار الاراضي ورهنها واسقاطها ، وطريقة الزرع والمزارعة او المشاركة وغير ذلك من وجوه العلاقات الانتاجية ، وعمليات التنازل عن الالتزامات ، أو اسقاطها أو رهنها والمبالغ المدفوعة او المشترطة في كل حالة تفصيلا ، ونـوع العملة وقيمتها وقت التعاقد(٩) .

وفي سجلات المحكمة الشرعية يعثر الباحث على ادق التفاصيل عن حياة الفلاح الاقتصادية ، وكيف ان الفلاح اضطر في كثير من الاحيان نتيجة للظروف الاقتصادية

السيئة التي احاطت به الى بيع محصوله ، قبل نضجه بسعر منخفض . مما ادى الى تدهور حالته الاقتصادية وترتب على ذلك قيام كثير من المنازعات بين الفلاحين والتجائهم الى القضاء للفصل في هذه المنازعات (١٠) .

كذلك فان المجموعات السابقة من الوثائق . تمكن الباحث من الوقوف على انواع الحاصلات التي كانت تزرع في جهات مصر المختلفة من قمح وشعير وفول وعدس وارز وكتان وغير ذلك من الحاصلات وبخاصة في السجلات الخاصة بالوجه القبلي حيث كانت الضرائب تسدد عينا من الغلال فتذكر السجلات مقدارها ونوعها والموازين والمكاييل التي استعملت في تقديرها (١١) .

اما سجلات الرزق . فتعطي صورة دقيقة لهذا النوع من الارض الموقوفة ، وكيفية انتقالها من منتفع الى اخر ، والاوامر والفرمانات التي صدرت بشانها واهميتها الاقتصادية والمنتفعين بها والضرائب المفروضة عليها واوجه صرف ريعها ، والصراعات التي كانت تثور حولها(١٢) .

هكذا يستطيع دارس التاريخ الاقتصادي ان يتتبع حياة الفلاح المصري الاقتصادية في العصر العثماني مع واقع هذه السجلات بدقة ، وبصورة متكاملة .

ثانيا :

اما عن دور هذه الوثائق في تسجيل الحياة الاقتصادية في المدينة . في العصر العثماني فان هذا الدور لا يقل دقة عما سجلته عن حياة الريف . فان الباحث في هذه الوثائق يجد صورة واضحة كذلك لحياة المدينة الاقتصادية . وما كان يحدث فيها من مضاربات . وما كانت تموج به من انواع المعاملات الاقتصادية . فسجلات الجمارك ترصد صورة دقيقة عن مورد كل جمرك ، حيث كانت هذه الجمارك من اهم موارد الدولة ، وسجلات المحاكم الشرعية تسجل حركة العمليات التجارية الصغيرة والكبيرة على السواء ، وكيف كانت تعقد الصفقات التجارية بين التجار بعضهم بعضا وبينهم وبين الامراء المماليك والافراد على السواء ، كما تسجل الصفقات التجارية التي كانت تتم في مزادات بيع التزامات الاراضي الزراعية ، والدور الذي بدأ تجار القاهرة يلعبونه في هذا المجال (١٣) ومن هذه السجلات نقف على اسعار السلع الاستهلاكية من سمن ولحم وخبز وقماش وبن ، وغير ذلك من السلع ، بل اكثر من هذا فان سجلات المحاكم توضح لنا حقيقة هامة في تاريخ المجتمع المصري وهي ان الطوائف المهنية . كانت هي التي تتحكم في تحديد الاسعار ومواصفات انتاج هذه السلع طبقا لارتفاع او

انخفاض سعر المادة الخام التي تنتج منها هذه السلع ، وكانت كل طائفة تذهب الى دار المحكمة الشرعية ، وتسجل التغيير الذي تريد احداثه في الاسعار ، بين فترة واخرى . هكذا كانت تفعل طوائف الخبازين . والقصابين . (الجزارين) واللبانين . وغير ذلك من الطوائف (١٤) وبذلك يستطيع الباحث الذي يريد ان يتقصى حياة المجتمع المصري الاقتصادية في العصر العثماني ان يجد تفصيلات دقيقة عن هذه الحياة خاصة فيما يتعلق بعمليات القروض والرهونات والبيوعات وطرق الاستثمار واسعار السلع الاستهلاكية، وتطور هذه الاسعار ، كمايجد معلومات وفيرةعن النشاط التجاري والتيارات التجارية ، وطرق التجارة الداخلية وعمليات التبادل التجاري بين الريف والمدينة ، وطوائف التجار ، واسواق القاهرة الرئيسية ، واسواق المدن

كذلك فان هذه الوثائق وبخاصة وثائق المحكمة الشرعية تحوي معلومات وفيرة عن تجارة مصر الخارجية مع البلاد الافريقية وبلاد المشرق العربي ، والبلاد الاوربية ، وبخاصة فيما يتعلق بتجارة الرقيق الاسود والابيض على السواء ، وتجارة البن والاخشاب والبخور ، والاقطار التي تتم معها هذه العمليات التجارية (١٦) .

ثالثا : اما عن الوثائق كمصدر لاقتصاد الدولة الرسمي ككل ، فانها تعد من اثمن المصادر ، حيث يستطيع الباحث من خلالها تحديد موارد الدولة انذاك ،واوجه الصرف ، والفائض ، كما يجد تسجيلا للموازنة العامة للدولة ، وقد كانت موارد الدولة في ذلك الوقت تنحصر في الموارد التالية .

(١) : خراج الاراضي الزراعية .

(٢) : ايرادات الجمارك : (اسكندرية ، بولاق ، مصر القديمة ، البهار بالسويس ، دمياط ، مجموعة المقاطعات) . (١٣)

(٣) : اموال متفرقة ، وهي الاموال التي كانت تحصل من الحلوان ، وضرائب الاسواق والمناصب وقد كانت ايرادات الخزينة العامة تختلف من سنة الى اخرى طوال فترة الحكم العثماني لعوامل كثيرة منها عدم وفاء النيل بالفيضان في بعض السنوات وترك كثير من الاراضي الزراعية بورا ، وعجز الملتزمين عن سداد الاموال الاميرية المقررة على هذه الاراضي ، ومنها كذلك في بعض الاحيان في تسديد هذه الاموال ، وكذلك فان ثورات الجند والصراعات بين البيوت المملوكية وبخاصة في القرن الثامن عشر ادت الى عدم الوفاء بالالتزامات المالية الاميرية في كثير من الاحيان ، هذا بالاضافة الى انتشار مرض الطاعون في بعض الفترات ، كل هذه العوامل لعبت دورها بدرجات

متفاوتة في اختلاف الموازنة العامة من سنة الى اخرى ، واخر تسجيل رسمي بصورة كاملة لايرادات مصر ومصروفاتها ،والمبالغ التي ترسلها الى الاستانة كجزية سنوية هو التسجيل الخاص بعام ١٢١٦ هـ ، الذي وضعه شريف افندي الروزنامجي وسننقل نصه هنا لتكون لدينا صورة واضحة عن موازنة مصر العامة في نهاية القرن الثامن عشر من واقع الوثائق :

الايرادات المتحصلة واقلامها :

الايرادات هي الاموال المتحصلة وهي نوعان :

١ ـ الاول منها كان يتحصل من اموال الاطيان الخراجية ، واطيان الحماية والرزق ، موقوفة او غير موقوفة ، ومن الاطيان المخصصة للكشاف (المنوطين بضبط وربط الاقاليم المصرية) وهي المعبر عنها بالكشوفية .

٢ ـ منها يتحصل من المقاطعات التي كانت تعطى التزاما حسب المستخرج من دفاتر ١٢١٦ هـ ، ومنه ما هو مبين بالبارة وصار تحويله بعرفة القلم (قلم الروزنامة) للقرش على حسب فيات ذاك الوقت كالاتي ايضاحه :

جملة الايرادات :

جملة المتحصل من النوع الاول والثاني :

مفردات النوع الاول :

١٠	٩١٢٢٤	قلم ايرادات الغلال الاميرية (عشور) اطيان الرزق .
٢٧	٩٥١٥٧٢	قلم اموال الاطيان الخراجية بولايات الشرقية والقليوبية والبحيرة والمنصورة واطفيح .
٢١	٨٠٦٥٧٤	قلم اموال الاطيان الخراجية بولايتي الغربية والمنوفية .
٣٩	٥١٨٢٠٦	قلم اموال الاطيان الخراجية بولايتي منفلوط والجيزة .
١٤	٢٤٧٨٧٧	قلم ايراد اطيان الفيوم والبهنساوية والاشمونين والمنفلوطية .
٠٢	٣٦٨٢١٧	قلم ايراد اطيان الكشوفية .
٠٠	٠٢٨٠٢٥	قلم اطيان الاوقاف التي تحت ادارة نظارها .
٠٠	٥٠٣١٥٢	قلم ايراد اطيان الاواسي والالتزام الموقوفة وغيرها بما فيها الرسوم الاميريـة .
٠١	٠٥١٤٧٧	قلم ايراد الاطيان المعبر عنها بالحماية المرخص للتزميها بالايقاف والاستبدال والهبة وغيره وهي الاطيان التي تحت سلطة اربابها وهي قليـلة .
٣٤	٣٥٦٦٣٢٦	الجملة المتحصلة من النوع الاول .

مفردات النوع الثاني :

١٠	٠٥٨٦٩	قلم ايراد مقاطعة صيارف الاسواق .
٠٨	٠٤٦٦٦	قلم ايراد مقاطعة معامل الزجاج والسلخانة بالمحلة الكبرى .
١٢	٠٣٣٣٣	قلم ايراد مقاطعة الاحتساب ، وظيفة المحتسب بالمحلة الكبرى .
٠٠	٠٨٧٥٠	قلم ايراد مقاطعة صياغة الفضة بالمحلة الكبرى .
١٤	١٤٥٨٣	قلم ايراد مقاطعة وكالة النيلة بالمحلة الكبرى .
٠٠	٢٤٥٠٠	قلم ايراد مقاطعة السلخانة ورسوم الاغنام الواردة للذبح بمصر .
١٤	٢٣٣٣٣	قلم ايراد مقاطعة عوايد ارباب الحرف بمصر .
١٤	٠٤٩٥٨	قلم ايراد مقاطعة بصمة خانة الشيت .
٠٨	٠٢٩١٦	قلم ايراد مقاطعة الاحتساب وغيره بولاية الاشمونين .
١٤	٠٢٣٣٣	قلم ايراد مقاطعة البصمة خانة البلدي .
٠٠	٠٠٢٢٥	قلم ايراد مقاطعة عوايد القلافطة ببولاق .
١٤	١٣٣٣٣	قلم ايراد مقاطعة وكالة الصابون والبذرة بمصر .
٠٠	٣٥٠٠	قلم ايراد مقاطعة سوق الارز بدمياط .
١٤	٢٣٣٣	قلم ايراد مقاطعة عوايد شياخة الدلالة .
١٤	٩٣٣٣٣	قلم ايراد مقاطعة حلقات الاقطان ببولاق ودمياط والمحلة والمنصورة وسمنود .
٠٠	٠٤٣٧٥	صاغات البنادر .
٠٠	٠١١٢٥	قلم ايراد مقاطعة قرية المعتمدية .
١٤	١٨٠٨٣	قلم ايراد مقاطعة وكالة السكر .
١٤	٤٣٩٨٣	قلم ايراد مقاطعة رسوم معرفي المراكب ببولاق والبنادر ـ قلم ذات ايراد من عهد قديم كما ورد بدفاتر ١١٢٨ هـ
٠٠	١٩٢٥٠	قلم ايراد مقاطعة وكالة الجلود .
١٤	٠٠٣٣٤	قلم ايراد مقاطعة حملة الفحم .
٠٠	٣٢٥٠	قلم ايراد مقاطعة مدق الاقطان .
٠٤	١١٠٣٢٣	قلم مقاطعة كمرك السويس وتوابعه ، قلم ذات ايراد من عهد قديم كما بدفاتر سنة ١٢٢٨ هـ .
١٦	٣٣٦٢٤٤	قلم ايراد عوايد مقاطعة اسكندرية قلم ذات ايراد من عهد قديم كما بدفاتر ١١٢٨ هـ .
٠٠	٤٧٢٥٠٠	قلم ايراد مقاطعة دمياط قلم ذات ايراد من عهد قديم كما بدفاتر ١١٢٨ هـ .
٠٠	٢٢٧٥٠	قلم ايراد مقاطعة سوق الارزاق بمصر ، قلم قديم ذات ايراد من

		عهد قديم كما بدفاتر سنة ١١٢٨ هـ .
٠٠	٨٤٣٧٥	قلم ايراد مقاطعة اسماك وطيور المطرية ونخيل غيط النصارى .
		قلم ذات ايراد من قديم كما بدفاتر ١١٢٨ هـ .
٠٠	٠٠٦٨٢٥	قلم مقاطعة وكالة القطن بمصر .
٠٨	٠٠٩٩١٦	قلم ايراد مقاطعة سوق الفلال بمصر .
٠٠	٤١٣٥	قلم ايراد مقاطعة سوق الارز برشيد .
٠٨	٠٠٤٦٦٦	قلم ايراد مقاطعة وكالة البزور بالمحلة الكبرى .
١٤	٠٠٧٥٨٣	قلم ايراد مقاطعة معمل النشادر بمصر .
٠٨	٠٣٠٩١٦	قلم ايراد مقاطعة معمل بوية العصفر .
٠٠	٠١٠٠٠٠	قلم ايراد مقاطعة التبن برشيد .
١٤	٠٧٥٨٣٣	قلم ايراد مقاطعة كمرك مصر القديمة .
٠٧	٠٢١٩١٦	قلم ايراد مقاطعة الاسماك بمصر والبنادر .
٠٨	١٨٦٦٦٦	قلم ايراد مقاطعة الرسالة وموارد السفن ببولاق ومصر القديمة .
٠٨	٠٠٢٠٤٠	قلم ايراد مقاطعة طايفة المعمار بمصر .
٠٠	١٢٢٥٠٠	قلم مقاطعة وكالة البزور ببولاق .
١٤	٠١٠٨٣٣	قلم ايراد مقاطعة سوق الفلال بالرميلة المسماة الان بالمنشية .
٠٠	٠٨٠٠٠٠	قلم عويد مناصب الولاة وقواد الجيوش كانت تدفع منهم للميري من عهد قديم .
١٣	٠٦٥٣٤٧	قلم ايراد مقاطعة التزام كمرك رشيد .
٠٠	٠٣١٠٠٠	قلم ايراد مقاطعة عوايد مشايخ الافرنك والفرنسيس والاجانب بما فيهم الاعجام .
٠٠	٠٢٧٨١٢	قلم ايراد مقاطعة الرسالة بالبنادر من عهد قديم كما هو وارد بدفاتر حسابات ١١٢٨ هـ .
٠٠	٠٠٢٥٠٠	قلم ايراد رسوم المباخر الموجودة اثارها الان على شكل القباب .
٢١	٢/٠٠٠/١٢٩	جملة المتحصل من النوع الثاني .
٣٤	٣/٥٦٦/٣٢٨	جملة المتحصل من النوع الاول .
١٥	٥/٥٦٦/٤٥٦	

هذه جملة الايرادات بدفاتر حسابات سنة ١٢١٦ هـ /١٨٠١م ، المحررة بالخط القرمة باللغة التركية وعلى احد الدفاتر المختصة بتعريفة المقاطعات من تلك الدفاتر صورة مضمون فرمانات شاهانية وأوامر الوالي باعتماد النظام السابق الذكر وبضبط

وربط الايرادات وعدم اغتيال شيء منها، ومؤشر امام انواع تلك الاقلام بما يفيد اعطاءها التزاما بعد اشهارها بالمزاد .

المنصرف

هو المصروفات السنوية التي تقررت بذاك النظام المرسل للباب العالي كما علم من مضمون صور الفرمانات وعنوان الدفاتر المختصة بالمرتبات والمصروفات ، التي كان العمل فيها جاريا بمعرفة ديوان الروزنامجة ، وهذا بيانه :

انواع الصرف وجهاته :

١٥	٣٢٧٣٠٣	مرتب أهالي ومجاوري الحرمين الشريفين والاشراف ، من ريع اوقاف الملوك والامراء والاهالي المصريين .
٠٠	٨٥٠٢٧٢	مصاريف المحمل الشريف وعوايد العربان بطريق الحجاز .
٠٠	٢٩٢٥٠٦	مرتبات قضاة مصر والحرمين الشريفين سنويا من غلال ونقدية هذا المرتب قديم العهد .
٠٣	٩١٩٥٣١	مرتبات وظايف دعا كوى وعلما جامع الازهر ومجاوريه والفقراء وزاوية العميان نقدية من ريع الاوقاف .
٠٠	٢٧١٥٢٢	مرتبات بدل جراية اهالي الحرمين الشريفين الجامع الازهر والتكايا وزاوية العميان والاضرحة بمصر وكانت تصرف تلك المرتبات تارة غلال وجراية وتارة نقدية من ريع الاوقاف بخلاف المخصص صرفه من الايراد بمقتضى الفرمانات الشاهانية المعروف بمرتبات وظايف الدعاكوى .
٠٠	١٥١١٤٤١	ماهية الوالي والقواد وعلوفة العساكر وماهياتهم بحسب صنوف اسلحتهم الاتي بيانها وهي (مستحفظان) القوة المتحركة للمحافظة والدفاع ، (جاويشان) ، عساكر ضبط وربط البنادر ، (سكبان) ارباب الصنايع واللفجية ، (كوكليان) ، محافظو السواحل (عزبان) محافظو قلاع مصر والبنادر ، (كشوفية) لضبط وربط البنادر ، (طوبجيان) الطوبجية البرية والسواحل .
٢٤	٥٣٧٤٤٧	ثمن مهمات وذخائر عسكرية وخلافه .
١٧	٠٢٩٩٦٢	ماهيات مستخدمي الروزنامة خلاف ما كانوا يأخذونه الكتبة برسم قلمية من ارباب الالتزامات عند تحرير السندات الديوانية لهم بعد الانحلال ، وليس ذلك محصورا بدفاتر .

٣٩	١٠٠٤٨٧	مصاريف تطهير الترع والمشتروات والعمارات الاميرية .
..	٠٠٤٩٢٢	ثمن سكر نبات برسم شربات الحضرة الشاهانية ضمن الاشياء المقرر ارسالها سنويا للاستانة .
..	٠٣٤٩٠٦	ثمن كهرجلة وفتيل مصري واستوبي واسباولي برسم الطوبخانة العامرة بالاستانة القرسنوي .
٣٣	٦٨٦١٤٥	الباقي من الايراد بعد المنصرف وارسل الاستانة .

هـذه مصروفات الولايـة التي كانت تصرف بعرفة الروزنامجة على الاقـلام المذكورة ..

واكمالا للصورة الاقتصادية ، فانه يمكن عن طريق وثائق المحكمة الشرعية تتبع التغيرات التي كانت تطرأ على العملة المستعملة آنذاك بانواعها المختلفة وقيمة كل منها بالنسبة للعملة الرسميـة وهي نصف الفضة أو البارة فمثلا :

	١١٤٣هـ	١١٤٤هـ	١١٥٤هـ(١٨)	
(١ الفندقلي	١٤٠	١٣٤	١٤٦	بارة (نصف فضة)
(٢) الزنجرلي	١١٢	١٠٧	١٠٧	بارة (نصف فضة)
(٣) دينار ذهب محبوب	١١٠	١١٠	١١٠	بارة (نصف فضة)
(٤) الريـال	٧٥	٧٥	٧٥	بارة (نصف فضة)
(٥) الكيسة	٢٥/٠٠٠	٢٥/٠٠٠	٢٥/٠٠٠	بارة (نصف فضة)

وكانت الادارة في كثير من الاحيان تتدخل بناء على خطوط سلطانية لوضع حد لغش العملة وتذبذب قيمتها ، فيصدر الباشا فرمانا يحدد فيه قيمة العملة وابطال تداول ما يراه مضرا بالمصلحة العامة منها ويرسل الى الادارات المحلية بالاقاليـم باتباع ما حدده ، واحيانا كانت الادارة المحلية بالاقاليم تتدخل لوضع حد لهذا الاضطراب في المعاملة بناء على اجتماع يعقد بالاقليم من القاضي ورؤساء الفرق العسكرية بالاقليم والكشـاف وغيرهم من أهل الراي لاتخاذ قرار في هذا الامر الى حين وصول امـر من الادارة المركزية بالقاهرة ، وسجلات المحكمة الشرعية المختلفة مليئة بمثل هـذه الاوامر ولنذكر مثالا من مضابط محكمة المنصورة الشرعية النص التالي :

يوم الجمعة الازهر خامس عشر محرم ١١٢٨هـ .

استقر الحال على أن المعاملة ماشية بين المسلمين الفلوس الجدد الديوانيـة والفضة القديمة الديوانية الواسعة ، والريال بخمسة وسبعين نصف فضة ، والجدد

الزغل ، والفضة المقاصيص بطالة الى ان يحضر امر صاحب الدولة والسعادة بمصر ، حسب رضا اعيان الولاية بذلك (١٩) .

(٢)الحياة الاجتماعية : ان الدارس لتاريخ هذه الفترة الاجتماعي يستطيع بسهولة الحصول على صورة بارزة المعالم للحياة الاجتماعية من مجموعات الوثائق السابق ذكرها فيقف على العلاقات التي كانت سائدة بين فئات المجتمع المختلفة وتطور هذه العلاقات من مرحلة الى اخرى في ضوء الحياة الاقتصادية السالفة الذكر ، تتبع هذه العلاقات في ظل نظام المقاطعات الذي كانت تدار به الارض ومصالح الحكومة الاخرى ، وتتبع دور طوائف المهن المختلفة ، وكيف انها اصبحت واسطة العقد بين المهنة والادارة ، والدور الذي اصبحت هذه الطوائف في الحياة الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة بين افراد الطائفة الواحدة كوحدة متماسكة من وحدات المجتمع ، وعن طريق وثائق المحكمة الشرعية التي تعد تسجيلا كاملا للحياة اليومية المصرية سواء في المدينة او الريف يمكن للباحث الوقوف على العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة بين افراد الاسرة الواحدة ثم بين افراد المجتمع عموما عن طريق تتبع معاملاتهم اليومية واشتراكهم في الاعمال بعضهم مع بعض ، حيث ان كل المعاملات التي كانت تتم بين افراد المجتمع كانت تسجل بدار المحكمة الموجودة بالحي أو الاقليم(٢٠) .

كذلك يمكن من واقع هذه الوثائق الوقوف على دور الادارة وتصرفها ازاء بعض الازمات والصراعات التي كانت تسود المجتمع ، وكيف كان والي القاهرة ، الذي يعد مسؤولا عن حفظ الامن في القاهرة ، يتصرف ازاء هذه الازمات والصراعات . كذلك يمكن العثور في هذه الوثائق على جهود بعض الامراء المماليك ازاء حل بعض هذه الازمات ، وبخاصة الاقتصادية منها التي اصبحت تنتاب المجتمع بين فترة واخرى ، وبخاصة في القرن الثامن عشر(٢١) .

ومن هذه الوثائق كذلك يمكن تتبع ارهاصات التغير في الحياة الاجتماعية في الريف ، وكيف تغيرت العلاقات بين الفلاحين والملتزمين حينما ازدادت الاعباء المالية وكثرت المظالم على الفلاحين ولم يعودوا يرضخون لكل ما يفرض عليهم بسهولة ودون معارضة ، وانما اصبحوا ينازعون الملتزمين فيما يفرضونه عليهم من زيادات اصبحت ترهق كاهلهم ، ولم يعودوا كما كانوا في السابق يخشون بأس هؤلاء الملتزمين ، وحينما شعر الملتزمون بهذه الارهاصات وبثقل الاعباء على الفلاحين وخشوا هجر هؤلاء الفلاحين للارض مما يضر بمصلحتهم وبقاء الارض بدون زراعة فغيروا من علاقاتهم مع الفلاحين واختفت من عقود الايجارات بعض العبارات التي تحمل الفلاحين اعباء مالية اضافية فبعد أن كان العقد في السابق يتضمن انه على الفلاحين دفع مايترتب على الحصة المذكورة، لجهة الكشوفية، وحق الطرق، وخدم العسكر والرزق والاوقاف، وجرف الجسور والمساقي السلطانية ، ومال الجهات والتقادم والفرد وساير المصاريف الكلية والجزوية

وغير ذلك الجاري به العادة اختفت هذه العبارة في نهاية القرن الثامن عشر من عقود الايجار ، بل واصبحت هذه العبارة اذا ذكرت في العقد تردف بعبارة تلغيها من على كاهل الفلاحين وتحملها للملتزم نفسه فتذكر عبارة « فان ذلك جميعه على مولانا الملتزم المشار اليه اعلاه» (٢٢) .

ومن قراءة هذه الوثائق كذلك يمكن تتبع عملية امتزاج فئات المجتمع المختلفة وخاصة في القرن الثامن عشر فعمليات التزاوج اصبحت تتم بين هذه الفئات بصورة كبيرة وبدات الحواجز التي كانت تحكم المجتمع من قبل تذوب فاصبح ابناء التجار والمهن الاخرى من المصريين وغير المصريين يقبلون على التزاوج من الفئات الاخرى عسكرية وغير عسكرية ، بل ومن الديانات الاخرى وعمليات اشهار الاسلام بين اليهود والمسيحيين في تلك الفترة كما سجلتها الوثائق اصبحت تتم بصورة كبيرة نتيجة لهذا التزاوج بين المسلمين وغير المسلمين (٢٣) .

كما ان هذه الوثائق تسجل الاحوال الشخصية لاهل الذمة ، والمهن التي كانوا يشتغلون بها من صرافة وتجارة وحياكة وصياغة ونجارة وكيف انهم كانو يلجأون بشكاواهم الى قاضي الشرع مثلهم في ذلك مثل المسلمين ليفصل لهم قضاياهم ويرد لهم حقوقهم طبقا لاصول الشريعة وللتقاليد التي كانت سائدة في المجتمع(٢٤) .

اما بالنسبة لدور اهل الذمة في الريف فان هذه الوثائق ترسم صورة للدور الكبير الذي كان يقوم به الاقباط في ادارة القرية المصرية فقد كانوا يقومون بعمل الصرافة وكان هؤلاء الصرافون طبقا للدفاتر التي كانت بايديهم يعرفون المنزرع والبور من اراضي كل قرية ومقدار الضرائب المقررة على كل فدان وقد تلاعب بعضهم في كثير من الاحيان بمقدرات الفلاحين مستغلين سلطتهم في وقت جمع الضرائب ، حتى اصبح وقت مجيء الصراف الى القرية من الاوقات الذميمة في نظر الفلاحين ، وعموما فان معرفتهم باراضي القرى تفصيليا اعطاهم اهمية كبيرة في ادارة القرية ، وقد استطاع رجال الحملة الفرنسية اعتمادا على دفاتر هؤلاء الصرافين الاقباط ان يضبطوا دخل ... من الاراضي الزراعية وان يضعوا دفاتر الترابيع ، وهي الدفاتر التي تحتوي على تفاصيل ذات اهمية بالغة عن مساحة كل قرية بالفدان ومقدار الضريبة المقررة على كل فدان ، والاعباء المالية الاخرى المقررة التي كانت مقررة على القرى ، والى جانب ذلك فان الاقباط اشتغلوا ببعض الصناعات التي كانت قائمة آنذاك مثل صناعة غزل ونسج الصوف والاشراف على خلايا النحل وصناعة التفريخ وغير ذلك من الصناعات الريفية (٢٥)

وقد كان اشتغال الاقباط بالاعمال السابقة هو الاساس الذي قامت عليه ثروات بعض بيوتهم منذ نهاية القرن الثامن عشر .

ومن هذه الوثائق يمكن رصد تاريخ عملية اجتماعية ذات مغزى كبير في تاريخ مصر الاجتماعي وهي حركة الاعتاق وتحرير الرقيق الذين كان يجلبهم الامراء المماليك ويحملون لقب معتوق او معتوقة ، وبذلك يملكو نحريتهم ويتزاوجون من فئات الشعب المختلفة ويمتزجون بها وبخاصة في القرن الثامن عشر ، بل ان هؤلاء العتقاء اصبحوا ملتزمين وتجارا واصحاب رؤوس اموالنتيجة لما كان اسيادهم الاوليغدقونه عليهم من هبات وبخاصة اذا كانوا عتقاء امير كبير من امراء المماليك .

اما وثائق محاكم الاقاليم فانها تسجل العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة في الريف وبخاصة عمليات الزواج والطلاق والتركات ، وعلاقات الاسر بعضها ببعض ، وكيف انها اصبحت متشابكة بين افراد العائلة الواحدة او العائلات المختلفة كما توضح الدور الذي اصبحت تلعبه طوائف المهن في المجتمع الريفي ، وتحكمها فيكثير من الاسعار ، وبخاصة فئة التجار ، كما نعثر فيها على ملامح تغير بعض العلاقات الاجتماعية التي كانت قائمة بين اهل الريف وفئة الملتزمين وبين الملتزمين بعضهم ببعض ، وبين الجميع واجهزة الادارة ، وهجر الفلاحين لقراهم وخراب كثير من القرى نتيجة لكثرة الاعباء التي اصبحت على الفلاح المصري وكيف تأثر كذلك بالصراعات المملوكية التي اتخذت من القرىميدانا فسيحا لها ، كما توضح كذلك ان بعض ابناء الريف الذين حازوا على بعض الثراء اصبحوا يشكلون فئة اجتماعية متميزة على ابناء طبقتهم مثل مشايخ القرى وان كانت هذه الوثائق تعكس في نفس الوقت سوء حالة بعض هؤلاء المشايخ الاقتصادية ورغم ذلك فانهم ظلوا يمثلون الفئة الاجتماعية المتميزة على ابناء طبقتهم نظرا لوضعهم في ادارة القرية الذي ساعدهم على الاحتفاظ بهذا الوضع الاجتماعي .

كذلك فان هذه الوثائق تسجل تفصيليا الاحداث التي كانت تحدث في الريف مثل القتل والسرقة وعمليات الاغارة وغير ذلك من الجرائم ، وبخاصة ما كان يتعلق منها بأمور الري ، كما تسجل عمليات المصالحة التي كانت تتم بشأن هذه الامور ، وتلعب دورها في انهاء هذه الافات التي كانت تهدد الريف ، كما توضح دور القضاء الشرعي في انهاء هذه الجرائم ووضع العقاب الرادع لها .

عموما فان دراسة هذه الوثائق تضع امام الباحث الصورة الاجتماعية لتاريخ مصر الاجتماعي في اوضح اطار .

تقويـم :

مما سبق يتضح ان وثائق تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني جد متوفرة ، ولا تحتاج الا لجهد فريق من الباحثين للتنقيب فيها وتحليلها واعادة كتابة تاريخ مصر عن هذهالفترة كتابة صحيحةبعيدة عن خرافاتبعض المدعين عن تاريخنا في هذه الفترة مع ملاحظة الامور التالية :

اولا : ان هذه الوثائق مع ضخامة المادة التي تحويها فانها في كثير من الاحيان ترصد الحقائق دون تفسير الاسباب التي كانت وراء حدوثها كما ان بعضها ، وبخاصة ما يتعلق منها بالناحية الاقتصادية مثل دفاتر الالتزام ودفاتر الترابيع فانها تقتصر على تسجيل البيانات الاقتصادية وما يطرأ عليها من تعديل زيادة ونقصانا ، ومن هنا فان الباحث في هذه الوثائق عليه أن ينقب لمعرفة اسباب هذا التغيير في المصادر المعاصرة ويربط هذه البيانات باقوال المعاصرين ويحللها ويخرج برايه الذي يراه نتيجة للمقارنة والدراسة التي يجريها .

ثانيا : يجب ملاحظة انه مع اغراء هذه الوثائق الوفيرة فان الباحث يجب ان يكون حذرا والا يأخذ كل ما يرد بها على انه مسلمة من المسلمات لاجدال فيها ، وبخاصة وثائق المحكمة الشرعية فليس من المنطق اتباعا لاسلوب البحث العلمي السليم ان نعمم حكما يرد في هذه الوثائق ضد شيخ قرية كونه ظلم بعض الفلاحين ، على ان كل مشايخ القرى ظلمة ، وانما يجب ان يكون الحكم فيإطار الواقع والظروف التي حدث فيها الحادث ، كذلك حينما تسجل هذه الوثائق عدل ملتزم مع فلاحي حصته ، والتزامه فليس معنى ذلك ان كل الملتزمين كانوا عادلين ، وانما لابد من بحث الظروف التي ادت بهذا الملتزم ان يكون عادلا ، وهكذا يجب القياس حتى يخرج الباحث براي علمي صادق في حكمه التاريخي .

ثالثا : لابد لمن يتصدى لدراسة هذه الوثائق اولا من الالمام بمصطلحات العصر واسلوبه حتى لايضل الطريق وفهم هذه المصطلحات بمدلول عصر غير العصر الذي كتبت فيه ، كما انه لابد له كذلك من معرفة معاني بعض التعبيرات التي كانت شائعة في عامية هذا العصر وكثيرا ما ترد في هذه الوثائق لتعبر عن معنى اجتماعي او اقتصادي كانت تفهم به في عصرها بخلاف المعنى الذي نفهمه بها الان .

(١) كانت مصر في العصر العثماني مقسمة الى عدة أقسام ادارية ، يطلق على كل منها اسم ولاية أي محافظة وكانت هذه الولايات هي :

أ ــ الوجه البحري : الشرقية ، المنصورة ، البحيرة ، قليوبية ، غربية ، منوفية ، جيزة .

ب ــ الوجه القبلي : بهنساوية ، اشمونين ، منفلوط ، جرجا ، طفيح ، الواح داخل جرجا ، فيوم ، ولم يكن هذا القسيم ثابتا وانما طرأت عليه تغييرات كثيرة كان اهمها التغيير الذي حدث ١٠٧٦هـ/١٦٦٤م ، حيث برزت جرجا كاحدى الولايات الكبرى واختفت ولايات اخرى مثل اسيوط وابريم .

لمزيد من التفصيلات عن التقسيمات الادارية انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصري في القرن الثامن عشر ، ص ٧ ــ ١٧ .

(٢) كانت اراضي كل ناحية في ذلك العصر تقسم الى اربعة وعشرين قسما متساويا ، يطلق على كل منها اسم قيراط ، وهذا النظام لم يكن معمولا به فقط في الاراضي الزراعية وانما كان معمولا به في جميع المعاملات اي تقسيم كل شيء الى اربعة وعشرين جزءا ، اي قيراطا ، فمثلا كانت البيانات تسجل في دفاتر الالتزام على النحو التالي : « مقاطعة سلمون (ولاية المنصورة) : در عهدة (اي في عهدة) مصطفى اغا كتخدا سابق جاويشان بحق ٨ قيراط ، وشيخ يوسف الحنبلي بحق ٨ قيراط ، ومحمد عبد الرحمن البكري الصديق بحق ٤ قيراط ، ومحمد جوربجي تابع مستحفظان بحق ٤ قيراط » .

انظر سجلات الالتزام ، سجل رقم (٢) ، عبدالرحيم عبد الرحمن ، المصدر السابق ، ص ٩٨ .

(٣) بخصوص هذه الاوامر الباشوية والحجج الشرعية التي صدرت من قضاة الشرع في هذه الثغور بناء على هذه الاوامر يمكن الرجوع الى محافظ المرتبات ، المحفوظة بدار الوثائق التاريخية بالقاهرة حيث نجد على ظهر ورقة الامر ، الحجة الشرعية الصادرة بخصوصه ، فمثلا صدر الامر من والي مصر الى قاضي اسكندرية السيد سعدي الصادقي ، وامين جمركها عمر آغا :

الموضوع : صرف (٨٦٧٣٠) بارة ماهية عساكر قلعة اسكندرية عدد ٤٨٩ نفرا عن اشهر رجب وشعبان ورمضان ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م ، (٣٧٠) بارة مشاهرتهم عن المدة المذكورة فيكون المبلغ (٨٧١٠٠) بارة ، صرف المبلغ المذكور اعلاه من واردات جمرك الاسكندرية الى محمد مصطفى البلوكباشي وقد صرف المبلغ في ٧ ذي الحجة ١٠٨٧هـ/ ١٠ فبراير ١٦٧٧ م ، تاريخ حجة التسليم .

وكما هو مدون في الاوراق فان تاريخ صدور الامر ١٣ رمضان ١٠٨٧هـ/١٩ نوفمبر ١٦٧٦ م ، كانت تصدر الاوامر الباشوية الى امناء الجمارك لدفع مرتبات الجند من ايراداتها .

(٤) انظر عبد الرحيم عبد الرحمن ، المصدر السابق ، ص ٢٧٤ .

(٥) دار المحفوظات العمومية ، مخزن (١٨) ، عين (١٩) ، دفتر الترابيع رقم ١٦٠٠٥ .

(٦) دار المحفوظات العمومية : مخزن ١٨ ، عين ١٩ ، دفاتر الترابيع ، دفتر ١٦٠٠٥ .

(٧) ارشيف المحكمة الشرعية ، محفظة دشت رقم ٢٩٢ ، ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

(٨) ارشيف المحكمة الشرعية ، سجلات اسقاط القرى ١، ٢، ٣، وعلى سبيل المثال سجلات محكمة المنصورة ، رقم ١، ٢، ٣، ٤، ٥، دار المحفوظات العمومية ، مخزن ٤٦ .

(٩) ارشيف المحكمة الشرعية سجلات الباب العالي سجل رقم ٣١٣ ص ٣٢٥ ، مادة ٧٢٩ .

(١٠) ارشيف المحكمة الشرعية ، محفظة دشت رقم ٢٩٢ .

(١١) المحكمة الشرعية ، سجلات اسقاط القرى ، سجل رقم ٣ ص ١٠١ .

(١٢) دار المحفوظات العمومية ، مخزن (١) تركي ، دفاتر الرزق الاحباسية رقم ١٦١٧ ، ١٦١٨ ١٦٢٤ ، ١٦٢٦ .

(١٣) عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصري في القرن الثامن عشر ، ص ٨٣ — ٨٤ .

(١٤) دار المحفوظات العمومية ، مخزن (٤٦) ،مضابط محكمة المنصورة الشرعية ، رقم ١ ، ٢، ٣، ٤، ٥، حيث نجد على سبيل المثال النص التالي خاص بطايفة الخبازين « يوم الاربعاء العشرون من شهر رجب سنة ١١٢٦هـ/ ١ اغسطس ١٧١٤ حضروا طايفة الخبازين ، وعملوا تسعيرة خبز ، فوافق الخبز الصامولى النظيف المقر بالنار اوقيتين ونصف وربع اوقية بجديد ، وان الخبز الطباقى ، اربعة اواق الا ربع اوقية بجديد ، وكان سعر القمح ستة أنصاف فضة ، وربع نصف فضة والطحن بنصف فضة وجديد » مضبطة رقم (١) ص ١٠٨ .

(١٥) المحكمة الشرعية ، ارجع على سبيل المثال الى ، سجلات محكمة الباب العالي ، وسجلات محكمة طولون ، حيث تجد سيلا من هذه الوثائق المتعلقة بهذه الموضوعات.

(١٦) المحكمة الشرعية ، ارجع الى سجـلات التركات .

(١٧) دكتورة ليلى عبد اللطيف الادارة في العصر العثماني ، الفصل الثالث عشر ، ص ٣١٩ — ٣٦٥ .

(١٨) بخصوص هذه المعلومات انظر : سجلات اسقاط القرى ، سجل (٢) ، ص ٩٨ ، سجل (٢) ص ٣٠، سجلات الديوان العالي ، سجل (١) ، ص٢ ،سجلات الباب العالي ، سجل (٢٠٧) ، مادة ١٤٤ ، ص ٢٧٧ .

(١٩) دار المحفوظات العمومية، مخزن (٤٦) مضابط محكمة المنصورة الشرعية ومضبطة (١) ،ص١٣٦.

(٢٠) ارشيف المحكمة الشرعية ، سجلات الديوان العالي ، ١، ٢، ٣، وسجلات ، اسقاط القرى ، ١، ٢، ٣، ٤، ٥، وسجلات الباب العالي ، من رقم ١ الى نهاية المجموعة ، وسجلات محكمة طولـون ، وسجلات محكمة باب سعادة والخرق ،وسجلات محكمة قناطر السباع ، وسجلات محكمة الصالحية النجمية، ومحافظ دشت ففي هذه المجموعات صورة كاملة لواقع الحياة اليومية المصرية والعلاقات الاجتماعية .

(٢١) عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصري في القرن الثامن عشر ، ص ٢٢٨ — ٢٩٢ .

(٢٢) المحكمة الشرعية ، سجل مبايعات الباب العالي ، رقم ٣١٣ ، مادة ٨٩ ، ص ٣٢٥ .

(٢٣) المحكمة الشرعية ، سجلات محكمة طولون ، وسجلات الباب العالي .

(٢٤) عبد الرحيم عبد الرحمن الريف المصري ص ١٣٣ — ١٣٥ .

(٢٥) انظر : على مبارك ، الخطط التوفيقية ،ص٩ ، ص ص ٤، ٧ ، حيث ذكر وصفا مطولا لانواع معامل التفريخ ، والسبة التي تؤخذ كاجر على عملية التفريخ .